

© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النممن
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر
وليد زيبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

A W R A Q F E L A S T I N I A



فصلية فكرية عربية تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

العدد «١٥، ١٦» شتاء وربيع ٢٠١٧

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله - فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ - ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٣ - ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله - فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ - ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000009090480252510

الفهرس

الافتتاحية

٧ مائة عام على وعد بلفور.. مائة عام على اتفاقية سايكس بيكو

هيئة التحرير

الملف

٨٩ الرئيس دونالد ترامب:

التحديات عربياً ودولياً

د. صائب عريقات

أوراق ثقافية

١١٩ السرديات الروائية

لاتفاقية سايكس - بيكو

نبيل سليمان

١٢٩ الأدباء الفلسطينيين الأوائل ..

حكايات تمتد منذ القرن التاسع عشر

بدیعة زيدان

١٤٧ سينما صهيونية ممنهجة في مواجهة

سينما فلسطينية هزيلة ومرتبكة

يوسف الشايب

١٥٩ في مئوية فدوى طوقان؛

من الحَرَمَلْكَ إلى العبارة

المتوكل طه

١٧٥ الإنسان الطارئُ أبداً على الأرض

أسماء الغول

الملف

مائة عام على وعد بلفور

مائة عام على اتفاقية سايكس بيكو

١٣ مائة عام على وعد بلفور ١٩١٧-٢٠١٧

نظرة إلى سياسة التحالفات الصهيونية

صبري جريس

٢٧ وعد بلفور بين

كارل صباغ وهنري لورانس

فيصل درّاج

٤١ الخلفية الدينية لصدور وعد بلفور

عبد الغني سلامة

٥١ مائة عام على وعد بلفور:

عودة إلى بداية الصراع

عليان الهندي

٦١ مائة عام على سايكس بيكو ...

ومازالت الخطوط ترسم في الرمال

شذى يحيى

٧٥ سيل من مشاريع الحلول الاسرائيلية

لل قضية الفلسطينية لاستبدال

حل الدولتين التقليدي

نظير مجلي

- ١٨١ شعر كردي بألحان فلسطينية:
من مكان بيكه س الى زمان درويش
شعر: شيركويكه س، ترجمة: هيو محمود
عثمان، تقديم: علي عبد الأمير
- ٢٤١ نبيل شعث في كتابه "حياتي:
من النكبة إلى الثورة"
عزيز العصا
٢٥١ ١٩٤٨ .. حين سرق الاحتلال كتب
الفلسطينيين ومكتباتهم أيضاً
بديعة زيدان
- أوراق الذاكرة
- ٢٠٢ ليس ضرباً من الحنين
إنه «ضد النسيان»
أحمد يعقوب
- ٢٠٥ ضد النسيان
يدرو مارتينث مونتايث
٢١٣ فلسطين القضية المغيبة
ساندرا بارريلارو
- ٢٢٢ صور مختارة
- تقارير ومراجعات
- ٢٣٧ على هامش كتاب برنار ستيجلر:
الغباء والمعرفة في القرن الحادي
والعشرين عالم طريف يحكمه الغباء
فيصل دراج
- ٢٦١ تقرير «الاسكوا» حول نظام
الفصل العنصري الذي
تؤسسه "إسرائيل" في
الأراضي الفلسطينية المحتلة
٢٦٩ نص استقالة رجا خلف
٢٧١ خلاصة التقرير الاستراتيجي
الإسرائيلي السنوي ٢٠١٦-٢٠١٧
عليان الهندي
- أوراق المؤسسة
- ٢٨٧ "الرواية" كما هي

مائة عام على وعد بلفور.. مائة عام على اتفاقية سايكس بيكو

نتوقف في هذا العدد عند اتفاقية سايكس بيكو، ووعد بلفور بمناسبة مرور مائة عام على هذين الحدثين اللذين قرّرا مصير المشرق العربي، وعلى الخصوص مصير الشعب الفلسطيني، وأوجدا تراجيديا قضية، هي القضية الفلسطينية.

ويضمن هذا الملف مجموعة من الدراسات تحاول استقراء

الآثار التي خلّفها الاستعمار البريطاني والفرنسي على المنطقة من خلال اعلان بلفور، وتلك الاتفاقية المشؤومة.

وغني عن القول أنّ هذه الاتفاقية كانت خطة استعمارية رسمت الاطار العام لتقسيم بلاد الشام والعراق، وإيجاد الظروف الملائمة لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لمآرب استعمارية بعد تحالف الرأسمال الاستعماري مع الرأسمال اليهودي والحركة الصهيونية، والتخلّص مما عرف بالمسألة اليهودية (سياسة الجيتو ورفض الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها) والتي كانت تمثل مشكلة وأزمة في أوروبا.

ولقد كان وعد بلفور الإعلان الرسمي لشن حرب استعمارية على فلسطين واقتلاع شعبها ونفيه، وإحلال اليهود من مختلف بقاع العالم مكانه.

ومن المؤسف أنه، وبعد قرن من الزمن، تقرر الحكومة البريطانية الاحتفال بمرور مائة عام على اطلاقه كاشفة نهجها الاستعماري الذي ما زال قائماً رغم انحسار دورها ومكانتها الاستعمارية. ويتعيّن علينا أن نتصدى بكل الوسائل الممكنة والمتاحة لهذا التوجه، ونذكّر هنا بخطاب الرئيس

أبو مازن في القمة العربية الأخيرة الذي طالب الدول العربية بالتصدي لذلك، ودعوة الحكومة البريطانية بتقديم الاعتذار للشعب الفلسطيني عن ذلك الوعد الذي مثل وعدا ممن لا يملك الى من لا يستحق.

ونعود الى الحاضر والراهن، والتحدّيات التي تواجه العالم العربي والقضية الفلسطينية في عهد الرئيس الأميركي (دونالد ترمب) وانشغال المستوى السياسي العربي والإسرائيلي في محاولة قراءة سياسته التي لا تزال ملتبسة.

وكانت حكومة نتياهو قد رحبت بفوز ترمب خصوصا وأنه أطلق أثناء حملته الانتخابية تصريحات مناصرة لإسرائيل، سواء بخصوص الاستيطان، أو نقل السفارة الأميركية من تل أبيب الى القدس، مما يعني اعترافا أميركيا بالقدس عاصمة لإسرائيل.

لكن هناك قلقاً في حكومة نتياهو والأوساط اليهودية بعد أن أدركوا أنّ هناك فرقا بين تصريحاته الانتخابية، وبين ممارساته وسياسته عندما دخل البيت الأبيض، وبدأ يطرح الأسئلة من خلال مبعوثه جيسن غرينبلات حول الاستيطان، وأسئلة أخرى حول المفاوضات، والذي قام أيضا بالالتقاء مع الرئيس محمود عباس، بعد الاتصال الذي أجراه ترمب مع الرئيس عباس، ودعوته لزيارة واشنطن، ودعوة العاهل الأردني والرئيس السيسي أيضا.

وفي هذا العدد نتابع ما يدور في إسرائيل وما يجري من جدل وأفكار حول رؤية تيارات هامة لمستقبل الحل للقضية الفلسطينية، انطلاقا من خطاب ترمب (دولة واحدة أو دولتان لا يهم) مما فسره الإسرائيليون انتهاء مشروع حل الدولتين.

ولذلك حسب قول الباحث الفلسطيني الخبير بالشأن الإسرائيلي نظير مجلي : خلال بضعة أسابيع من تسلّم ترمب الحكم انهمرت على الساحة السياسية الإسرائيلية مشاريع حلول لتسوية الصراع تكون بدائل لحل الدولتين ، وقد أصبحت هناك سبعة مشاريع حتى الآن بعضها من اليمين المتطرف، وبعضها من اليسار الراديكالي أو من الوسط.

ويمكن للقارئ والمهتم متابعة تفاصيل هذه المشاريع في مقال الأستاذ نظير مجلي المنشور في هذا العدد.

في مؤتمر القمة العربية عادت القضية الفلسطينية لتصدر المشهد الرسمي العربي بعد غياب لها كأولوية ناجم عن انشغال الدول العربية بمشاكلها الداخلية، وبروز أولويات مكافحة الإرهاب، والهجرة، واللجوء.

عادت القضية الفلسطينية على أجندة القمة كما كانت، القضية المركزية للصراع في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من النقد الموجه للجامعة العربية والقمم العربية، فإن عودة الاهتمام بالقضية الفلسطينية استقبل بالرضا من جانب القيادة الفلسطينية، ويحدوها الأمل أن يكون لقاء الرئيس أبو مازن في واشنطن بالرئيس ترمب ناجحا وخطوة نحو حماية حل الدولتين، ووضع حد لسياسة الاستيطان، خصوصا وأنه -أي الرئيس أبو مازن- مدعوما ومسلحا بقرارات القمة الداعمة للقضية الفلسطينية وحل الدولتين، ومدعوما من الدول ذات التأثير كمصر، والأردن والسعودية، وتوافق زيارته زيارة الرئيس السيسي والعاهل الأردني مما يعطي زخما ودفعاً لهذه الزيارة.

وتواصل مجلة أوراق فلسطينية رسالتها في مواكبة مستجدات القضية الفلسطينية بأبعادها السياسية والفكرية، وفي الأعداد القادمة، سننشر المزيد من الدراسات حول: التحديات التي تواجهنا في عهد الرئيس ترمب، وحول مكانة القضية في الساحة الدولية.

الملف

مائة عام على وعد بلفور

مائة عام على اتفاقية سايكس بيكو

مائة عام على وعد بلفور ١٩١٧-٢٠١٧ نظرة إلى سياسة التحالفات الصهيونية

صبري جريس*

في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر)، قبل مائة عام، أي سنة ١٩١٧، أرسل وزير الخارجية البريطاني ارثور جيمس بلفور رسالة إلى والتر روتشيلد، أحد زعماء الجالية اليهودية في بريطانيا، بهدف تحويلها إلى فرع المنظمة اليهودية العالمية في بريطانيا (وهي آنذاك برئاسة الدكتور حاييم وايزمان، فيما بعد رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، وأول رئيس لإسرائيل بعد إقامتها، نصت على ما يلي: «إن حكومة جلالته تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يفهم بجلاء بأنه لا يؤق أمر من شأنه أن يجحف بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين، أو بالحقوق والأوضاع التي يتمتع بها اليهود في أية بلاد أخرى».

وعرفت هذه الرسالة في الأدبيات العربية، منذ ذلك الوقت، باسم «وعد بلفور». وأصبحت فيما بعد، الأساس السياسي «العقائدي» لحكم بريطانيا، ثم انتدابها على فلسطين خلال السنوات ١٩١٨-١٩٤٨، الذي أرسيت استناداً إليه أسس «الوطن القومي اليهودي»، الذي مهد لإعلان قيام دولة إسرائيل على جزء من أرض فلسطين سنة ١٩٤٨.

ولسنا هنا في صدد تقديم بحث أكاديمي تاريخي عن بلفور، أو متابعة كيفية تبلوره، إذ صدرت

* باحث فلسطيني

في هذا الصدد العديد من الكتب والدراسات والأبحاث، لمن قد يعنيه الأمر. بل إن ما يهمنا هو الوقوف على الخلفيات وتشابك المصالح السياسية العالمية، على الصراعات التي رافقتها، وأفرزت من بين ما أفرزته، ذلك الوعد.

فمع بداية القرن الماضي، أي في مطلع سنة ١٩٠٠، كان الاستعمار الغربي، ممثلاً بالدول الأوروبية أساساً، قد تمكن من بسط سيطرته، بشكل أو بآخر، على كافة مناطق وشعوب وكيانات قارتي آسيا وأفريقيا، سعياً وراء توسيع النفوذ والتحكم في الموارد الاقتصادية لمنفعة المستعمرين الأجانب، على حساب سكان القارتين الأصليين بالطبع. وقد أدى هذا الاتجاه إلى تعاضم المشاحنات والمنافسة والخلافات بين الدول المستعمرة نفسها، إلى أن استفحلت الخلافات، وارتفعت حدة التوتر بينها، مهدت في نهاية الأمر، لنشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨). ومع انتهاء هذه الحرب، بانتصار الحلفاء، تم رفع أسس نظام عالمي جديد للحلفاء المنتصرين، وعلى رأسهم بريطانيا، أقوى دول الحلفاء، وهي «الإمبراطورية التي لم تكن الشمس تغرب عن مستعمراتها»، المنتشرة في كافة أنحاء العالم. اليد الطويلة في وضعه وإرساء أسسه.

لم تشهد المرحلة الأولى من الحرب العالمية أي تطور أو مكسب ملموس بالنسبة للصهيونيين، الذين لم يكونوا، في أي حال، لا في العير ولا في النفير، في تلك المرحلة. كما أن القوى المتحاربة كانت أساساً منهمكة، من جهتها، في حشد التأييد، وكسب الحلفاء الجدد لها، سعياً للانتصار في تلك الحرب. وفي هذا الإطار، قامت بريطانيا، في مرحلة مبكرة، بإجراء اتصالات، على شكل رسائل متبادلة، بين الشريف حسين في مكة، والسير هنري مكماهون، المفوض البريطاني في مصر، تم تبادلها خلال الفترة من تموز (يوليو) ١٩١٥، حتى ١٠ آذار (مارس) ١٩١٦.

وملخص هذه الرسائل، هو اقتراح البريطانيين على الشريف حسين بأن يعلن الثورة على الإمبراطورية العثمانية، التي كانت تسيطر آنذاك على معظم بلدان المشرق العربي، ومن ثم يدخل الحرب إلى جانب البريطانيين ضدها، وذلك بعد أن تحالفت مع ألمانيا، وراحت تحارب إلى جانبها، وفي مقابل سياسة كهذه، وعد البريطانيون الشريف حسين بالاعتراف باستقلال المشرق العربي، بعد الحرب، كدولة مستقلة قائمة بحد ذاتها. وقد أوفى الشريف حسين بوعوده، حسب الاتفاق مع البريطانيين، وأعلن الثورة فعلاً على الحكم العثماني، وانخرط في الحرب مع رجاله إلى جانب البريطانيين، ضد العثمانيين وتركيا.

غير أنه لم يمر إلا وقت قصير، حتى اتضح أن بريطانيا، وفقاً لـ «تقاليد» السيطرة والتآمر الامبريالية، لم تكن معنية كثيراً بالالتزام بوعودها للشريف حسين أو تنفيذها تماماً. بل إن تلك الوعود، جاءت أساساً لكسب تأييده، وتأييد العرب لها في الحرب، مما يساهم في سعيها إلى النصر، وبعد ذلك لكل حادث حديث. فبعد نحو شهرين فقط على تبادل رسائل الشريف حسين- مكماهون، أي خلال أيار (مايو) ١٩١٦، توصلت دول الحلفاء الثلاثة، بريطانيا وفرنسا وروسيا، لنص اتفاق عرف فيما بعد باسم اتفاقية سايكس- بيكو (نسبة للمسؤولين البريطاني والفرنسي اللذين بادرا إلى عقده)، مفاده أن تقوم تلك الدول، بعد انتهاء الحرب، بتقسيم المشرق العربي، وبصورة أكثر دقة، تركة الإمبراطورية العثمانية، إلى مناطق نفوذ تابعة لها، وخاضعة لسيطرتها أو لانتدابها كما عُرف ذلك النظام الذي أنشئ بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك في خلاف واضح مع التعهدات التي قطعت للشريف حسين. وقد اتصلت روسيا، في أي حال، من هذا الاتفاق بعد نشوب الثورة فيها، ثم تغيير نظام الحكم سنة ١٩١٧، بل إنها قامت بفضح ذلك الاتفاق بإعلان مضمونه على الملأ. إلا أن ذلك لم يمنع الطرفين الآخرين، بريطانيا وفرنسا، من المضي قدماً في مخططاتهما بموجبه، حيث عمدتا فعلاً إلى تقسيم المشرق العربي بعد الحرب إلى عدة دول، هي العراق وسوريا (ثم لبنان) وشرق الأردن وفلسطين، التي أخضعت جميعاً لانتداب بريطاني أو فرنسي، فيما فرضت الدولتان سيطرتهما على تلك المناطق / الدول. إلا أن ذلك لم يتم بمثل تلك السهولة التي جرى توقيع اتفاقية سايكس- بيكو بموجبها. فقد دخلت بريطانيا وفرنسا في مشاحنات داخلية فيما بينهما، حول توسيع مناطق نفوذ ومنافع كل منهما على حساب الأخرى، فيما يشبه الخلافات التي تنشأ بين اللصوص عند توزيع غنائم سرقاتهم. وهنا جاء دور الصهيونيين لاستغلالهم ضمن سعي بريطانيا إلى ضمان المزيد من المكاسب لصالحها على حساب حليفها- مناوئتها فرنسا.

ومن جهتهم، لم يكن الصهيونيون، مبدئياً على الأقل، بعيدين كثيراً عن المفاهيم والنظريات، وأهمها الفكر الاستعماري، فهم أساساً، آخر الحركات الاستعمارية التي ظهرت إلى الوجود وتبلورت بالشكل الذي برز فيما بعد خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما كان الاستعمار الأوروبي في قمة جبروته وعنفوانه. ويظهر تأثير الاستعمار ومفاهيمه على آباء الحركة الصهيونية، ومفكرها جميعاً، بصورة واضحة للغاية في كتبهم ومقالاتهم ومشاريعهم. فكل أولئك دعوا إلى إقامة دولة يهودية

في فلسطين، بمساعدة الدول الأوروبية الاستعمارية، دون لف أو دوران، مقابل لعب دور الحلفاء. وعملياً «عملاء» القوى الاستعمارية في المشرق، بل إن ثيودور هرتسل، مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية، قضى معظم سني حياته، منذ المؤتمر الصهيوني الأول، في بازل سنة ١٨٩٧، وحتى وفاته سنة ١٩٠٤، سعيًا وراء مقابلات مع ملوك وأمراء وحكام زمانه، في أكثر من دولة أوروبية، لشرح مخططة لهم، وحملهم على تبني الفكر الصهيوني، ورعاية ومساعدة اليهود على إقامة دولتهم، دون أن يحظى، في أي حال، بنجاح يذكر.

ومع نشوب الحرب العالمية، فقد الصهيونيون توازنهم، وبأن كأنهم لا يدرون ما يفعلون، إذ لم يكن واضحاً، في بداية الحرب، من الذي سينتصر فيها. ولذلك، توخى الصهيونيون الحذر في مواقفهم، منتظرين منعطفاً واضحاً يمكن الاستناد إليه، أو الانطلاق منه، للاستمرار في مساعيهم، فيما اتجهت رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية إلى اتباع «الحياد» بين الأطراف المتحاربة، وقامت بنقل مكتبها الرئيسي، الذي كان حتى نشوب الحرب في ألمانيا، إلى كوبنهاجن في الدنمارك المحايدة التي لم تشارك في الحرب.

أما في بريطانيا، فإن صهيونيتها، وعلى خلاف موقف المنظمة الأم، لم يلتزموا بأي حياد، بل استمروا في مساعيهم للفت نظر السلطات البريطانية إلى مشاريعهم، وحملها على تأييدهم، وهو ما كانوا يقومون به سابقاً. في أي حال، وإن لم يحظوا بأي إنجاز يذكر، فالدكتور وايزمان، رئيس فرع المنظمة في بريطانيا، مثلاً، قضى ١٠ سنوات من حياته، بعد أن استقر في ذلك البلد، وهو يسعى لمقابلة، ولو مسؤول بريطاني رفيع واحد لشرح مواقف منظمته وخططها، ولكنه لم يفلح في ذلك. ولكن هذا الموقف البريطاني، المتجاهل للصهيونيين، تغير فجأة، بعد توقيع اتفاقية سايكس-بيكو، عندما راح البريطانيون يبحثون في دفاترهم القديمة؛ للتفتيش عن حلف جديد يساعدهم على إحكام سيطرتهم على بلدان المشرق العربي، مقابل طلبات حلفائهم، وخصوصاً فرنسا. وعندها تغير موقفهم، وأرسلوا من جهتهم، الدعوات لزعماء الصهيونيين لمقابلتهم، وبحث مطالبهم. وعلى الأثر جرت جولات من المفاوضات بين الطرفين، أعرب البريطانيون خلالها عن استعدادهم لتبني طلبات الصهيونيين، واحتضانها، ومحاولة العمل على تحقيقها، ضمن المفهوم البريطاني لها على الأقل، ملمحين للصهيونيين أنه في سبيل ذلك قد يتوجب عليهم إجراء الاتصالات الملائمة، واستغلال

نفوذهم لدى دول الحلفاء الأخرى، حتى لا تعارض منح بريطانيا بالذات الانتداب على فلسطين. وكانت بريطانيا آنذاك، معنية بإحكام سيطرتها على فلسطين؛ لضمان الدفاع عن الجناح الشرقي لقناة السويس، شريان اتصالاتها مع الهند، التي كانت آنذاك أكبر المستعمرات البريطانية، بما تدره من منافع مادية وميزات اقتصادية على الإمبراطورية البريطانية.

ولم يخيب الصهيونيون آمال البريطانيين بعد ذلك التفاهم بين الطرفين. فقد انطلقوا بعد ذلك، خلال السنة الأخيرة من الحرب وبعدها قبيل انعقاد مؤتمر الصلح، ثم توقيع اتفاقية سيفر سنة ١٩٢٠، وبعدها اتفاقية لوزان سنة ١٩٢٣، للعمل بهمة ونشاط لدى دول الحلفاء وغيرها لحملها على منح بريطانيا الانتداب على فلسطين، وذلك بعد أن اقنعوا السلطات الفرنسية، ثم الإيطالية، وأخيراً الأميركية بذلك. وقد كافأت بريطانيا بدورها الصهيونيين على نشاطهم هذا، وضمنت نص وعد بلفور في اتفاقية الصلح مع تركيا، ثم جعلته جزءاً من صك الانتداب البريطاني على فلسطين، الذي أقرته عصبة الأمم، المنظمة «الأم» للأمم المتحدة الحالية، وأصبح الأساس الدولي لحكم بريطانيا في فلسطين.

بقيت بريطانيا، خلال العشرين سنة الأولى من حكمها في فلسطين (١٩١٨-١٩٣٨) على الأقل، عند حسن ظن الصهيونيين بها، لجهة التزامها بتنفيذ سياسة «الوطن القومي اليهودي» في البلد، وذلك على الرغم من معارضة العرب الفلسطينيين لذلك، وقيامهم في أكثر من مناسبة، بهبات وانتفاضات وثورات ضد نظام الحكم البريطاني. فخلال تلك الفترة، سهّلت بريطانيا دخول المهاجرين اليهود إلى فلسطين وغضت الطرف عن نشاطهم في شراء الأراضي، خصوصاً من الإقطاعيين العرب، وإقامة المستوطنات اليهودية عليها. ولم تفلح كل أشكال المقاومة الفلسطينية في ثني البريطانيين عن سياستهم تلك. ونتيجة لذلك، نما الوطن القومي في فلسطين، وخصوصاً خلال منتصف الثلاثينات، بصورة ملحوظة للغاية. فقد ارتفع عدد السكان اليهود في فلسطين، لما يعادل ٥٪ من سكان فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، ليصل إلى نحو ثلث السكان هناك عشية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩. إضافة إلى عشرات المستوطنات الجديدة التي أقيمت في أنحاء متفرقة من فلسطين. كذلك سعت سلطات الانتداب إلى منح ما يمكن أن يسمى «حكماً ذاتياً» للمستوطنين اليهود، وذلك بسن قوانين خاصة للسلطات المحلية، من بلديات، أو مجالس محلية/ قروية، منحها مدى لا بأس

به من الصلاحيات لإدارة شؤون القاطنين فيها، مما سهّل إقامة كيان يهودي منفصل، له طابعه الخاص، داخل فلسطين، رغم الأثرية العربية التي كانت تقطنها آنذاك. إلا أن هذا «الدلال» البريطاني للصهيونيين تغيّر، بشكل ملحوظ، مع أواخر الثلاثينات؛ نتيجة لنشوب الثورة العربية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) من جهة، ثم ظهور نذر حرب عالمية جديدة في الأفق من جهة أخرى. فمع نهاية الثلاثينات، تأزمت الأوضاع عامة في أوروبا، خصوصاً بعد وصول النازية إلى الحكم في ألمانيا، وبدأ أن صراعاً كونياً جديداً قادم لا محالة. وإزاء مثل هذه التحديات الوجودية، لم تعد بريطانيا قادرة على الاستمرار في معاداة عرب فلسطين والدول المجاورة المتعاطفة معهم. وهي تتوقع حرباً طاحنة قد تنشب في أية لحظة. وبذلك لم يبق أمامها إلا استرضاء وكسب سكوتهم، وهدوئهم على الأقل، ومن ثم منعهم من الانضمام إلى المعسكر المعادي لها، لكي تتفرغ لمجهودها الحربي في الأماكن الضرورية. ولهذا، وبعد أن فشلت كافة المحاولات للوصول إلى اتفاق يهودي-عربي في فلسطين، بما في ذلك طرح مشروع لتقسيم فلسطين، لم يقبل به أحد، بادر البريطانيون إلى اتخاذ سياسة مستقلة خاصة بهم للحفاظ على ما اعتبروه مصالحهم الحيوية. واستطردوا لذلك نشروا «كتاباً أبيض» سنة ١٩٣٩، أعلنوا بموجبه أنهم سيفرضوا قيوداً على الهجرة اليهودية إلى فلسطين بشكل قاسٍ، بحيث لن يدخل البلد خلال السنوات العشر القادمة أكثر من ٥ آلاف مهاجر يهودي جديد. كما فرضوا قيوداً أخرى على شراء الأراضي من قبل اليهود، وإقامة المستوطنات عليها. ولم يقبل الصهيونيون بهذه القيود، وأحتجوا عليها بشدة. ولكن دون اتخاذ قرارات تذكر ضدها. ففي الحرب على ألمانيا النازية، وسياساتها المعادية لليهود، لم يكن لدى اليهود الصهيونيين من خيار إلا التعاون مع بريطانيا، حفاظاً على وجودهم، وانتظار الفرص بعد انتهاء الحرب. وقد نشطت القيادة الصهيونية بشكل خاص، خلال سنوات الحرب، في دعم وتنظيم حملات تطوع الشبان اليهود، ذكوراً وإناثاً، في النشاط العسكري إلى جانب البريطانيين، فاندفع المئات منهم إلى القيام بذلك، وتلقي كافة التدريبات العسكرية، ليصبحوا مع تسريحهم، بعد نهاية الحرب سنة ١٩٤٥، نواة القوات اليهودية، ثم الإسرائيلية، التي خاضت حرب ١٩٤٨ ضد العرب.

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية كان واضحاً، بالنسبة للصهيونيين وغيرهم، أن وعد بلفور قد أصبح جزءاً من التاريخ، بعد أن ولى عهده، خصوصاً بعد أن «خفّضت» الحرب مكانة بريطانيا،

ومعها فرنسا أيضاً، وحولتهما إلى قوى عالمية من الدرجة الثانية، فيما راح الأميركيون والسوفييت، يتصدرون المشهد العالمي، ويتبوأون مراكز القوى العالمية الصاعدة الجديدة. وعند بداية هذا المنعطف، مع الحقبة التاريخية الجديدة، عاد الصهيونيون إلى ممارسة سياستهم القديمة التي كان هرتسل نفسه هو من وضع أسسها أصلاً، وذلك بالتفتيش عن قوة كبرى جديدة «يتحالفون» معها، وبالتالي يأتمرون عند الضرورة بأمرها، حتى تتبنى مشروعهم وتساعدهم على تنفيذه. وفي هذا الصدد وجدوا، هذه المرة بالذات، قوتين اثنتين، وليس قوة واحدة فقط.

فخلال المرحلة الأخيرة في الحرب العالمية الثانية، وبعد أن بات واضحاً أن الانتصار على ألمانيا النازية، أصبح مسألة وقت فقط، راحت الاتصالات والمشاورات، ومعها المشاريع والخطط تطرح بين الحلفاء وغيرهم؛ تمهيداً لترتيب الأوضاع العالمية مجدداً بعد انتهاء الحرب. وكما حدث مع نهاية الحرب العالمية الأولى، شهدت هذه المرحلة أيضاً ذلك النوع من الشد والجذب، والتحالفات وتشابك المصالح وتناقضها. وهنا أيضاً، مرة أخرى، كما حدث خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، أدلى الصهيونيون بدلوهم، وهم يطالبون علناً بالتححرر من سيطرة بريطانيا على فلسطين، وإقامة دولة لهم فيها أو عليها. ولم تكن القوتان الكبيرتان، اللتان برزتا بعد الحرب، أميركا وروسيا، من المتعاطفين كثيراً، في أي حال، مع بريطانيا، أو المعنيين كثيراً بالسماح لها بالاستمرار في السيطرة على مستعمراتها، ومناطق نفوذها. ولذلك، وجدت الدعوات الصهيونية لإنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين آذاناً صاغية لديهما. ولم تمنع أي منها، مبدئياً على الأقل، في إقامة دولة يهودية في قلب المشرق العربي، يمكن أن تساعد تلك القوى، لقاء تبنينهم لها، على مد سيطرتها، وتوسيع نفوذها في العالم العربي، في مشرقه على الأقل، ولذلك، وجدت المقترحات الصهيونية قبولاً لديها في بادئ الأمر، ليتغير موقفها، بعد إجراء المزيد من الاتصالات والتفاهات مع الصهيونيين إلى تأييد واضح لمشروع الدولة اليهودية. وخلال المداولات في الأمم المتحدة، التي أسفرت في نهايتها عن صدور قرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧، وإقامة دولتين، عربية ويهودية فيها، كان الأميركيون والسوفييت يتنافسون فيما بينهم حول حشد الدعم الأكبر لمشروع التقسيم. بل إن المندوب السوفيتي غروميكو (فيما بعد وزير خارجية الاتحاد السوفيتي لسنوات طويلة) ألقى خلال تلك المداولات خطاباً رناناً في دعم الطلبات الصهيونية يخجل به أكثر الصهيونيين تزمناً.

ولم يكتف الصهونيون بذلك، بل إنهم لفرط ثقتهم بأنفسهم، أقاموا «منافسة» بين الأميركيين والسوفييت، بشأن من منهم سيكون الأسبق إلى الاعتراف بالدولة اليهودية بعد الإعلان عن إقامتها، وكانت «الغلبة» في هذا المضمار للأميركيين، إذ أعلن الرئيس الأميركي ترومان عن اعتراف بلاده بإسرائيل بعد ٧ (سبعة) دقائق من الإعلان عن إقامتها، فيما «تأخر» السوفييت إلى اليوم التالي.

وعلى هذه الخلفية تمتعت إسرائيل، عند إقامتها، عملياً بـ «وعدي بلفور» جديدين، أحدهما أميركي والثاني سوفييتي، على التأييد والدعم الذي ينطوي عليه ذلك، بل إن السوفيت زدوها بالأسلحة، في المرحلة الأخيرة من حرب ١٩٤٨، عن طريق تشيكوسلوفاكيا (كما فعلوا ذلك فيما بعد، مع مصر عبد الناصر في منتصف الخمسينات). وقد ساهم ذلك الدعم، إضافة إلى عوامل الثورة الصهيونية الذاتية، في انتصار إسرائيل في حرب ١٩٤٨، ومن ثم فرض اتفاقيات هدنة على الدول العربية المجاورة، وبالتالي إرساء أسس دولة واضحة المعالم، لا تخلو من عناصر القوة في مراحل تأسيسها الأولية. وقد كانت إسرائيل، في سنواتها الأولى، بمثابة الطفل المدلل، لكل من الأميركيين والسوفييت. فيما حافظت بدورها على مسافة واحدة من كليهما. إلا أن هذا الوضع تغير مع مطلع الخمسينات، بعد تصاعد حدة الحرب الباردة بين المعسكرين العالميين، التي أدت، من بين ما أفرزته، إلى نشوب الحرب الكورية. وعندها لم تعد إسرائيل قادرة على التزام «الحياد»، إذ لم يكن بد من اتخاذ موقف مؤيد لهذا الطرف أو ذاك، فاختر بن غوريون رئيس حكومة إسرائيل آنذاك، أميركا وانحاز إلى جانبها، معلناً تأييده لها. وقد ساهم ذلك في توتير العلاقات مع السوفييت وأتباعهم، وبقيت علاقات إسرائيل معهم جميعاً متأزمة حتى انهيار النظام الشيوعي في أوائل التسعينات.

ويبدو أن إسرائيل، وحتى بعد أن أرست أسسها وأصبحت دولة معترفاً بها من قبل الأمم المتحدة، والعديد من شعوب العالم، غير قادرة على التخلي عن فلسفة «وعد بلفور»، بالمفهوم الذي يدعو إلى «تحالف» مع قوة عظمى واحدة على الأقل، يمكن أن تستند إلى تأييدها عند الضرورة. بل إنها تكاد تفقد صوابها، وتأتي بما لا يخطر على بال إن شعرت أنها خارج دائرة الاهتمام والضوء. ففي النصف الأول من خمسينات القرن الماضي، مثلاً، اتجهت الولايات المتحدة إلى إقامة حلف من الدول العربية والإسلامية في الشرق الأوسط «لاحتواء الخطر الشيوعي» (حلف بغداد، فيما بعد). ولم توافق الدول العربية، المرشحة للانضمام إلى الحلف، وعلى رأسها العراق، على قبول إسرائيل عضواً

فيه. كما أن الإدارة الأمريكية آنذاك، في عهد ايزنهاور، ووزير خارجيته دالاس، لم تكن بدورها تعول على إسرائيل كثيراً، وفي مواجهة المعارضة العربية قررت، إخراجها من مشاريع الأحلاف المقترحة ووضعها جانبا. ونتيجة لذلك، دخلت إسرائيل حالة من «الاكتئاب»، والهوس لم تعدها سابقاً؛ لشعورها أنها مستثناة من أية مشاريع سياسية أو عسكرية في الشرق الأوسط، وهو ما يبقيها على عزلتها. ولذلك، راحت تفتش عن إجراء تقوم به للفت الأنظار إليها، على غرار قصة جحا، عندما كسر مزراب النبع. ففي إطار الاستعدادات لإنشاء تلك الأحلاف، طرحت قضية انسحاب البريطانيين من منطقة قناة السويس في مصر، وهو ما لم تحبذه إسرائيل؛ لأنه سيعطي المصريين حرية تحرك كاملة في بلدهم. وفي وضع كهذا، لم يجد الإسرائيليون من حيلة، إلا الإيعاز لبعض جواسيسهم من اليهود في مصر، بالقيام بإلقاء المتفجرات في بعض الأماكن العامة في مصر؛ وذلك، «لإثبات» أن النظام المصري برئاسة عبد الناصر، ضعيف، ولا يسيطر على بلده. ولذلك، يجدر بالبريطانيين أو غيرهم عدم الوصول إلى أي اتفاق معه. وكانت النتيجة أن ألقت السلطات المصرية القبض على أعضاء تلك الشبكة المخربة، وأعدمت اثنين منهم. وقد كشفت هذه المغامرة في إسرائيل لاحقاً، وعرفت باسم «القضية المشينة» وترتبت عليها تداعيات كادت تهز أركان النظام الإسرائيلي.

الا ان الزمن في اي حال لن يستمر طويلاً في التكشير في وجه اسرائيل ففي الفترة اياها في منتصف الخمسينات ، وفيما كانت تبذل المساعي لإقامة الاحلاف العسكرية الموالية للغرب في الشرق الغربي نشبت في مغربه الثورة في الجزائر ، ضد الاستعمار الفرنسي للبلد ، وقد أنبرت مصر عبد الناصر ، منذ نشوء الثورة ، الى مساعدتها بالمال والسلاح، علناً ودون تحفظ ، مما أثار حفيظة الفرنسيين ، الذين لم يكونوا يعتبرون الجزائر في ذلك الوقت مستعمرة بل جزءاً من فرنسا البلد الام (!) ولم تكتف مصر بذلك ، بل ان عبد الناصر ، بعد ان راح الغرب يعاديه ، في اعقاب سياسة الحياد الإيجابي التي أنتهجها محاولاً مع بعض الدول ، مثل الهند ويوغوسلافيا ، الحفاظ على المسافة نفسها تجاه المعسكرين العالميين ، الغربي والشيوعي الشرقي ، ونتيجة لذلك تعرض لحصار المال والسلاح، فامتنعت الدول الغربية عن بيع السلاح لمصر ثم الغى البنك الدولي تعهده بالمساهمة في انشاء السد العالي في اسوان وردّ عبد الناصر على ذلك بتأميم شركة قناة السويس في صيف ١٩٥٦ ، مما أعتبر تحدياً غير محمود العواقب للغرب، يستوجب بالتالي ردّاً . وعلى الأثر نسجت مؤامرة

بين زعماء اسرائيل وفرنسا ، انضمت اليها بريطانيا سريعاً ، لشن حرب على مصر بهدف اسقاط حكم عبد الناصر ، وتمثلت أسس المؤامرة في قيام اسرائيل بشن هجوم على الاراضي المصرية في سيناء ، فتستغل بريطانيا نشوب العمليات القتالية لارسال قواتها» للفصل» بين الطرفين المتحاربين «حفاظاً» على حسن سير الملاحه في قناة السويس وقد تم ذلك فعلاً ، فيما عرف باسم العدوان الثلاثي ، الفرنسي- البريطاني - الاسرائيلي على مصر في اواخر سنة ١٩٥٦ فقد هاجمت اسرائيل سيناء واحتلت اجزاء كبيرة منها اضافة الى قطاع غزة فيما راح الطيران الفرنسي والبريطاني بقصفان بورسعيد وضواحيها، بينما يحاول الاسطولان البريطاني والفرنسي اقتحام قناة السويس ولكن الرياح لم تجر بما تشتهيئه سفن المعتدين فقد أثار هذا العدوان حفيظة الاتحاد السوفيتي الذي كانت تربطه آنذاك علاقات جيدة بمصر فانبرى للدفاع عنها بقوة ، موجهاً انذاراً علنياً الى الاطراف المعتدية بالكف عن عدوانها وايقافه والا فإن السوفيت سيتدخلون عسكرياً ، وقد تتعرض كل من لندن وباريس للضرب بالصواريخ الباليستية السوفيتية فيما ترددت انباء عن استعدادات لإنزال قوات سوفيتية جواً في مصر، للقتال الى جانب جيشها. وادى هذا التدخل الحاسم الى صد المعتدين ، خصوصاً بعد ان اعربت الولايات المتحدة أيضاً عن معارضتها لتلك المغامرة ، فكان ان توقفت الحملة العسكرية على مصر ، ثم انسحبت بعد فترة كافة القوات الغازية التي دخلت مصر، بما في ذلك القوات الاسرائيلية.

غير انه رغم الفشل الذي مني به العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ فقد كانت له ، من ناحية ثانية ، آثار بعيدة المدى ، عالمياً واقليمياً فقد ادركت بريطانيا أخيراً انها اصبحت فعلاً دولة كبرى من الدرجة الثانية ، فأعلنت انها ستخلق كافة قواعدها الواقعة « شرق السويس» وتتخلى عنها، ممهدة بذلك الطريق للأميركيين للتمدد في تلك المناطق بدلاً منها بعد ذلك ، وسارعت في الوقت نفسه الى الابتعاد عن اسرائيل والتنسيق معها، أما فرنسا ، وعلى العكس من ذلك ، فقد وثقت علاقاتها مع اسرائيل بصورة قوية للغاية، ودخلت في تنسيق معها في حالات عدة . كما دعمتها عسكرياً بصورة ملحوظة وراحت تبيعها كل ما تحتاجه من اسلحة ، بما في ذلك الحديثة منها، وكل ذلك على ارضية عداء الدولتين للعرب وسعيها الى كسر شوكة مصر من جهة والاحتفاظ بالسيطرة الفرنسية الاستعمارية على الجزائر من جهة أخرى. وقد توسعت مجالات التعاون بين

الطرفين خلال النصف الثاني من الخمسينات وكاد يصبح شاملاً ولا يترك مجالاً إلا وعُني به لدرجة كاد يبدو معها أن « بلفور» القديم غير جنسيته واصبح فرنسياً ، ولم يخبُ ذلك التحالف وتظهر علامات التباعد بين الطرفين تدريجياً الا مع مطلع الستينات ، بعد أن قرر الفرنسيون الاعتراف باستقلال الجزائر والانسحاب منها وعلى الأثر راحت العلاقات الفرنسية الاسرائيلية تفتت تدريجياً مع اتجاه فرنسا لادارة ظهرها صوب سياستها الاستعمارية السابقة ومن ثم الانسحاب عن العديد من مناطق نفوذها في افريقيا ، معترفة باستقلالها ، ومع نشوب حرب ١٩٦٧ تحولت العلاقات الفرنسية -الاسرائيلية الى جفاء واضح ، عندما فرضت فرنسا حظراً على تصدير السلاح الى اسرائيل بعد ان اعتبرتها المعتدية في تلك الحرب.

وأيا كان مصير العلاقات الفرنسية -الاسرائيلية بعد حرب ١٩٦٧ ، ومن ثم انتهاء دور « بلفور» الفرنسي كان واضحاً ان التعاون الفرنسي مع اسرائيل حتى تلك الفترة كانت له آثار كبيرة ، لجهة دعم قوة اسرائيل العسكرية ، على نكسة ١٩٦٧ ، التي انتصرت فيها اسرائيل على ثلاثة جيوش عربية واحتلت مساحات شاسعة من اراضي تلك الدول ، مع ما بقي من فلسطين، لتخلق بذلك وضعاً جديداً في العالم العربي لا نزال نعيشه منذ ذلك الوقت وحتى اليوم، اي خلال الخمسين سنة الأخيرة دون انقطاع.

ومع نهاية الحرب دخلت اسرائيل في حالة من النزجسية والخطرسة والاستخفاف بالغير الى درجة كاد يبدو معها وكأنها لم تعد بحاجة الى أي « بلفور» جديد ، كائناً من كان، وأنها قادرة على تدبير امورها بنفسها، دون حماية من اية قوة عظمى او التنسيق مها. واستناداً الى مثل هذا التقدير أمعنت اسرائيل في ازدياد العرب وكذلك الاستخفاف بأي رأي او مشروع، كائنا من كان صاحبه، سواء أكانت الامم المتحدة بأكملها او أية دولة أخرى، لحل المشاكل التي نجمت عن تلك الحرب او السعي الى سلام بين دول المنطقة، وبشكل خاص رفض اية مشاريع تتعلق بالقضية الفلسطينية ، التي لم تكن اسرائيل آنذاك تعترف بوجودها أساساً.

وقد بقيت اسرائيل على حالها هذا حتى نشوب حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣، التي فاجأتها وكادت تفقدها توازنها فعشية نشوب تلك الحرب كانت اسرائيل قد وصلت الى درجة من الصلف والغرور اقنعت نفسها معها ان اية دولة عربية لن « تجرؤ» على مهاجمتها، وان فعلت ذلك سيكون

الدمار من نصيبها، ولذلك فاجأتها تلك الحرب ونتائجها تماماً ، خصوصاً بعد ان تمكن الجيش المصري من تحطيم تحصينات خط بارليف على الضفة الشرقية من قناة السويس ، وراحت القوات المصرية المدرعة تعبر الى سيناء ، قبل ان تنتهي الساعات الست الاولى من اندلاع القتال (ولهذا اطلق بعضهم على تلك الحرب اسم « حرب الساعات الستة» مقابل « حرب الأيام الستة » سنة ١٩٦٧) وعلى الخسائر التي تكبدتها اسرائيل خلالها ووصلت الى نحو ٢٧٠٠ قتيل وكانت تلك الحرب قد استمرت نحو اسبوعين او اكثر ، الا أنها ، وقبل نهايتها بمدة ، تحولت سريعاً الى حرب سياسية ، عندما راح الرئيس المصري السادات ، وقبل ان تنتهي العمليات القتالية ، يطالب بعقد مؤتمر للسلام في جنيف لحل المشاكل المتعلقة بين اسرائيل والعرب وارساء الأسس لسلام في المنطقة.

وعند هذا المنعطف شعرت اسرائيل بحاجتها الى « بلفور » جديد ، وكان هذه المرة اميركياً ، خصوصاً بعد أن انبرت الولايات المتحدة لمساعدتها خلال الحرب وأقامت جسراً جويّاً لتزويدها بكميات ضخمة من الذخائر الجديدة ، بعد ان أوشكت ترسانة الجيش الاسرائيلي على النفاذ خلال الأيام الاخيرة من القتال. وكانت هذه « اللفتة » بمثابة بادرة لحضور أميركي قوي ، ومتجدد في المنطقة ، ممثلاً في المفاوضات السياسية التي تلت انتهاء العمليات القتالية .

وكانت الولايات المتحدة العنصر المهيمن في الاتصالات والمفاوضات بين المصريين والاسرائيليين ، إلى ان انتهت ، مع نهاية السبعينات ، بعقد صلح مصري -اسرائيلي منفرد، من خلال قفز مصر على مصالح العالم العربي كافة، بل نسيانها والتخلي عنها.

ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم لا تزال اسرائيل محتمية بظل « بلفور» الأميركي، تعمل كل ما في وسعها للتنسيق مع الأميركيين مراعية عدم ازعاجهم او الاختلاف بصورة جدية مهم، مسوقة نفسها كاحدى اكبر حلفائهم في المشرق وأقواها وأكثرها مراعاة لمصالحهم والتزاما بها ، وساعدها في ذلك أيضاً اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة، والذي يبدو ان تأثيره ليس هامشياً، وقد نجحت اسرائيل في مساعيها هذه بصورة ، ملحوظة ، فراحت الولايات المتحدة تغدق عليها المساعدات العسكرية وغيرها بصورة لا سابق لها. بل ان بعض الدوائر الأميركية راحت تدعو الى جعل اسرائيل قوية بما يوازي قوة العرب جميعاً.

ولكن رغم هذا الالتزام الأميركي باسرائيل ومساعدتها لا يبدو ان اسرائيل على استعداد لوضع كل

بيضاتها في سلة الأميركيين ، خوفاً من ان ينفصوا عنها كما فعل الفرنسيون مرة . ولذلك يلاحظ انه ، اضافة الى الاحتفاظ بالعلاقات مع الأميركيين، فإن اسرائيل تحاول في الوقت نفسه مد الجسور مع العديد من القوى العالمية بما في ذلك روسيا والصين والهند وغيرها من القوى الصاعدة بل إنها تقيم مع العديد منها مستوى لا بأس به من العلاقات المتبادلة ، على المصالح المتعلقة بها.

لقد مات بلفور، ومات وعده معه، منذ فترة طويلة، وأصبحت جزءاً من التاريخ. ولكن النفسية «البلفورية» لا تزال تسيطر على الفكر والنشاط الصهيوني، من حيث بناء الأحلاف والعمل في إطار المصالح المتبادلة، مما يعود على الصهيونيين بالفوائد، دون التسبب في أضرار للمتعاونين معهم.

ولعل هذا درس من التاريخ، في إقامة التحالفات، يجدر بالفلسطينيين تعلمه واتقانه في سعيهم نحو نيل استقلالهم واسترجاع حقوقهم.

وعد بلفور بين كارل صباغ وهنري لورانس

فيصل درّاج*

يشير وعد بلفور، الصادر عام ١٩١٧، إلى تشريد الشعب الفلسطيني وإلى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، لكنه يجسّد، في اللحظة عينها، الانحطاط الأخلاقي الشامل للإدارة البريطانية التي أشرفت عليه، ذلك الانحطاط الذي تضمن: العنصرية والخديعة والكذب والمراوغة والتدمير والقتل، وآثاراً من «صليبية قديمة». يقدّم كارل صباغ وهنري لورانس شهادتين متميزتين في هذا المجال، أولهما في كتابه «فلسطين، تاريخ شخصي»، وثانيهما في عمله الكبير: اختراع الأراضي المقدسة.

كارل صباغ: وعد بلفور والتصوّر الغربي للعالم:

عالج صباغ، الذي سكن أجداده صفد، قبل عام ١٨٣٧، العلاقة بين الأخلاق والكتابة وهو يقرأ ما كتبه الرحالة الأوروبيون، حين مروا بفلسطين، في القرنين الثامن والتاسع عشر، والتقوا بأرض بلا بشر، كما ادّعوا، أو تسكنها نقاط سوداء من بشر، ليس لهم قيمة. ومع أنه مرّ على ذكر رحالة كثيرين، فقد توقف أمام الأديب الأمريكي الذائع الصيت: مارك توين، الذي زار فلسطين في القرن التاسع عشر، ووضع عن رحلته كتاباً عنوانه: «البريئون المسافرين، جاء فيه: «لا يلفت ناظريك أية حركة غريبة في «مرج بني عامر»، فلا يوجد في أراضيه قرية واحدة تمر بها، ولو على مسافة ٣٠ ميلاً. من طرفي الوادي رأينا مضرّين أو ثلاثين لخيم البدو، ... أما إن أردت أن تعيش العزلة التي

* ناقد وباحث فلسطيني

توحش منها النفس، فحسبك أن تأتي الجليل، لترى تلك القفار المهجورة، وتلك الهضاب القاحلة...، وهناك الآثار الكثيرة في كفر ناحوم، وقرية طبرية المزعجة الخاوية على عروش نخلات ست. إن فلسطين رابضة على جلد بعيرها ورماد حطامها، خربة وبائسة».

ومع أن توين، الذي زار فلسطين عام ١٨٦٧، كان معادياً للسامية، بالمعنى الحرقي، أي كارهاً للعرب واليهود معاً، فإن النظر الغربي يقفز فوق لاساميته الشاملة، ويكتفي بصورة «فلسطين الخربة البائسة»، التي تعني، لزوماً، أن فلسطين كانت فارغة وأن اليهود، الذين «وعدهم الرب بأرض الميعاد»، لم يغزوا أرض أحد، وأنهم سيحولون الأرض الخراب، إن وصلوا إليها، إلى فردوس غير مسبوق. الطريف أن الأديب الساخر يسخر من نفسه، دون أن يدري، حين يتحدث في مكان آخر من كتابه عن «بيارات البرتقال المشهورة في يافا مدينة الشرق» وعن «سهل واسع مستو يدعى «مرج بني عامر»، الذي تختلف ألوانه باختلاف حقوله... تلك صورة جميلة بهية في ذاتها بلا نزاع...». والأرجح أن توين أَرْضَ لاساميته مرة، واحتفظ بشيء من الصدق مرة أخرى.

ما هو جدير بالذكر أن الرحالة الغربيين، والإنجليز منهم بخاصة، كانوا يقصدون فلسطين حاملين معهم تصوّرهم التوراتي عنها، فيذهبون إلى «نابلس لكونها آخر موطن للساميين»، والذين يُعتقد أنهم ينحدرون من «شعب مملكة إسرائيل الشمالية»، أو يقصدون المواقع «التي نظر إليها موسى، أو رآها المسيح، وتلك التي تضم مهد المسيح ومكان الصليب، ودرب الآلام في القدس...» لم يكن الرحالة الغربي يرى فلسطين، كما هي قائمة، بل يراها كما اقترح متخيّله الديني أن يراها، فاصلاً بين مقدسه وما خارجه، الذي يحيل إلى «محمديّين» تنقصهم النظافة والذكاء.

ولعل المتخيّل الغربي، الذي كان يرى فلسطين قبل أن يراها، هو الذي كان يختصرها، وربما إلى اليوم، في متواليات من الصور النمطية، الراعي الذي يحرس أغنامه، المرأة التي تسحب الماء من البئر، وتلك الخيمة المحتشدة بالقبح والغلاظة... والمحصلة أن كل ما هو جميل/مقدس في فلسطين منقطع عن «سكانها الأصليين»، الذين من دونهم تبدو «الأرض المقدسة» سوية، كما أرادها الله، الذي رعى «ديمومة» الوجود اليهودي في فلسطين. والمحصلة أيضاً، أن هذا التصور يقطع مع «أسطورة الإنسان الشامل»، الذي قال به «عصر الأنوار الأوروبي»، الذي ورّع السلام على من هم جديرين به، وأعلن الحرب في من تبقى، حال الفيلسوف الإنجليزي الشهير ديفيد هيوم، والذي لم يكن بعيداً

عن تصورات الألماني هيجل.

والضائع في الحالات جميعاً هي: الأخلاق، التي يختصر غيابها الفلسطينيين إلى مخلوقات «قليلة الذكاء وعديمة الفائدة»، ويساوي بين أرض الفلسطينيين و«الوطن القومي اليهودي»، تلك الفئة التي ذكرها الله في «العهد القديم» وتتميز، لزوماً، بالذكاء والأعمال النافعة. يغيب الفلسطينيون، في الحالين، ويغيب معهم «وطنهم»، ذلك أن الوطن يستلزم فئة بشرية تغاير الفلسطينيين قيماً وسلوكاً.

يأخذ اليهودي المتخيل مكاناً له صفة: البدهاة، فله بالمقدس صلة، وهذا المقدس ينفذ إلى الإنسان الغربي وثقافته. ولهذا يكتب كارل صباغ، وفي فصل عنوانه «قصص الكتاب المقدس»: تقوم الثقافة الغربية على الكتاب المقدس. ويتضح هذا جلياً في الرسومات والأعمال النحتية والكتابات الأدبية. حتى إن كثيراً من العبارات والاستعارات المستخدمة في الإنجليزية مثلاً مشتقة من العهد القديم والعهد الجديد. كان أتباع الديانة اليهودية أقلية في الدول الغربية جميعها، لكن الأفكار والأماكن والأشخاص كانت مألوفة لكثير من الناس هناك، وازداد إيمان الناس بها لما شاع أن ما جاء في الكتاب المقدس لا يأتيه الباطل أبداً، فصار دليلهم الإرشادي لكل صغيرة وكبيرة في فلسطين. أما في بريطانيا، الدولة التي صاغت بقراراتها الخطيرة تاريخ فلسطين الحديث، فقد كان التعاطف فيها مع مبدأ الحق اليهودي في فلسطين يجعل معظم المسيحيين في عماية عن الظلم المترتب على ذلك... «. إذا كان الحق اليهودي في فلسطين يلتبس بالمقدس، فإن في الاعتراف بفلسطين وطناً لغير اليهود، خروجاً على المقدس ومروقاً يساوي الكفر. يفسر هذا التصور، الذي يمتزج فيه الجهل بتصور ديني للتاريخ، سهولة النفوذ الصهيوني في بريطانيا، في الفترة الواقعة بين ١٨٩٧ أو ١٩١٧، أي بين المؤتمر الصهيوني الأول ووعد بلفور. لا يخلو الأمر من السخرية السوداء، ذلك أن «الصهاينة السياسيين»، أو ما دعي بذلك، كانوا يدعون الإنجليز، أو معظمهم، إلى تأييد «قضية صهيونية»، تأمر ثقافتهم بتأييدها، طالما أن الكتاب المقدس كان «دليلهم الإرشادي لكل كبيرة وصغيرة، في فلسطين، كما لو كانوا يؤدون واجباً دينياً «موروثاً»، لا يحتاج إلى دعاية أو تبشير. ولعل توظيف البعد اللاهوتي في المشروع الصهيوني هو الذي أعطى مكاناً واسعاً للافتراض القائل: إن الرب قد منح الأرض لليهود قبل ثلاثة آلاف سنة.

يسوع الرب، والحال هذه، الافتراء الصهيوني، ويحجب التواطؤ الإنجليزي - الصهيوني، ويلقي ستاراً سميكاً على مأساة الفلسطينيين، الذين ينكرون على اليهود حقاً إلهياً منذ ثلاثة آلاف سنة!! ولعل تعددية وجوه الافتراض الصهيوني، الذي يبدو مقدساً مرجعه العهدان القديم والجديد، هي التي أعلنت عن قيام «دولة إسرائيل»، في الرابع عشر من أيار ١٩٤٨، بالكلمات التالية: «إن أرض إسرائيل هي مهد ميلاد الشعب اليهودي. ولقد تمت على هذه الأرض هويتنا الروحية والدينية والوطنية، وفي هذا المكان حقق أبائنا الاستقلال، ووضعوا ثقافة عظيمة القدرة في أعين الوطن والعالم....».

تحايط الزمن اليهودي، في التصور الصهيوني، أربع صفات أساسية: فهو زمن متجانس لا انقطاع فيه يقبل بعنصر بشري وحيد هو العنصر اليهودي، الذي كان وحيداً في فلسطين وسيظل «وحيداً» فيها. تأتي الصفة الثانية من «الأصل» المبارك البعيد، الذي كان طاهراً ونقياً في البداية ويعود كما كان في النهاية، لأن الأصل المبارك، تعريفاً، لا تتغير فيه ولا تبدل. إنه زمن جوهري يليق بالجواهر اليهودي، الذي لا يقبل التمازج بغيره، ويظل نقياً كما كان. لا تكتمل هاتان الصفتان إلا بثالثة تؤكد: حضور الرعاية الإلهية، التي تؤمن استمرارية الزمن اليهودي المتجانس (لم يكن في فلسطين أحد، ولن يكون فيها أحد، غير اليهود). أما الصفة الرابعة فتتمثل في مقولة «الاختراع»: اختراع تاريخ فلسطين، من وجهة النظر الصهيونية، واختراع الشعب الفلسطيني، الذي هو مجموعة طارئة من السكان، يسهل التخفف منها، أو ترحيلها، ما يجعل من «طرد السكان الأصليين بعد قيام الدولة أمراً سهلاً»، يتحقق مرة ودفعة واحدة.

وبالرغم من هذه الصفات الأربعة، التي تحيل إلى التاريخ وتلغيه، فإن العنصر الحاسم في «سهولة قبول الدعوى الصهيونية في بريطانيا»، يعود إلى الثقافة المسيطرة، التي رأت في المطلب الصهيوني في فلسطين «امتداداً»، بمعنى ما، للثقافة الإنجليزية الموروثة». لا يمس الحديث أسباب وعد بلفور، بالمعنى السياسي، الذي يتضمن المصلحة والتحكّم بموقع استراتيجي وبسط النفوذ وتوطيد موقع الإمبراطورية، إنما يمس المنظور الذي يغيب الواقع الفلسطيني ولا يكثر به إلا قليل القليل، سواء ارتضى بالمشروع الصهيوني أو رفضه. ولعل الوعي الصهيوني بوظيفة البعد الديني التسويغية هو الذي أعطى «الأدلة الأثرية» اهتماماً خاصاً، بعد أن عهد إليها تأكيد ما قاله الكتاب المقدس، والبرهنة عن صحته، وذلك في معادلة هجينة تصالح بين الخطاب اللاهوتي، القائم على الإيمان،

والخطاب العلمي الذي يرتكن إلى التجربة والاختبار.

صالح الفكر الصهيوني بين العلمي واللاهوتي مرتكناً إلى «مبدأ الاختراع»، الذي يخترع العنصرين معاً، إذ على العلم خدمة المقدس الأيديولوجي، وإذ على الأخير ترويض العلمي وتزييف علميته. ولهذا قال عالم الآثار الشهير إدموند ليتش وهو يتأمل موقعي الملكين داود وسليمان في «إسرائيل القديمة»: «إن عقلي لا يصدق شيئاً من هذا... فلا توجد بين أيدينا أية أدلة أثرية تشير إلى وجود تلك الشخصيتين العظيمتين، أو أي من الأحداث التي ترتبط بذكرهما. ولولا محل القدسية في هذه القصة لكان لزاماً علينا رفضها من وجهة نظر تاريخية». لذا بذلت جهود كبيرة في التنقيب عن المواقع الأثرية في فلسطين، قبل إنشاء إسرائيل إلى يومنا هذا، سعياً من الصهاينة إلى إيجاد ما يصلح سنداً للقصة الواردة في الكتاب المقدس.

انطوى الفكر الصهيوني على أطروحة طريفة تقول: على الأموات أن يخبروا الأحياء عن الحقيقة التي لا يمكن دحضها، ذلك أن الأموات اليهود يجمعون بين الحقيقة والمقدس معاً. ربما كان هذا الزعم، الذي يحتفي بقصة يهودية عمرها ثلاثة آلاف عام ولا يعترف بالفلسطينيين في القرنين التاسع عشر والعشرين، وراء الاحتفال «بأدب الرحلات»، وتأكيد عنصر من عناصر المعرفة الموضوعية.

اليهود وبريطانيا: نفوذ أقرب إلى الأحجية

كيف يفسر حضور الرأي الصهيوني الكثيف في الدوائر الرسمية الإنجليزية، قبل وعد بلفور وبعده، أو في المجال الزمني الذي سبق وعد بلفور وأعقبه؟ وهل يعود ذلك إلى النشاط الصهيوني وفاعليته، أم إلى الأيديولوجيا المسيطرة في عناصرها المتعددة، التي تعطي ما جاء في الكتاب المقدس عن اليهود وأرض الميعاد أهمية كبيرة؟

يربط كارل صباغ بين العنصرين كي يفسر الحاضنة الإنجليزية للمشروع الصهيوني، فهو يقول: «ويصعب على المرء أن يتخيل الحد الذي يمكن أن يصل إليه هذا التعصب الأعمى لماضي إسرائيل أو حاضرها، ومما يزيد الطين بلة أن الناس أصحاب المعتقدات الدينية، يهوداً كانوا أو مسيحيين، لا يستسيغون تجاهل معتقداتهم الشخصية والنظر إلى الأمور بموضوعية وتجرد، وبوجود أمثال هؤلاء الناس الذين كانوا هم القادة السياسيين في أوائل القرن العشرين، تكون الساحة مهياًة

للسهانية ليحققوا نصرهم العظيم. ص: ١٠٨».

وبعد أن يشير إلى قيادة إنجليزية متديّنة ومتصهينة معاً، أو إلى إطار فكري يجعل «التصهين» معطى بديهياً، يعود إلى العنصر الذاتي الصهيوني ليقول: «كيف يمكن للعرب الفلسطينيين أن يحكموا دولتهم، لو لم يفلح رجل يهودي روسي يعيش في مدينة مانشستر في اكتشاف عملية كيميائية لاستخراج مزيل طلاء الأظافر من ثمار كستناء الحصان (مادة تستخدم في صناعة المتفجرات)؟ ربما كان النشاط الصهيوني ضرورياً لإقناع ساسة يؤمنون بالمصالح البريطانية ولا ينظرون، جدياً، إلى ما جاء في الكتاب المقدس، بل أن ازدياد النفوذ وتغلغله داخل الإدارة، جعل من إصدار وعد بلفور أمراً شديداً سهولاً، «كأنه وعد بمنح ترخيص لإنشاء مظلة لانتظار الحافلات في أحد شوارع القاهرة»، كما يقول صباغ ص: ١٢١، علماً أن هذا الأخير لم يصل إلى رأيه إلا بعد قراءة جملة من «الوثائق البريطانية».

استطاع وايزمن بعد اختراعه الكيميائي أن يقيم علاقة قوية مع لويد جورج، الذي غدا رئيساً للوزراء عام ١٩١٦، وقال: «تحولت إلى الصهيونية بفضل مادة الأستون»، وانضم إليه ثلثة من أعضاء البرلمان، منهم وزير الخارجية الجديد آرثر بلفور. وتمكن وايزمن، في الفترة ذاتها من إدخال ستة أشخاص من السهانية الشباب في الحكومة ليستفيد منهم في خدمة الصهيونية. ولم يكن ما قام به إلا صورة عن صداقات رفيعة المستوى، ضمت: مسؤول التحرير في صحيفتي التايمز والمانشستر جارديان، بالإضافة إلى بلفور ولويد جورج وونستون تشرشل وهيربرت صموئيل، وكان لهذا الأخير، الذي تشرب بالصهيونية إلى حدود الإشباع، دور بارز في إقامة دولة إسرائيل، فكان «وزير الحكومة المحلية، ولم يترك جلسة وزارية إلا حضرها...»، وكانت هذه الشخصيات، بعامه، لها الدور الأساسي في صياغة القرار في دوائر الحكومة. وما أن جاء عام ١٩١٧، حتى ذهب وايزمن واللورد روتشيلد إلى مكتب بلفور، في وزارة الخارجية، لإعلان قراره الشهير.

وإذا كان في إصدار وعد بلفور، في حزيران من عام ١٩١٧، ما يستدعي شخصيات إنجليزية نافذة، فإن الشخصية النافذة، التي لا اسم لها، هي: الغموض، الذي هو مبدأ صهيوني، عبّر عنه شاب متغطرس من حاشية وايزمن قائلاً: «حبي للغموض والوضوح سواء، فأحب الوضوح فيما نريد له استثناء، وأحب الغموض في الوسائل التي تمكننا من تحقيق ما نصبو إليه». وهذا الشاب الذي يحب

الوضوح والغموض معاً، ويدعى: ساشر، هو الذي صاغ عدداً من المسودات المختلفة لوعده بلفور، وأرسلها إلى موظف في الخدمة المدنية، يدعى: ليون ساهمون، كان صهيونياً بدوره.

لم يكن ذلك الغموض، الذي هو الشكل الأعلى من اللاأخلاقية السياسية، إلا مرآة للسياسة الإنجليزية مع العرب، التي بدأت مع الشريف حسين وإقامة «حكومة عربية حرة موحدة»، وانتهت إلى تمزيق أوصال العالم العربي وإلى وعده بلفور الذي وضع فلسطين بين يديّ الصهاينة، الذي قال عنه الكاتب آرثر كوستلر: «هو وعد شعب لشعب آخر دولة شعب ثالث». مانسيه كوستلر أن الشعب الثالث كان موجوداً، في حين كان الشعب الموعود احتمالاً، يبحث عن برهان وجوده في الآثار القديمة.

«وعد بلفور ورسالة العالم المتمدن»

كتب هنري لورانس في مستهل المجلد الثاني من عمله الكبير: مسألة فلسطين السطور التالية: «مسألة فلسطين كانت بادئ ذي بدء تفسيراً لنصوص أريد لها أن تكون غامضة وملتبسة. ولا بدّ عندئذ أن نقول لأنفسنا من جديد إن الأمر إنما يتعلق قبل كل شيء ببشر ومكابدات وليس بنصوص أو مفاهيم». والمقصود بذلك أمران: بني الخطاب الصهيوني، ظاهرياً، على نصوص دينية تسوّغ «ملكية اليهود لأرض فلسطين» واعتنق الغرب، وبريطانياً بخاصة، ماجاء في هذه النصوص، لأسباب غير دينية. والأمر الآخر، الذي يحيل إلى الحقيقة ويحدّد معنى التاريخ، أن أهل فلسطين، الذين طردوا من أرضهم، ليسوا نصوصاً بين نصوص أخرى، إنما هم بشر يحلمون ويتألمون ويدفعون من حياتهم ثمن «النصوص المخترعة» التي فرض عليها قانون القوة التأويل الذي يريد.

جاء تحقق المشروع الصهيوني في فلسطين نتيجة «لاختراعين»، أولهما: اختراع المناطق المقدسة، وهو عنوان المجلد الأول من عمل لورانس، الذي غطى فترة معينة من الغزو الإستعماري «لفلسطين» ١٧٩٩ - ١٩٢٢، تبدأ بحملة الفرنسي نابليون بونابرت على مصر وتنتهي بإعلان الانتداب البريطاني على فلسطين، والمقصود بذلك الاختراع تحويل الشرق إلى وحدات دينية، ينتسب فيها المسلمون إلى الدولة العثمانية، ويقع على عاتق «الغرب» حماية الأقليات المسيحية، أكانت بحاجة إلى هذه الحماية، أو لم تكن بحاجة إليها، ما يوحى، ظاهرياً، أن تلك الحماية صليبية وأن المحتاجين إليها من

«جماعة الصليب» والأمر، في وجهيه، لا علاقة له بالدين، ذلك أن أوروبا الحديثة، التي جاءت من عصر التنوير، جعلت من التحرر من الماضي، كما المعتقدات المرتبطة به، سبيلاً إلى التقدم والذهاب إلى المستقبل. كما لو أن التصور الاستعماري يستقدم الدين ويستبعده وفقاً لمصلحه.

يمس الاختراع الثاني علاقة اليهود بأرض الميعاد، كما تحدّثت عنها النصوص الموروثة، أو كما تأمر المصالح باستعمالها بشكل أدق. فكما أن الحمائيتين الفرنسية والإنجليزية، أي استعمار الشرق، توقظان البعد الديني وتستعملانه، فإن اليهود، مهما كان تمثيلهم في فلسطين، أيقظوا أطياف الأجداد التي تبارك «وطنهم القومي» القديم والجديد معاً. ولن تكون الدعوى اليهودية متخفة من تناقضات «الحدثة الأوروبية»، فالثانية ترفع راية العقل والمستقبل في أوروبا، وترتكب إلى المعطيات الدينية خارجها، والأولى تريد أن تكون «قومية من قوميات العصر الحديث»، وتعثّر على تسويغها في «الأثار الدينية والحفريات».

وواقع الأمر أن المشروع الصهيوني، مهما تكن شظايا الحقيقة فيه، ارتكن إلى القوة التي راكمها اليهود، التي هي من قوة الغرب، الذي استجاروا به ونصرهم. ولهذا كان وعد بلفور مزيجاً من القوة والخديعة، يعطي لطرف نصرًا ملموساً، وينثر على الطرف الضعيف وعوداً لا تتحقق. ولهذا يبدأ لورانس المجلد الثاني بفصل أول عنوانه: الرفض العربي، نقرأ فيه تصريح الحكومة البريطانية بتاريخ ١١ كانون الثاني ١٩٢٢، الذي هو مرآة صقيلة لثنائية القوة الواهبة وخديعة الكلام. فهو يقرر من ناحية: «إن وجود اليهود في فلسطين ناشئ عن حق وليس عن أريحية»، ويقول من ناحية ثانية: «إن حكومة صاحب الجلالة لا تهدف إلى محو أو إخضاع السكان العرب».

يتكشّف الحق اليهودي، في تصريح حكومة صاحب الجلالة، حقاً طبيعياً له شكل البدهة، غير قابل للشك أو للمنازعة، بينما يأتي الكلام، الذي يمس «السكان العرب» - وهم عرب لا أكثر، فارغاً من المضمون، إذ لا أحد يحو أحد، والتماس سُبُل «الإخضاع» غائم وبالغ التعقيد. والنتيجة أن على بريطانيا أن تجسّد، مادياً، «الحق اليهودي الأصيل» وأن تردع من يرفضه أو يشكك فيه، فلسطينياً عربياً كان، أو عرباً ومسلمين. وانطلاقاً من ثنائية الواضح والغامض يتضمن التصريح البريطاني فقرة رابعة تقول: «ستكون وضعية جميع سكان فلسطين فلسطينية»، سبقتها فقرة تؤكد: «عدد المهاجرين المسموح لهم بدخول فلسطين خلال فترة محددة لن يتجاوز طاقة البلد الاستيعابية

خلال تلك الفترة».

ليس في الفقرة الرابعة إلا النفاق الإنجليزي المعهود، الذي يدّعي العدل، مساوياً بين حقوق الغرباء الوافدين إلى فلسطين وحقوق أهلها، إن لم يعتبر أن مساواة الفلسطينيين باليهود «دليل قاطع» على المعايير الحضارية الإنجليزية، التي تساوي بين سكان فلسطين جميعاً، كما لو كان لذلك اليهودي البولندي الذي وصل بالأمس إلى صغد، مدعوماً بأموال إدموند دي رو تشيلد حقوق الفلاح الفلسطيني الذي يتعهد أرضه بالرعاية منذ مئات السنين. والأمر كله في النهاية يأتي من «مكر اللغة» الضبابية الزئبقية، التي تخترع ما شاءت بعيداً عن الواقع التاريخي، وتعهد إلى قانون القوة بتطبيق الاختراع.

وبسبب النفاق المتمرس وراء خداع اللغة، التي تؤكد ما تنفي وتنفي ما تؤكد، تصبح «طاقة البلد الاستيعابية» لغزاً، قابلة للمط والتمديد وللتصغير والانكماش، الذي قد يقترح طرد الفلسطينيين من بلادهم، بـغية عدم الإخلال بالطاقة الاستيعابية، وهو ما «أدرج» في الجملة التعيين الزمني مرتين أولهما: «خلال فترة محددة»، الذي يشير فعلياً إلى السياق السياسي وميزان القوى، وثانيهما «خلال تلك الفترة»، الذي يعني أنه ما هو محدود في فترة غير محدود، لزوماً، في فترة لاحقة، وهو ما سيجعل الهجرة اليهودية إلى فلسطين تأخذ، من بداية الانتداب البريطاني إلى نهايته، وتائر متنامية مدعومة بالعنف وإرادة «حكومة صاحب الجلالة».

يتجلى «فن حجب الحقيقة»، على الطريقة الإنجليزية، في ما قاله السير هربرت صمويل ممثل الانتداب في ١٧ تموز ١٩٢٢: «فالانتداب بعيداً عن أن يكون تهديداً، إنما يعد حماية إضافية، إن كانت هناك حاجة إلى حماية كهذه، للحقوق القائمة بالفعل لكل طائفة على الأراضي المقدسة...».

لم يطلب الشعب الفلسطيني، قبل وعد بلفور وبعده، الحماية من أحد، فهو يعيش في أرضه ولا يعتدي على أحد، إنما جاءت الحماية المفترضة لحماية هؤلاء الذين لا حق لهم في فلسطين، ويلتمسون الحق من جيش حكومة صاحب الجلالة. ولهذا يبدو تعبير «الحقوق القائمة» مثيراً للسخرية، طالما أن هذه الحقوق خاضعة لإرادة الانتداب. والأمر لا يختلف كثيراً مع جملة «لكل طائفة على الأرض المقدسة» التي قضت، وفقاً لمنظور الانتداب، بتحويل الفلسطينيين إلى طائفة (لا وجود لشعب ولا لتاريخ)، أسوة باليهود، الذين لا يمكن تعريفهم إلا كطائفة.

كل طرق الانتداب تؤدي إلى «الدولة»:

جاء تصريح هربرت صمويل، المشار إليه، رداً على غضب عربي وفلسطيني يطالب بإلغاء وعد بلفور، بعيداً عن الافتراض الساخر الذي ساوى بين «تثبيت الوعد» وتأمين الحماية، كما لو كانت فلسطين، قبل الانتداب، واقعة تحت تهديد مستمر.

أشار هنري لورانس إلى الظلم الذي وقع على الفلسطينيين بشككين: إبراز انحياز بريطانيا إلى اليهود، والفاعلية الصهيونية المتواترة، التي كانت تستضيفها «الحاضنة الإنجليزية» بقبول كبير. يقول: «إن هدف هذا العمل هو وصف فترة الانتداب في مسألة فلسطين، بين تصديق عصبة الأمم على ميثاق الانتداب على فلسطين في تموز ١٩٢٢، واعتماد منظمة الأمم المتحدة خطة التقسيم في تشرين الثاني ١٩٤٧. ص: ٢٥».

يعلق لورانس رافضاً المواثيق الشكلائية «إن مسألة فلسطين كانت بادئ ذي بدء تفسيراً لنصوص أريد لها أن تكون غامضة وملتبسة». ولأن هذه النصوص هي على ما هي عليه، غدا الانتداب البريطاني «احتلالاً»، لا يسهم في تمدين سكان البلاد، كما ادعى تصريح بلفور، بل أداة فاعلة في قهر سكان فلسطين وتسليمها إلى المشروع الصهيوني. ولم تكن القرارات التي صدرت عن منظمة الأمم أحسن حالاً، فقد كانت تدور في الفراغ ثم تنصاع إلى القوى المقررة.

وواقع الأمر أن الانتداب البريطاني يتجسد بمقولتين: تبجح الأقوياء بقتل الحقيقة، والسخرية السوداء التي تبعث على البكاء. والشواهد كثيرة في هذا المجال. ففي مستهل شهر تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٢٢، يعبر المندوب السامي في رسالة إلى تشرشل عن «ارتياحه وثقته بالنصر النهائي للعناصر المعتدلة» في صفوف المسلمين...». والمقصود بالعناصر «المعتدلة» هي تلك المناوئة لقرارات «المؤتمر الفلسطيني الخامس في نابلس»، الذي طالب بحزم إلغاء وعد بلفور. فما معنى «النصر النهائي» إذن، وما معنى «العناصر المعتدلة»؟ يشير المؤرخ إلى «عرب فلسطين المشتبه بأنهم مستعدون للتضحية بجانب من المصالح الصهيونية لحساب المصالح العامة للندن في منطقة الشرق الأدنى. ص: ٤٥».

ليست القوى المعتدلة، والحال هذه، إلا هؤلاء الهامشيين «عملاء بريطانيا»، الذين وقفوا في وجه

القائد الوطني موسى كاظم الحسيني وتوسلوا رضا هربرت صمويل، المندوب السامي البريطاني في فلسطين.

عطفاً على السخرية السوداء المشار إليها، كتب لورانس: «وما أن تم التوصل إلى التصديق على ميثاق الانتداب، حتى سعى وايزمن إلى البحث عن شخصية تتولى قيادة اللجنة التنفيذية الصهيونية في فلسطين. وقد وقع اختياره على الكولونيل الإنجليزي كيش، والذي بالرغم من كونه مناضلاً صهيونياً مخلصاً لم يكن ينوي الاستقرار في فلسطين. وهذا الاختيار لديبلوماسي جيد ومنظم جيد كان اختياراً موفقاً، حتى وإن كان كيش قد أمكن له أن يبدو في أعين المستوطنين الصهيونيين أقرب إلى السلطات منهم. ص: ٤٣».

ما يدعو إلى التأمل، كما جاء في كتاب لورانس، سفر الكولونيل الإنجليزي كيش إلى سورية وعمله على إنشاء منظمة صهيونية سورية، تسهم في شراء أرض تشمل حوران والجولان، الأمر الذي رفضته السلطات الفرنسية، لا شيء، إلا لأنها اعتبرت، أن وجود «صهيونية سورية» أداة لخدمة «الأغراض الإنجليزية». تختلط الوجوه في شخصية الكولونيل، فهو عسكري وسياسي وإنجليزي وصهيوني، ولا يعترف بالمصالح العربية، أكانت في سورية أم في فلسطين.

لا يعرف القارئ الحدود الفاصلة بين الجد والهزل، ذلك أن كيش كان صهيونياً بامتياز، له رتبة عسكرية عالية، ومأخذ المستوطنين عليه أنه، وهو الكولونيل المحترف في الجيش البريطاني، يبدو، أحياناً، أقرب إلى بريطانيا منه إلى مصالح المستوطنين الصهيونيين، كما لو كان عليه أن يكون صهيونياً بقدر ما هو بريطاني، أو أن يكون صهيونياً أولاً، وما تبقى منه بريطاني. لم يكن السير هربرت صمويل المندوب السامي، فعلياً، إلا نظيراً لوايزمن، ولم تكن الإرادة البريطانية، رغم التباينات إلا مرآة للمنظمة الصهيونية العالمية. لا غرابة، والحال هذه، أن «يأخذ المسؤولون الصهيونيون على المندوب السامي رغبته في أن يثبت للعرب أنه، بالرغم من كونه يهودياً، فإنه ليس في خدمة الصهيونيين ص: ٤٤». أراد هؤلاء المسؤولون مندوباً سامياً خاصاً باليهود وحدهم، وهو ما برهن عنه صمويل حين احتفى بالعناصر «المعتدلة» من العرب، التي أرادت خدمة المصالح البريطانية أولاً، التي تتقاطع، على أية حال، مع المصالح الصهيونية.

يتكشّف التاريخ، في المنظور البريطاني - الصهيوني، شكلاً من المهزلة، يتحدّث فيه الجراد باسم

الضحية، فإن رفضت اتهما «بالتطرف»، في انتظار أن تتخلى عن أرضها «طواعية». وفي مقابل اتهام مختلق يرفضه العقل، يتهم المؤرخ لورانس المندوب السامي «بالمراوغة»، وهو اتهام مخفف لمرجع بريطاني «موضوعي»، يعرف الكثير عن «قوات دفاع الصهيونيين - الهاجاناه ويسكت عنها»، ويعتبر نفسه ناطقاً باسم مصالح العرب واليهود معاً.

تستكمل السخرية من التاريخ بملاحظتين لاحقتين، صاغهما هنري لورانس بالشكل التالي: «اطمأن الصهيونيون عند تعيين أورسبي - جوزفي منصب سكرتير الدولة لشؤون المستعمرات، فهو ضابط الاتصال السابق مع اللجنة الصهيونية والنصير السافر لقضيتهم. ص: ٥٧»، يكشف المؤرخ في الانتقال من الكولونيل كيش إلى سكرتير الدولة عن «كليّة» السلوك البريطاني في فلسطين، التي تعين اليد البريطانية المسلحة امتداداً لليد الصهيونية التي لا ينقصها التسلح، وتعين اليدين معاً قوة تكسر ظهر الحق الفلسطيني، الذي يبدو لدى البريطانيين مجرد كلمة، أو حقلاً لممارسة اللغة في أشكالها المختلفة. ولهذا يؤكد صمويل حينما يجتمع بالأعيان العرب في ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٩٢٢ بأن تصريح وعد بلفور «تعهد دولي من جانب بريطانيا العظمى من غير الوارد التصلّ منه، وأنه تعهد مزدوج حيال العرب واليهود». وإذا كانت بريطانيا قد تعهدت بمنح وطن قومي لليهود في فلسطين، فما هو تعهدا إزاء أهل فلسطين؟ الجواب هو: الخديعة التي لا تفيد أهل البلاد في شيء. ولهذا اقترح صمويل إقامة: «وكالة عربية لها عين الوضعية التي للوكالة اليهودية». والفرق أن للوكالة الثانية «جيش مسلح سري، يتم التغاضي عنه» بينما يعتبر خروج الفلسطينيين في مظاهرة أمراً يهدّد السلام.

قام المندوب السامي، شفوياً، بمساواة العرب باليهود، حين ساوى بين «وكالتين»، متناسياً أن تعهده المزدوج يعني أن العرب أجنب في بلدهم، بلغة الوطني الفلسطيني العجوز موسى كاظم الحسيني، الذي رد على صمويل بالرسالة التالية: «أمّا ما تفضلتم به من أن وعد بلفور ذو شقين لا يناقض أحدهما الآخر فأمر غريب. قد لا يكون تناقض بين شقي هذا التصريح إذا كانت البلاد يهودية وليس للعرب فيها إلا ما يكون لكل أجنبي دخيل في كل بلد من حقوق مدنية ودينية. أما وهذه البلاد عربية ولها الحق المطلق في الحياة الحرة المستقلة فلا يمكن إلا أن يناقض الشق الأول من هذا التصريح الشق الثاني والتوفيق بين هذين الشقين مستحيل».

يعلق لورانس على مهزلة «الوكالتين» فيقول: «ويؤكد البريطانيون أنهم عادلون. على أن الأمر إنما يتعلق هنا، فيما يؤكد النص، ليس بالعدالة وحدها وإنما بالحرية أيضاً. الاعتراف بالمساواة في الوضعية بين الوكالتين، هو اعتراف بأن البلد ليس عربياً. ص: ٥٨».

وحدّ الصهاينة، في خطابهم، بين المضمّر والصريح، مستندين إلى ضمان بريطاني لا يعرف العدل، بينما آثر البريطانيون التدرج من المضمّر إلى الصريح، فما كان للعرب واليهود عام ١٩٢٢، يصبح لليهود وحدهم عام ١٩٤٨. يحيل المضمّر إلى «المراوغة» ويستدعي الصريح القوة المسلحة العارية، وينتهيان معاً إلى سياسة عنوانها: «عدالة القوة العارية»، على اعتبار أن الإنسان الضعيف يطلق عليه النار، أو يُقصف بالبراميل المتفجرة»، وهو ما قام به البريطانيون، مرة واحدة، في ثورة الفلسطينيين المجيدة عام ١٩٣٦.

اتكأت سياسة الانتداب على «لغة القوة»، التي تقفز فوق الأخلاق والمعطيات التاريخية، وتعيد تعريف العدل والظلم، كما لو كان في القوة ما يستولد تاريخاً جديداً. بيد أن ما تناساه الإنجليز والصهاينة معاً ماثل في عنصر: المقاومة، وعجز القوة عن إعادة خلق الفلسطينيين. فمن المفترض، وليس دائماً، أن ما ينجزه الظالمون يكتسحه النسيان ويدفع بالظالمين إلى الاعتراف «بجرائم ماضية لم تكن مقصودة». غير أن مقاومة الشعب الفلسطيني، وليس «مسلمي فلسطين»، باللغة الإنجليزية، منعت مجيء النسيان المفترض، ومنعت الظالمين عن الاعتراف بالجرائم التي قاموا بها.

دار الصراع، ولا يزال بين عدم الاعتراف بالشعب الفلسطيني وتصميم الفلسطينيين على تأكيد وجودهم، شعباً وأرضاً وثقافة، على خلاف «ما آمن به» وايزمن والكولونيل لورانس (لورانس العرب) ذات مرة. فوفقاً للأول فإن الاعتراف بالحق الفلسطيني يستلزم وجود شعب يعرف معنى الحق والدولة، وهو ما «لا يأتلف مع حال الفلسطينيين»، الذين يمكن وأد مصالحهم بلا أم كبير. أما «لورانس العرب» فذكر في رسائله: إن أهل القدس كسالى يخلطون بين السياحة والتسوّل»، غير مدرك بأن مائة عام من وعد بلفور لم تُسكت أصوات المقدسيين.

ومع أن بعض الفلاسفة الغربيين يتحدثون، منذ زمن، عن «إخفاق عصر التنوير الأوربي»، الذي جاء بثورات علمية وتقنية ولم يغيّر في وضع الظلم والعدالة شيئاً، فإن بإمكان الفلسطينيين، دون أن

يحتاجوا الفلسفة، أن يتحدثوا عن «جرائم التنوير الغربي في علاقته بالشرق»، الذي انتزع شعباً من أرضه، وانتزع الحس الإنساني السليم من تاريخه أيضاً.

ربما كان في الحكاية الإنجليزية - الصهيونية ما يقول في زمن وعد بلفور: إن تلك المخلوقات البائسة ذاهبة إلى نسيانها، دون أن يدري بلفور وغيره أن للفلسطينيين ذاكرة تمنع عنهم النسيان، بعد أن كسروا القاعدة القائلة: كلما ارتفع صوت الحاضر تراجع صوت الماضي.

إشارات:

- ١- هنري لورانس: مسألة فلسطين - المجلد الثاني ١٩٢٢ - ١٩٤٧. رسالة مقدسة للعالم المتمدن. المجلس الأعلى للثقافة في مصر، ٢٠٠٧.
- ٢ - كارل صباغ: فلسطين، تاريخ شخصي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣.

الخلفية الدينية لصدور وعد بلفور

عبد الغني سلامة*

مقدمة

في العصر الكولونيالي الحديث، وضعت بريطانيا فلسطين في مقدمة مخططاتها؛ لتكون قاعدة لمشروعها الاستعماري؛ وقد اختارتها لتغرس فيها كياناً سياسياً مالياً لها يخدم ويحمي مصالحها، ذلك لأنها تقع في قلب الشرق الأوسط، في واحدة من أهم المناطق الاستراتيجية في العالم، حيث المصالح الحيوية للدول الكبرى، والممرات المائية ومناجم النفط، فتحالفت مع المنظمة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر، وما أن أطل القرن العشرين حتى بدأت ملامح المشروع تتضح أكثر، ومنذ ذلك الحين وفلسطين تتعرض لهجمة منظمة، أرادت اقتلاع سكانها من أرضهم ونفيهم خلف حدود النسيان، وإخراجهم كلياً من ذاكرة التاريخ.

وكانت الترجمة الفعلية لهذا المشروع صدور وعد بلفور، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى، أخذت القوات البريطانية تحارب للاستيلاء على فلسطين من الدولة العثمانية؛ وقد اعتقد البريطانيون حينها أن هذا الوعد سيساعدها في كسب الحرب ضد ألمانيا، وفي كسب تأييد زعماء اليهود في بريطانيا والولايات المتحدة. وسيجعل هذا الكيان اليهودي في خدمة الإمبراطورية البريطانية.

وإذا كان هذا الوعد قد مثّل التعبير الأبرز للأطماع البريطانية، إلا أنه لم يأت منعزلاً عن

* كاتب وباحث فلسطيني

السياقات والإرهاصات التاريخية التي سبقتها، ولا عن الظروف السياسية التي نشأت في سياق الحرب العالمية الأولى.. وهذه المواضيع تم تناولها في العديد من الدراسات، ما يهمنا هنا هو إلقاء الضوء على إحدى الجوانب الخفية التي مهدت لصدور الوعد، أي الخلفية الدينية والفكرية التي ساهمت بشكل أو بآخر في إنضاجه، وإخراجه إلى حيز الواقع؛ وتحديدًا ما عُرف بالصهيونية المسيحية.

الإرهاصات الدينية التي سبقت وعد بلفور

في بدايات القرن السادس عشر الميلادي، والذي شهد ما عرف بعصر النهضة، وفي إحدى زيارات الراهب «مارتن لوثر» (١٤٨٣- ١٥٤٦) إلى روما، هاله ما رأى من حياة البذخ في الفاتيكان، فانتقد علانية البابا ورجال الكنيسة لانصرافهم لجمع الثروة وترفعهم عن عامة الشعب، وانتقد حياة الرهبنة باعتبارها حياة ذل واستكانة، وبدأ في عملية إصلاح ديني ثورية، أدت في نهاية المطاف إلى انقسام العالم المسيحي بين المذهب الكاثوليكي والبروتستانتية.^١

هذا الانقسام، أوجد وعمق خلافات كثيرة بين المذهبين في مسائل عديدة، لكن الخلاف الأبرز الذي يعيننا هو الموقف من اليهود.

حتى ذلك الوقت، كانت فلسطين بنظر الكنيسة الكاثوليكية هي الوطن المقدس للمسيحيين، وقد قام الفكر الكنسي الكاثوليكي طوال العصور الوسطى على الفصل بين العبرانيين القدامى وبين اليهود المعاصرين، ولم تنظر لليهود على أنهم شعب الله المختار الذي قدر له أن يعود إلى الأرض المقدسة، بل نظرت إليهم بوصفهم ارتكبوا خطايا بحق الرب، وبناءً على ذلك تم عزل الكثير من الجماعات اليهودية في غيتوات مغلقة، لذا، لم تعتقد العقيدة الكاثوليكية أن لليهود مستقبل جماعي.^٢

لكن الكنائس البروتستانتية الأصولية التي انشقت عن الكاثوليكية واختلفت معها في أمور كثيرة، كان لها رأي آخر، فقد آمنت بأن قيام دولة إسرائيل ضرورة حتمية، بوصفها تجسيداً لنبوءات الكتاب المقدس، وتشكل المقدمة لمجيء المسيح المخلص إلى الأرض، وبالتالي من واجبهم الدفاع عن الشعب اليهودي بشكل عام وعن الدولة العبرية بشكل خاص، الأمر الذي أدى إلى

تشكل ما يسمى بالصهيونية المسيحية، التي ساهمت بشكل أو بآخر في تشكيل الصهيونية اليهودية الجديدة.

هذا التطور اللافت كان له أثراً خفياً في تغير النظرة الأوروبية تجاه اليهود، حيث شجع على ظهور أصوات أخذت تنادي بعودة اليهود إلى «أرض الميعاد»، الأمر الذي أدى إلى نشوء تيار متعصب عرف بالصهيونية المسيحية، وبالتالي يمكن فهم «الصهيونية المسيحية» في إطار التحولات الاجتماعية والاقتصادية والتطورات السياسية التي حصلت في أوروبا بدءاً من القرن السادس عشر؛ عصر الإصلاح الديني والتجارة والإكتشافات الجغرافية والتحول الكولونيالية. في هذه الفترة كانت الاحتجاجات ضد الكنيسة الكاثوليكية وسلطات البابا المطلقة قد أخذت منحىً دموياً وخطيراً؛ وفي القرن السادس عشر تمكن الشعب الإنجليزي من الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية، والانتقال إلى المذهب البروتستانتي، وبمرور الوقت تمكن ساسة إنجلترا من نشر المذهب البروتستاني بالقوة في كل من اسكتلندا، والجزء الشمالي من إيرلندا، وبذلك أصبحت بريطانيا المكونة من «إنكلترا واسكتلندا وشمال إيرلندا» أقوى دولة بروتستانتية في غرب أوروبا.

المهم في الأمر أن الكنيسة البروتستانتية الأصولية اعتمدت على إحياء العهد القديم «التوراه» بوصفه يمثل أساس المسيحية، وجعلت الكتاب المقدس هو المرجعية بدلاً من تفسيرات الكنيسة الكاثوليكية؛ وأعدت الاعتبار للغة العبرية من منطلق أنها لغة الكتاب المقدس؛ واستخدمتها كلغة للصلاة في الكنائس البيوريتانية «طائفة من البروتستانتية»، وصارت ذكرى قيام المسيح يوم السبت بدلاً من يوم الأحد.

وفي القرن السابع عشر في بريطانيا وبعد هيمنة الأصولية البروتستانتية برز تيار متشدد عرف بالبيوريتانية، والتي أعلنت تمسكها بالعهد القديم وحده متجاهلة العهد الجديد؛ وقد أدى تقديسهم للعهد القديم إلى تحسين العلاقة مع اليهود بوصفهم شعب الله المختار، لذلك تبنا فكرة إعادة أبناء الرب إلى وطنهم «فلسطين» كمقدمة لعودة المسيح؛ ثم انتشرت فكرة «عودة المسيح» في أنحاء أوروبا المسيحية، وارتبطت بضرورة إعادة اليهود أولاً إلى أرضهم «فلسطين».

وتتصل جذور هذه الحركة بتيار ديني يعود إلى القرن الأول للمسيحية ويسمى بتيار الألفية (Millenarianism)، والألفية هي معتقد ديني نشأ في أوساط المسيحيين من أصل يهودي، وهو يعود إلى اعتقادهم بأن المسيح سيعود إلى هذا العالم محاطاً بالقدسين ليملك في الأرض ألف سنة، ولذلك سماوا بالألفية.^٤

ومن هنا، فقد أدى إيمان البروتستانتية المطلق بالتوراة، إلى وجود فكر يربط بين الديني والسياسي وبين مجيئ المسيح وإقامة دولة يهودية، ففي عام ١٦١٥ طالب البرلماني «السير هنري فينش» حكومة بلاده بدعم اليهود ليرجعوا لأرض الميعاد، قائلاً: «ليس اليهود قلة مبعثرة، بل أنهم أمة، سيعودون إلى وطنهم»؛ وفي عام ١٦٤٩ رفع اثنان من علماء اللاهوت الإنجليز خطاباً إلى حكومتهم جاء فيه: «ليكن شعب إنجلترا أول من يحمل أبناء إسرائيل على سفنهم إلى الأرض التي وعد بها أجدادهم إبراهيم وإسحاق لتكون إرثهم الأبدي». ثم تجسدت الصهيونية المسيحية في بعدها السياسي الأيديولوجي للمرة الأولى في بريطانيا عام ١٦٥٥ عندما دعا «أوليفر كرومويل» رئيس المحفل البيوريتاني لعقد مؤتمر يسمح لليهود بالعودة للسكن والإقامة في المملكة «فلسطين»؛ بعدما تم نفيهم منها بقرار من الملك إدوارد الأول عام ١٢٩٠. ٥

كما برز في القرن التاسع عشر العديد من الشخصيات التي تدعو للصهيونية المسيحية، مثل «جون نلسون داربي» و«القس لويس واي» والبرلماني البريطاني «هنري دارموند» و«القس ويليام هشر» الذي قام بتنظيم عمليات نقل المهاجرين اليهود الروس إلى فلسطين؛ ونشر كتاباً عام ١٨٩٤ بعنوان «عودة اليهود إلى فلسطين» اعتبر فيه أن العودة تجسد تحقيقاً لنبوءات وردت في العهد القديم، وأخيراً من أشهر السياسيين البريطانيين اللورد «آرثر بلفور» مهندس وعد بلفور ١٩١٧، وكان يعتقد أن خلفيته الاجتماعية والدينية قد أثرت على موقفه من اليهود وتعاطفه معهم. وكان يعتقد أن على العالم المسيحي أن يقوم بعمل ما لتعويضهم وإنهاء معاناتهم.^٧

ومع بدايات القرن التاسع عشر حدث انقسام بين منظري المسيحية الصهيونية، حيث ظهرت مدرستان: البريطانية الداعمة لنظرية تحول اليهود للمسيحية قبل عودتهم لفلسطين كمسيحيين، والأميركية التي آمنت بأن اليهود سيعودون إلى فلسطين كيهود قبل تحولهم للمسيحية.

ويعتبر القس الأيرلندي «جون نيلسون داربي» بمثابة الأب الروحي لحركة المسيحية الصهيونية الأمريكية؛ حيث بشر لسنوات طويلة لنظريته التي فصلت بين عودة المسيح الثانية، ونظرية الألفية.^٨

ولذات الاعتبارات الدينية مثلت الكنيسة البروتستانتية في الولايات المتحدة الأمريكية الداعم الأكبر لمشروع الوطن القومي لليهود في فلسطين، بوصفها تشكل أكبر الطوائف المسيحية ٦٥٪ مقارنة بالكاثوليك ٣٠٪، ولاقت أفكار المذهب البروتستانتى رواجاً في الولايات المتحدة بفضل جهود لاهوتيين بروتستانت مثل «دوايت مودي»، و«سايروس سكوفيلد»، و«ويليام بلاكستون»، الذي روج في كتابه «يسوع قادم» عام ١٨٧٨ لفكرة أن عودة المسيح والحياة الألفية السعيدة، تستدعي قيام دولة اليهود الممهدة لذلك؛ وكتب «سايروس سكوفيلد» حول الحرب الكونية على الأشرار، ولكنه جعلها حرباً مدمرة «هرمجدون» بين اليهود وأعدائهم من المسلمين والكفار. ٩

في ذات الإطار، وظفت الولايات المتحدة البعد الديني لخدمة البعد السياسي، بدا ذلك واضحاً في تصريحات السياسيين والمفكرين ورجال الدين، فمثلا قال «جيري فالويل» بأن «الله بارك أميركا لأن أميركا باركت اليهود». وكذلك قال القس المسيحي «مايك إيفانز» «إن إسرائيل تلعب دوراً حاسماً في المصير الروحي والسياسي لأميركا». كما دعا مبشرون أميركيون إلى عودة اليهود إلى فلسطين، مثل القس «جون ماكدونالد» راعي الكنيسة البروتستانتية (١٨٨١).

وفي النصف الأول من القرن التاسع قام أحد قادة البروتستانت بالهجرة إلى فلسطين وأنشأ هناك مستوطنة زراعية يهودية؛ لتدريب المهاجرين اليهود على الزراعة. وكذلك قامت سيدة ثرية تدعى «كلواندا مانبور»، وهي من البروتستانت المتعصبين، بإرسال مجموعة من رجال الدين المسيحي للهجرة إلى فلسطين عام ١٨٥٠، وملكت مساحات من الأراضي، وهبتها لإقامة المستوطنات اليهودية. ١٠

ولتأطير هذا الدعم أسس الصهاينة المسيحيون في الولايات المتحدة عدة مؤسسات هدفها المعلن التشجيع على مساندة إسرائيل، أبرزها «مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل» وصفها القس «جون هاجي» بالنسخة المسيحية من أيباك، ومؤسسات أخرى مثل «مؤتمر القيادة المسيحية

الوطني من أجل إسرائيل» و«ائتلاف الوحدة من أجل إسرائيل» و«السفارة المسيحية العالمية في أورشليم» وغيرها. ١١

وتلتقي الحركتان الصهيونية اليهودية والصهيونية المسيحية حول «مشروع إعادة بناء الهيكل اليهودي في الموقع الذي يقوم عليه المسجد الأقصى اليوم». لذا فالهدف الذي تعمل الحركتان على تحقيقه يتمحور حول فرض سيادة يهودية كاملة على كل فلسطين بدعوة أنها «أرض اليهود الموعودة»، ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى تعميم البركة الإلهية على كل العالم، وترجمت معتقدات هذه الحركة بداية في العام ١٩١٧ مع صدور وعد بلفور «الذي أيد فكرة وطن قومي لليهود في فلسطين» وقد أيد أغلب البروتستانت الأميركيين هذه الفكرة واعتبروا تنفيذها واجبا دينيا راسخا.^{١٢}

البعد الديني في خدمة الأهداف السياسية

في البداية كان يُنظر لعودة اليهود إلى فلسطين من منطلق روحي/ ديني بحث، من حيث تحقيق النبوءة، والعلاقة بين اليهود وتحقيق الوعد القائم على عودة المسيح المخلص. وبدءاً من القرن السابع عشر بدأت المصلحة السياسية تلقي بثقلها إلى جانب الدين، أو بمعنى أوضح تبين البعد السياسي للمشروع الذي ظل يتوارى خلف اللباس الديني، فتم ربط الأفكار الدينية مع السياسة الواقعية القائمة على الحصول على نفوذ في الشرق الأوسط، وتقوية هذا النفوذ تحت شعار الدين، وأصبحت أفكار عودة اليهود تُستغل كستار للمصالح الإستعمارية البريطانية في فلسطين التي ارتبطت موقعها بالمتطلبات الأساسية للإمبراطورية، تجسد ذلك فعلياً في مقررات مؤتمر «وايت هول» الذي دعا اليه «أوليفر كرومويل» عام ١٦٥٥ لبحث شرعية عودة اليهود، وتمخض عنه نص القرار «بالسماح لليهود بدخول دولة بروتستانتية ينبغي ألا يكون قانونياً فحسب بل وأمرأً نفعياً»؛ بما يؤشر لبداية توظيف البعد الديني لخدمة البعد السياسي بالاستفادة من اليهود وتوظيفهم في خدمة المصالح البريطانية، وتلخص «بربارة تخمان» المؤرخة الصهيونية دراستها عن الارتباط الإنجليزي المبكر بالصهيونية فتقول: «الدين وحده لم يكن كافياً؛ إذ أن مشاعر البيوريتانيين الغامضة والتآخي الروحي مع أبناء إسرائيل ما

كانت لتؤدي إلى نتائج عملية لو لم تتدخل المصالح السياسية»، ومنذ عهد «كرومويل» أصبح أي اهتمام بريطاني بفلسطين يعتمد على دافع الربح تجارياً أو استعمارياً وعسكرياً، ولكن بغطاء الدافع الديني. ١٣

الأدب والفكر في خدمة الصهيونية المسيحية

لمعرفة أثر الصهيونية المسيحية على الإنتاج الأدبي والفكري الأوروبي نتابع مقالة للكاتبين سليم الزعنون، ومعمّر الخولي، حيث كتبوا: «ومنذ القرن السادس عشر بدت سيطرة البعد الديني واضحة في إنتاج الغرب الفكري والأدبي والفلسفي؛ وألقى بكل قيم الصهيونية المسيحية في معادلة فلسطين اليهودية؛ فكتب «ميلتون» قصيدته الشهيرة «الفردوس السعيد»؛ ونشر «هنري فنش» عام ١٦٢١ كتابه حول «البعث العالمي الكبير- أو عودة اليهود ومعهم كل ممالك الأرض إلى دين المسيح»، وجدد «الكسندر بوب» فكرة المملكة اليهودية في قصيدته «المسيح»؛ ونشر «توماس برايتمان» كتابه الذي يدعو إلى إعادة «الشعب اليهودي» إلى أرض «آبائه وأجداده» لتحقيق نبوءة الكتاب المقدس؛ وصور «جاك بوسيه» عام ١٦٨١ في كتابه «دراسة التاريخ العالمي» إسرائيل على إنها الأمة التي تعلق كل الأمم؛ فهي حجر الأساس في تاريخ العالم.

وفي ألمانيا تناول «هانس ساش» في كتابه عام ١٥٥٢ موضوعات عن التاريخ اليهودي؛ وأكدت «كريستان وايز» نفس الأفكار في كتابها عام ١٦٨٣؛ وكتب الشاعر «جوتهلد ابهريم لستنغ» روايته ناتان الحكيم عام ١٧٧٩ التي تنتقل إلى موطن البطل اليهودي ناتان وتصور الرواية الحملة الصليبية الثالثة وتصور صلاح الدين الأيوبي كمحتل للقدس.

وفي ذات السياق نلاحظ مناصرة لقضية عودة اليهود إلى فلسطين على أسس دينية في كتابات الفلاسفة «جوزيف بريستلي»، «جون لوك»، «إسحق نيوتن»، «جان جاك روسو»؛ «بليز باسكال»؛ «إيمانويل كانت».. رغم تراجع هذا النوع من الكتابات بداية القرن الثامن عشر إلا أنه شهد تصاعداً مرة ثانية في القرن التاسع عشر». ١٤

خلاصة

استنادا لما سبق، فإن وعد بلفور الذي صدر سنة ١٩١٧ لا يشكل البداية الأولى لفكرة الوطن القومي لليهود في فلسطين، بل إن هذه الفكرة تمتد بجذورها إلى القرن السادس عشر، حيث تبلورت في إطار ما سمي بـ «الصهيونية المسيحية» التي وضعت المقدمات الحقيقية لظهور الصهيونية العملية، التي أدت لقيام إسرائيل، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الصهيونية المسيحية ظلت تيارا هامشيا في بريطانيا، ولم تهيمن على الحياة الدينية لا في بريطانيا ولا في غيرها.. لكنها الآن حركة قوية، ولها حضورها، خاصة في أميركا، وهناك ما يقرب من ٤٠ مليونا من أتباع الصهيونية المسيحية داخل الولايات المتحدة وحدها، ويشهد الإعلام الأمريكي حضورا متزايدا لها، حيث إن لها ما يقرب من ١٠٠ محطة تلفزيونية، وأكثر من ١٠٠٠ محطة إذاعية، ويعمل في مجال التبشير ما يقرب من ٨٠ ألف قسيس.^{١٥}

وخلاصة القول، أن البعد الديني لم يكن عاملا حاسما ولا رئيسا في إصدار وعد بلفور، بل كان ستارا يخفي وراءه الأطماع الاستعمارية، لكنه شكل عامل تقوية ودفع للمشروع الصهيوني، على الأقل من الناحية الإعلامية، ولجذب أنظار اليهود أنفسهم ولإقناعهم بالمشروع الصهيوني، واختلاق أسس دينية تاريخية له.

الهوامش

- ١- دهام حسن، حركة الإصلاح الديني في أوروبا، منبر الحرية، ١-١١-٢٠١٠، <http://minbaralhurriyya.org/>، ٣٦٧٩/index.php/archives
- ٢- سليم الزعنون، معمر الخولي، وعد بلفور.. قراءة في الصهيونية المسيحية، وكالة فلسطين اليوم، ٢-١١-٢٠١١، <https://paltoday.ps/ar/post/122196>
- ٣- سليم الزعنون، معمر الخولي، المصدر نفسه.
- ٤- محمد المنشاوي، المفاهيم الأساسية للمسيحية الصهيونية، الجزيرة نت، <http://www.aljazeera.net/specialfiles/4193-b76f-dcef2a1e90ae-2b60-pages/ebc26dd5>
- ٥- سليم الزعنون، معمر الخولي، مصدر سبق ذكره.
- ٦- سليم الزعنون، معمر الخولي، مصدر سبق ذكره.
- ٧- صالح ربو، ٩٩ عاما على وعد بلفور - وقائع وحقائق تاريخية مغيبة، صحيفة المغرب، <http://almughared.com/issues/02112016>
- ٨- محمد المنشاوي، مصدر سبق ذكره.
- ٩- سليم الزعنون، معمر الخولي، مصدر سبق ذكره.
- ١٠- تاريخ الاستيطان اليهودي في فلسطين، وكالة الأنباء الفلسطينية وفا، <http://info.wafa.ps/atemplate.aspx?id=4069>
- ١١- سليم الزعنون، معمر الخولي، مصدر سبق ذكره.
- ١٢- محمد المنشاوي، مصدر سبق ذكره.
- ١٣- سليم الزعنون، معمر الخولي، مصدر سبق ذكره.
- ١٤- سليم الزعنون، معمر الخولي، مصدر سبق ذكره.
- ١٥- محمد المنشاوي، مصدر سبق ذكره.

مائة عام على وعد بلفور: عودة إلى بداية الصراع

عليان الهندي*

قدم الوزير البريطاني اليهودي هربرت صمويل، مذكرة إلى الحكومة البريطانية، في شهر آذار عام ١٩١٥ يشرح فيها الوضع العام بفلسطين في ظل الحكم التركي، ومستقبل اليهود فيها، الذين لم يزد عددهم، حتى ذلك الوقت، عن ٥٠ ألف نسمة، من بين سكانها الفلسطينيين الذين قدر عددهم بـ ٦٧٣ ألف نسمة. ورفضت المذكرة، فكرة منح اليهود دولة أو حكما ذاتيا لقلّة عددهم مقارنة بالعرب الفلسطينيين، وطالبت بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني لتحقيق الهدف المذكور مع غيره من الأهداف البريطانية في المنطقة^١.

إثر المذكرة، بدأت حملة إعلامية في وسائل الإعلام البريطانية، وتبادل للرسائل بين قادة الحركة الصهيونية التي مثلها في ذلك الوقت الدكتور حاييم وايزمن واللورد ليونيل وولتر روتشيلد، وغيرهم من الشخصيات اليهودية النافذة في بريطانيا، دفعت الحكومة البريطانية، إلى طرح مستقبل الوجود اليهودي في فلسطين على جدول أعمالها.

ومع اقتراب نهاية الإمبراطورية العثمانية، واحتلال فلسطين من قبل القوات البريطانية، أصدرت بريطانيا «وعد بلفور» الذي منح اليهود حقوقا لا يستحقونها في فلسطين، وأوجد صراعا في فلسطين لم تحسم نتيجته حتى هذا اليوم، لعدم قدرة دولة إسرائيل على إنهاء القضية الفلسطينية، وعدم قدرة الفلسطينيين على مسح المشروع الصهيوني عن الوجود.

* باحث فلسطيني

بعد قرن على صدور الوعد، يبدو أن الصراع على كل فلسطين التاريخية بين اليهود والفلسطينيين عاد من حيث ابتدأ، نتيجة السياسات الإسرائيلية المختلفة على الأرض، التي ربما تدفع كل الفلسطينيين إلى توحيد صفوفهم وكلمتهم في الصراع مع دولة إسرائيل.

إعلان وليس وعد

قبل احتلال بريطانيا لفلسطين بشهر (تشرين الأول عام ١٩١٧)، جرى تبادل مسودات إعلان بلفور بين الحكومة البريطانية وبين بعض الشخصيات اليهودية من ضمنها الحاخام والسياسي اليهودي البريطاني السير فيليب ماغنوس الذي استبدل صيغة «العرق اليهودي» بـ «الشعب اليهودي» التي وردت في النص الأصلي، ورفضت المسودات التي قدمت من الحركة الصهيونية ومن الشخصيات المؤيدة لها منح اليهود وطناً على كل «أرض إسرائيل»، التي استبدلت بـ «بيت وطني» في «أرض إسرائيل»^٢.

ولم تكن صدفة عودة مصطلح «البيت الوطني» للتداول خلال المفاوضات التي تمت بين الرئيس الفلسطيني محمود عباس ومبعوثيه وبين ممثلي حكومتي إسرائيل إيهود أولمرت وبنيامين نتنياهو (٢٠٠٦-٢٠١١)، برئاسة وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة تسيبي لبني، التي صرحت أنها تتطلع لحل تكون فيه إسرائيل «البيت الوطني» لكل اليهود في العالم، في حين تكون فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة) «البيت الوطني» لكل الفلسطينيين في العالم، بما في ذلك فلسطينيي مناطق عام ١٩٤٨^٤.

ورغم عدم ورود مصطلح «البيت الوطني» في القانون الدولي حينها، ولا حتى اليوم، إلا أن طرحه كصيغة غير واضحة في ذلك الوقت جاء لتحقيق هدف إقامة «وطن قومي لليهود» في فلسطين. في حين كان هدف إسرائيل من محاولة طرحه كشرط للتوصل لسلام نهائي مع الفلسطينيين، في مطلع القرن الواحد والعشرين، تثبيت ما يسمى بـ «الدولة اليهودية» المختلف عليها دينياً بين اليهود أنفسهم، والمتفق عليها سياسياً، بضرورة إيجاد حل لفلسطينيي مناطق عام ١٩٤٨ في الدولة الفلسطينية المقرر إقامتها -إذا أقيمت- في أي حل نهائي مستقبلي، للمحافظة على «نقاء» العرق اليهودي.

ورغم توقيع الإعلان باسمه، تبين من محاضر الاجتماعات المغلقة للحكومة البريطانية عام ١٩١٧، ومن الدراسات الجديدة، أن اللورد جيمس بلفور كان من أشد المعارضين لقرار مجلس الوزراء البريطاني المصغر بشأن السياسة البريطانية الواجب اتباعها في الشرق الأوسط، ومن ضمنها المتعلقة بفلسطين ومنح اليهود مكانة ما فيها، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، حيث طالبت مجموعة من الوزراء المحافظة على الامبراطورية العثمانية، التي أيدها بلفور، في حين طالبت مجموعة أخرى، وفي مقدمتهم رئيس الوزراء البريطاني دافيد لويد جورج، تقسيم الإمبراطورية ومنح اليهود مكانة ما في فلسطين^٥.

إضافة لذلك، لم يكن بلفور عضواً في المجلس الوزاري المصغر الذي بحث الموضوع، ولكنه وقع على القرار بصفته وزيراً لخارجية بريطانيا^٦.

وتفيد المحاضر والدراسات أن صياغة إعلان بلفور تمت من قبل السياسي البريطاني المشهور مارك سايكس، مندوب وزارة الخارجية البريطانية، الذي وقع مع السياسي الفرنسي فرنسوا جورج بيكو الاتفاقية المشهورة باسمهما سايكس-بيكو^٧.

إخفاقات

رغم الامتيازات الهائلة التي منحها إعلان بلفور لليهود، بإعطائهم حقاً لم يملكوه في فلسطين، الذي تمخض عنه قتل وتهجير وتشريد الشعب الفلسطيني ومصادرة، ليس فقط أراضيها، بل كل وطنه، يعتقد أن أول إخفاق حققته الحركة الصهيونية، ومن بعدها دولة إسرائيل، هو رفض بريطانيا أن يشمل وعد بلفور ضم ما يسمى «أرض إسرائيل الكبرى»، وليس الكاملة، التي تشمل فلسطين وإمارة شرقي الأردن، الذي منحه بريطانيا للأمير عبدالله بن الحسين^٨.

وتطلعت الحركة الصهيونية بجميع أقطابها وحركاتها وأحزابها، إلى ضم أراضي إمارة شرقي الأردن لنفوذ إعلان بلفور لاعتقادها أنها جزء من حدود إسرائيل الكبرى. ولم يعبر عن هذا المطلب، بالتقدم مباشرة إلى الحكومة البريطانية فقط، بل عبر عنه في النشيد المشهور لمؤسس حركة «بيتار» اليهودية والاب الروحي لحزب الليكود الحاكم زئيف جابوتنسكي، التي تقول في أحد أبياتها: «ضفتان للأردن

[نهر الأردن] هذه الضفة لنا، وتلك أيضاً». وفيما بعد، تحولت القصيدة إلى صورة وشعار لحركة بينار اليهودية العالمية^٩.

فشل الحركة الصهيونية في ضم الإمارة، وتسليم دولة إسرائيل من بعدها بوجودها كمملكة، دفعها ل طرح شعار «فلسطين هي الأردن»، وهو شعار غير رسمي حاولت القيادات الإسرائيلية المختلفة تسويقه سياسيا وفشلت، حتى أن رئيس دولة إسرائيل شمعون بيرس، أبلغ بيغن عام ١٩٧٨ أنه لا يتحمل أن يرى «دولة عرفاتية والأردن هو فلسطين»، وأن قلبه يقطر دما وهو يرى العرب يقضمون الجليل، وأضاف أن أي حل مع الفلسطينيين يجب أن يحافظ فيه على منح الجنسية الأردنية لكل الفلسطينيين^{١٠}. وتتبنى الموقف المذكور مجموعات كبيرة من أقطاب الائتلاف الحالي في الحكومة الإسرائيلية التي يقودها بنيامين نتنياهو.

الإخفاق الثاني الذي واجهته الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل من بعدها، هو عدم قدرتها على اقناع بريطانيا بضم كل فلسطين في الاعلان. الأمر الذي دفعها بعد «إعلان استقلالها» إلى شن حملات عسكرية على أراضي الفلسطينيين فيما سمي بالضفة الغربية وقطاع غزة، نجحت خلالها في ضم ما يقارب من ٢٠٪ من أراضي الفلسطينيين حتى عام ١٩٦٧، التي خصصت لإقامة دولة عربية بهدف توسيع دولة إسرائيل.

لكن الرغبة بتجاوز السياسات، التي وضعها إعلان بلفور وقرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عام ١٩٤٧، دفعها عام ١٩٦٧ إلى شن عدوان جديد ليس فقط على الشعب الفلسطيني، بل على الدول العربية احتلت خلالها بقية فلسطين وأراض من أربعة دول عربية.

تقسيم وسياسات وسيطرة

نكبة فلسطين وإعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ أوقعت انقساماً جغرافياً وسياسياً واجتماعياً في صفوف الفلسطينيين، حيث قسمتهم إلى أربعة أقسام رئيسية هم: أولاً، الفلسطينيون في أراضي عام ١٩٤٨ الذين خضعوا للحكم العسكري الإسرائيلي. ثانياً، الفلسطينيون في الضفة الغربية الذين خضعوا لسلطة المملكة الأردنية الهاشمية. ثالثاً، الفلسطينيون في قطاع غزة الذين خضعوا للسيطرة

المصرية. والرابع، هجر إلى مختلف دول العالم، خاصة للدول المحيطة بفلسطين.

التشتيت المذكور، عزز الرواية الصهيونية والإسرائيلية (رواية الدولة) بأنه لا يوجد شيء اسمه شعب فلسطيني، وأن المشكلة القائمة مع ما يسمى بالفلسطينيين هي مشكلة لاجئين تتطلب حلا مع الدول العربية، وليس حلا وفق قرار التقسيم، الذي منح العرب دولة إلى جانب دولة إسرائيل. لكن حرب عام ١٩٦٧، التي تمخض عنها احتلال ما تبقى من فلسطين، من دون أن تحدث فيها حركة تهجير كبيرة في صفوف الفلسطينيين، كالتى حدثت عام ١٩٤٨، أعادت توحيد الفلسطينيين مرة أخرى، لكن تحت السقف الإسرائيلي، الذي حرص على إعادة تقسيمهم اعتمادا على الرواية الصهيونية (التي تبنتها إسرائيل فيما بعد) الذين اعتبرتهم قبائل وعشائر بدوية متنقلة وطوائف وعرقيات مختلفة غير متجانسة لا يجمعهم سوى الدين.

واعتقدت إسرائيل أن تقسيم الفلسطينيين واتباع سياسات متنوعة ومختلفة بحقهم، يمنع عودة الصراع معهم على كل فلسطين التاريخية، ويبقيه في إطار الصراع العربي-الإسرائيلي، حيث اعتقدت أن حل هذا الصراع سيؤدي إلى انتهاء القضية الفلسطينية. والتقسيم الإسرائيلي للفلسطينيين هو:

١. اللاجئون وحملة المفاتيح، الذين لن يسمح لهم بالعودة مهما كانت الظروف وهؤلاء يشكلون اليوم أقل من ٥٠% من مجموع الفلسطينيين في العالم^{١١}.

٢. سكان قطاع غزة - الذين منحهم إسرائيل منذ بداية احتلالها للقطاع دورا أوسع في إدارة شؤونهم، مقارنة مع سكان الضفة الغربية. وتكرر نفس الموقف عند التوقيع على اتفاقيات أوسلو، عندما تحدث الاتفاق عن انسحاب من قطاع غزة، وإعادة انتشار في الضفة الغربية. وفي عام ٢٠٠٥، انفصلت إسرائيل كليا عن القطاع في محاولة منها لإخراج القطاع من ساحة الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي.

٣. سكان الضفة الغربية - التي حاولت تسليم السيطرة عليهم للمملكة الأردنية الهاشمية في إطار خطط الحكم الذاتي المختلفة. وعندما فشلت سلمت السيطرة على السكان لمنظمة التحرير الفلسطينية، الراضة لاستمرار الأمر الواقع الذي تحاول إسرائيل تخليده.

٤. سكان القدس الشرقية - الذين اتبعت بحقهم سياسات تدفعهم إلى البحث الدائم عن طرق

للمحافظة على وجودهم والمحافظة على الوثائق (الهوية الزرقاء) التي تثبت وجودهم في هذه المدينة. ولم تكتمف إسرائيل بهذه الإجراءات، بل تبحث اليوم عن طرق للتخلي عن مسؤولياتها عن الأحياء المقدسية خارج جدار الطرد الذي بنته حول القدس في محاولة منها لتخلص من السيطرة على نصف المقدسين تقريباً .

٥. سكان «دولة إسرائيل» - الذين رفضت الاعتراف بهم كأقلية قومية، وبالتالي منحهم حقوقاً متساوية مع اليهودي الساكن في دولة إسرائيل، وتشغلهم منذ عام ١٩٤٨ حتى هذا اليوم بحاربة القوانين العنصرية وفي البحث عن مساواة لن يصلوا إليها أبداً.

الواقع بعد ١٠٠ عام من وعد بلفور

عندما صدر وعد بلفور بلغ عدد سكان فلسطين ٦٧٣ ألف نسمة منهم ٦٧ ألف يهودي منتشرين في مناطق محددة منها، والبقية عرب (مسلمون ومسيحيون)، منتشرين في مختلف أنحاء فلسطين^{١٢}. وحتى عام ١٩٤٨ امتلك العرب والمسلمون أكثر من سبعة آلاف كيلو متراً مربعاً كأملك خاصة في فلسطين، في حين امتلك اليهود ٨٠٠ كيلو متراً كأملك خاصة منها ٢٠٠ كيلو متر أراضي دولة تم استئجارها من دولة الانتداب البريطاني^{١٣}.

وفي مجال السيطرة والسيادة، خضعت فلسطين للسيطرة البريطانية المسلحة، في حين حكمت فلسطين من العرب والمسلمين بالقوة الأخلاقية بعد تحريرها بالقوة المسلحة من الغزاة الطامعين. اليوم وبعد ١٠٠ عام، من الوعد والجرائم والمذابح الصهيونية والبريطانية بحق الفلسطينيين وأراضيهم، ومحاولات مسحهم وقضيتهم عن الوجود، يعيش في فلسطين أكثر من ١٤ مليون نسمة منهم ٦,٥ مليون يهودي^{١٤} (من ضمنهم ما يقارب ٣٠٠ ألف نسمة من المسيحيين غير العرب ومعظمهم مهاجرون من الاتحاد السوفيتي السابق) وأكثر من ٧,٢ مليون فلسطيني بقليل^{١٥} و٥٠٠ ألف من غير اليهود والفلسطينيين (عمال أجانب ومتسولين أفارقة)^{١٦}.

وفيما يتعلق بتوزيع السكان في فلسطين التاريخية، تشير المعطيات أن الفلسطينيين، وباستثناء منطقة الساحل، ينتشرون بشكل أو بآخر، وفق الوجود الفلسطيني الذي كان سائداً قبل ١٠٠ عام

من اندلاع الصراع مع اليهود، ويشكلون أغلبية في كل أماكن سكنهم المختلفة في الشمال والجنوب والوسط.

في حين يتواجد أكثر من ٧٠٪ من اليهود و٨٠٪ من منشآتهم الاقتصادية وغيرها في المنطقة المسماة «غوش دان» البالغة مساحتها ٢٠٠٠ كيلو متر، التي تمتد من عسقلان في الجنوب حتى نتانيا في الشمال.

وفيما يتعلق بالأماكن الخاصة، وبعيدا عن أملاك اللاجئين الخاصة (٥ آلاف كيلو متراً)، يملك الفلسطينيون النسبة الأكبر من الأراضي الخاصة في كل فلسطين التاريخية، وهي موزعة كالتالي: ١٢٪ في الضفة الغربية و ١,٥ في قطاع غزة ٢-٣ ٪ في فلسطين عام ١٩٤٨، في حين يملك اليهود ٧٪ من فلسطين التاريخية. أما بقية الأراضي (بما فيها أملاك اللاجئين الفلسطينيين) فهي أراضي الدولة يشرف عليها الحكم العسكري في الضفة الغربية وما يسمى الصندوق القومي الإسرائيلي وصندوق أراضي إسرائيل داخل المناطق الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٤٨)، وتخشي سلطات الحكم الإسرائيلي اتباع سياسة بيع أراضي الدولة خوفاً، من شراء العرب والفلسطينيين نسبة كبيرة منها، ما يرفع نسب امتلاكهم من أراضي فلسطين التاريخية.

وفيما يتعلق بالسيطرة، فقد سيطرت دولة إسرائيل على فلسطين بالقوة المسلحة، مثل بريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ومن قبلهم الصليبيون قبل أكثر من ١٢٠٠ عام، في حين يقاوم الفلسطينيون الوجود المسلح بقوة أخلاقية عمادها الديموغرافيا والتاريخ والجغرافيا والدين.

عَوْدٌ عَلَى بَدء

رغم الهزيمة الكبيرة التي تعرض لها العرب بما فيهم الفلسطينيون الذين احتلت بقية أراضيهم، شكلت حرب الأيام الستة منعطفاً تاريخياً في حياة الشعب الفلسطيني، حين أعاد الاحتلال توحيد أكثر من نصف الشعب الفلسطيني في فلسطين التاريخية. لكن أحد أهم مشاكل التوحيد المذكور، هو عدم تمكن الفلسطينيين من تبنى سياسة وطرح مقاومة موحدة، ضد المحتل الإسرائيلي الذي تنوعت واختلقت أساليب قمعه من منطقة لأخرى، بهدف المحافظة على تقسيمهم، وتحويلهم

لأقليات بشرية في مواجهة دولة الأغلبية اليهودية، والتعامل معهم وفق سياسة «فرق تسد». اليوم وبعد ١٠٠ عام على وعد بلفور، عاد الوضع إلى سابق عهده في فلسطين التاريخية، حيث يشكل فيه الفلسطينيون أغلبية من يسكن فلسطين، ويملكون النسبة الأكبر من الأراضي، ويتوزعون جغرافيا أكثر من الأقلية اليهودية، في حين يملك اليهود القوة المسلحة لفرض وضمان سيطرتهم على فلسطين التاريخية. ويتطلب الوضع المذكور من الفلسطينيين، تبني سياسة تعتمد على المعطيات المذكورة أكثر من أي وقت مضى - ألا تستخدم الإحصاءات والمعطيات في مختلف دول العالم لرسم السياسات الوطنية المختلفة؟.

السياسات الجديدة للفلسطينيين مطلوبة اليوم، أكثر من أي وقت مضى، خاصة أن سياسة دولة إسرائيل الدائمة هي البحث المتواصل عن إحداث نكبة جديدة في صفوف الفلسطينيين تعطي إسرائيل هامشا ومرونة أوسع في الصراع معهم في المستقبل المنظور، خاصة أن سوء إدارة إسرائيل للصراع مع الفلسطينيين، النابع من رغبتهم في السيطرة على كل فلسطين التاريخية، أعاد الصراع لمربعه الأول، قبل صدور وعد بلفور، فهل نكرر الأخطاء، ونعيش النكبات مرة أخرى؟.

الهوامش

١. يعتقد الكثيرون من العرب والفلسطينيين أن رسالة بلفور للحركة الصهيونية كانت وعدا من بريطانيا العظمى، علما أن الترجمة الحقيقية لكلمة DECLARATION الواردة في الرسالة هي إعلان أو إشهار، وفق جريدة الشرق الأوسط (٢٠١٥ عدد ١٣٥٤٣) التي نشرت سلسلة مقالات حول الموضوع بمناسبة مرور مائة عام على وعد بلفور. في هذا المقال ساستخدم المصطلحين، مع العلم أن الاسم الدارج هو وعد وليس إعلان.
٢. مذكرة هربرت صموئيل إلى الحكومة البريطانية بشأن وضع فلسطين بعد الحرب، آذار/مارس ١٩١٥، ملف وثائق فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، www.pakestine-studies.org.
٣. المكتبة الوطنية الإسرائيلية، مسودة إعلان بلفور عن العرق اليهودي، زاوية القراءة، www.nli.org.il.
٤. صافي كروبسكي، فلسطين - الحل لعرب إسرائيل، تصريحات لوزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيفي لبيني خلال لقاء مع وزير الخارجية الفرنسي برنار كوشنير لوسائل الاعلام المختلفة، هأرتس، ٢٠١٧/١١/١٨.
٥. إيلان شاحوري، صحفي ومؤرخ إسرائيلي متخصص بتاريخ مدينة تل أبيب، سمي أهم شارع فيها على اسم اللورد بلفور، وعلى غيرها من المواقع داخل المدينة وفي دولة إسرائيل. الموقع الالكتروني لشاحوري www.mytelaviv.co.il.

٦. نفس المصدر.
٧. نفس المصدر.
٨. الرئيس الرابع للحركة الصهيونية حاييم وايزمن قدم مبررات وخرائط وحدوداً توراتية لما يسمى بأرض «إسرائيل الكبرى» التي تضم شرقي الأردن و «إسرائيل الكاملة» الواقعة من النيل إلى الفرات.
٩. شمال الأردن، قصيدة كتبها زئيف جابوتنسكي في باريس، وهي من أهم القصائد السياسية في إسرائيل، القصيدة حولت إلى صورة وشعار لحركة بيتار اليهودية. كتبت القصيدة بعد سبعة أعوام من تقسيم بريطانيا فلسطين والأردن إلى قسمين.
١٠. فاييتس غيدي، بيرس لبيغن: الأردن هو فلسطين، وأنا ضد دولة عرفاتية، هارتس، ٢٠١٦/١١/١١. كشف عن هذا بعد وفاة رئيس دولة إسرائيل شمعون بيرس. موقف آخر يوضح موقف بيرس من الحل، هو ما صرح به بنيامين نتنياهو من أن بيرس أبلغه أنه أخطأ في تقديرته حول اتفاق سلام مع الفلسطينيين. رد بيرس على ذلك التصريح كان باهتا.
١١. محاضرة للأديب الاسرائيلي عاموس عوز حول مطالب اليمين اليهودي بضم الضفة الغربية، عندما قارن بينهم وبين اللاجئين الحالمين بالعودة التي لن تسمح بها إسرائيل، مركز أبحاث الأمن القومي، يوم دراسي حول التهديدات التي تواجهها إسرائيل، ٢٠١٤.
١٢. د. يوسف كامل إبراهيم، التحول الديموغرافي القسري في فلسطين، دراسات وتقارير، وكالة الانباء الفلسطينية «وفا»، ٢٠١٧.
١٣. د. سلمان أبو ستة، حق الملكية، فلسطين في الذاكرة، الموقع الالكتروني www.palestinememberd.com ، ٢٠٠٧.
١٤. كتاب الإحصاء السنوي لإسرائيل، السكان، جدول رقم ١ ، عدد متوقع للسكان عام ٢٠١٧، ص ٤، الجهاز المركزي للإحصاء، ٢٠١٦. ومن غير الواضح شمول سكان القدس في الإحصاء أم لا. لكن من الواضح أن الإحصاء الفلسطيني لا يشمل القدس الشرقية لأن لها معطيات خاصة بها لم يشر إليها الإحصاء الفلسطيني في المجموع العام للسكان.
١٥. الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، السكان، مؤشرات رئيسية، معطيات ٢٠١٦، الموقع الالكتروني www.pcbs.gov.ps المعطيات الفلسطينية خاصة بعام ٢٠١٦.
١٦. مصدر سبق ذكره، كتاب الإحصاء الإسرائيلي السنوي، ص ٤.

مائة عام على سايكس بيكو ... وما زالت الخطوط ترسم في الرمال

شذى يحيى*

«إذا ما استشعرت قوة اليهود الكبرى أن مطالبها قد عولمت بإنصاف سعيًا إلى تحقيقها الملموس
فسوف يكون هناك أمل عندئذ في التوصل إلى بلاد عرب وشرق منظمة ومتقدمة أما إذا
استشعرت هذه القوة أن هناك دفعًا بعدم جواز الاستماع إلى مطالبها بسبب الظروف وأن هذه
المطالب محكوم عليها أن تظل آمالاً مؤلمة، فينني أرى عندئذ قليلاً من المستقبل أو لا أرى أي
مستقبل لآمالنا»

(تعليق وجهه سايكس لبيكو أثناء المفاوضات على تقسيم الشرق الأوسط)

استقبال حميمي ودافئ أذاب الجليد الذي تشكل على مدار ثمانية أعوام قوبل به رئيس الوزراء
الإسرائيلي بنيامين نتانياهو من الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترامب في يوم الأربعاء ١٥ فبراير
٢٠١٧م وبعد أيام قليلة من توليه ما يعرف بقيادة "العالم الحر"، نتانياهو الذي حج إلى واشنطن
كعادة كل رؤساء وزراء إسرائيل بعد انتخاب رئيس أميركي جديد بدا مرتبكاً ومنتشياً بحجم
الحفاوة التي قوبل بها، على الأخص أنها بدت كقشة يتعلق بها وسط دوامات الاتهامات بالفساد
التي تحيط بحكومته ولم يكتف ترامب بهذه الحفاوة بل أذهل ضيفه بالتصريحات التي أدلى بها
في المؤتمر الصحافي الذي تلا اللقاء، كما أذهل معه كل من له شأن أو علاقة بالشرق الأوسط حين
قال ترامب صراحة "إنني أتطلع إلى عقد اتفاقية سلام عظيمة وأؤيد أي حل يريده الإسرائيليون

* باحثة من مصر

والفلسطينيون، إنني آخذ بحل الدولتين أو حل الدولة الواحدة على نفس المحمل أياً كان ما يريده الطرفان أنا أستطيع التعايش مع أي منهما"، وقد فاجأ هذا التصريح الجريء نتانياهو المناصر شكلياً ورسمياً لحل الدولتين مما دفعه لتجاهل الأسئلة المطروحة عن رأيه فيما يختص بالحلين أثناء المؤتمر الصحفي، وقد فاجأ ترامب ضيفه أيضاً في نفس المؤتمر بانتقاده الشديد لسياسة الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية والقطاع بحدّة! مما دفع نتانياهو للرد بأن الاستيطان ليس هو جوهر الصراع في المنطقة وبأنه من غير الممكن النقاش حوله إلا في إطار مفاوضات الحل النهائي.

وبعيداً عن احتفاء اليمين الإسرائيلي بتصريحات ترامب الأمر الذي دفع رئيس حزب دعم المستوطنات اليهودية وهو نفسه وزير التعليم الإسرائيلي نافتالي بينيت لكتابة تغريده على تويتر يقول فيها "عهد جديد بعد أربعة وعشرين عاماً انزل العلم الفلسطيني من على البيت الأبيض ليرفع مكانه علم إسرائيل"، وتصريح الوزير جلعاد أردان "إن الموقف الذي عبر عنه الرئيس الأمريكي هو خير دليل على أن حل الدولتين ليس هو الحل الوحيد للوصول للسلام وأن هذه هي اللحظة المناسبة لتغيير المعادلة ولتحويل الضغط إلى الجانب الفلسطيني"، كذلك تصريحات جون كيري وزير الخارجية الأمريكي الأسبق أنه في دولة موحدة سيصبح عدد المواطنين الفلسطينيين أكثر من عدد اليهود وبذلك يمكنهم السيطرة عن طريق صناديق الاقتراع على مفاصل الدولة إلا إذا تبتعت إسرائيل نظام الأبارتهيد الذي كان معمولاً به في جنوب أفريقيا والذي كان يمنع السود من الاقتراع وهذا يخل بصورة إسرائيل كدولة ديمقراطية على أساس ديني واتفق مع كيري أغلب المحللين المهتمين بالشرق الأوسط الذين يرون أن حل الدولة الواحدة معناه القضاء على الحلم الصهيوني والديمقراطية الوحيدة في المنطقة وأنه سوف يؤدي إلى حلقة جديدة من حلقات الصراع لأن الفلسطينيين لن يرضيهم أن يصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية في دولة ذات هوية يهودية، ليبقى السؤال ما الذي دفع الرجل الذي كانت كل تصريحاته أثناء حملته الانتخابية تصب في إطار التعاون مع نتانياهو والإسرائيليين لخلق مناخ أفضل يختص بعملية السلام متجاهلاً العرب والفلسطينيين في أغلب هذه التصريحات لأن يقرر فجأة الوصول إلى حل يرضي الطرفين سواء أكان دولة أو دولتين؟! هل هو العداء للسامية كما اتهمه العديد من المؤسسات اليهودية الأميركية كمؤسسة آن فرانك على الرغم من أنه عين زوج ابنته جارد كوشنر اليهودي المتعصب والداعم القوي لنتانياهو

والاستيطان كبيراً للمفاوضين في الشرق الأوسط؟ أم الرغبة في القضاء على الحلم الفلسطيني والعربي بدولة حرة مستقلة كما يتهمه العرب؟

الحقيقة أن ترامب كأى رئيس لإدارة أميركية من قبله تدفعه مصالح بلاده أولاً وأخيراً ليحفر خطوطاً جديدة تحدد حدوداً لصراعات جديدة على رمال الشرق الأوسط وفقاً لمصالح ومتطلبات بلاده، ففي الأول والأخر ترامب يستكمل مسيرة بدأت قبل نهاية الحرب العالمية الأولى مع وصول الدولة العثمانية رجل أوروبا المريض إلى آخر مراحل احتضارها وخوفاً من اندلاع حرب جديدة على أملاك الرجل المريض تم عقد عدة لقاءات بين الحلفاء لتقسيم جلد الدب المريض حتى قبل صيده وفقاً لمصالح القوى المتحالفة اليوم حتى لا تتصارع غداً، اتفاق تم بدافع من الجشع كما كتب جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب "تاريخ حركة العرب القومية" كما تم أيضاً بدافع الخوف من حرب على الغنائم وسبق هذا كله خطة منظمة للقضاء على أي نفوذ روحي أو معنوي قبل المهادي على الشرق الأوسط والهند وكان عراب هذه الخطة هو مارك سايكس (١٨٧٩م - ١٩١٩م) نفسه الذي لم يكن مجرد موظف في الخارجية البريطانية ولا دبلوماسياً عادياً فالرجل كان رحالة جاب بلاد الشرق الأوسط في العديد من الرحلات ومؤلف لعديد من الكتب عن الدولة العثمانية من أهمها "الخلافة تراث منسي" الذي طبع ١٩١٥م، "دار السلام" المنشور ١٩٠٤م، و "عبر خمسة ولايات تركية" ١٩٠٠م، هو صاحب رؤية أبهرت كلاً من الإدارتين الإنجليزية في الهند ومصر وأيضاً أوساط وزارة الخارجية البريطانية والإنجليز الشرقيين عموماً ترى أن الرؤية البريطانية التي قامت عليها سياسات بريطانيا تجاه العالم الإسلامي في تلك الفترة خاطئة وأنه من المبالغ جداً تقدير وجهة النظر التي ترى أن أي تحرك تجاه الدولة العثمانية معناه مخاطرة بإعلان الجهاد في العالم الإسلامي والوقوع في شرك حرب صليبية، كان سايكس ومن خلال جولاته في الأراضي العثمانية يرى أنها تجمع كبير من أعراق مختلفة لها مصالح وتطلعات وآمال مختلفة كما أنه يرى أن المرجعية الروحية للخلافة لا أساس لها في الإسلام، كما أن الإسلام نفسه يحتوي على عدة مذاهب وفرق ولذلك ومن وجهة نظره كان يكفي جداً إفهام العالم الإسلامي أن الحرب الجارية هي حرب من أجل الحرية ضد الظلم والإجحاف والجرائم والمذابح واضطهاد الأقليات لجعل شيع الدولة العثمانية التي تضج من تسلط السلطة المركزية لا تنظر للحرب الدائرة على أنها حرب ضد الإسلام

بل حرب ضد الظلم، ولم يكن سايكس مبتكراً في هذه الرؤية فقد حاول نابليون تطبيقها أثناء حملته على مصر لكن الجو لم يكن ممهداً في تلك الفترة أما في شرق أوسط ما قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى الذي كان قد انفتح على العالم واحتك بالمدنية الحديثة وأصبح لديه أجيال من المتعلمين فإن الحلم بالحرية والتخلص من ربقة التسلط والجهل والتعنت العثماني أصبح أملاً يراود الكثيرين ولهذا أرسل مكتب الحرب البريطاني سايكس في مهمة طويلة في الهند وبغداد وفلسطين ومصر صيف وخريف ١٩١٥م، كما قام مكتب الحرب البريطاني وماكميلان نفسه بالإشراف على طباعة كتاب الخلافة الخاص به واعتبروا هذا الكتاب بمثابة الدليل لوزارة الحرب فيما يختص بالخلافة العثمانية كذلك روجت كلاً من صحيفتي المانشستر جارديان والتايمز للكتاب ولأفكاره، وصدر تصريح لمكتب الحرب البريطاني في ديسمبر ١٩١٥م بعد عودته المؤقتة من المهمة السالف ذكرها نص على أن اختيار السير سايكس لتولي ملف الدولة العثمانية هو نتاج لأن "هناك القلائد ممن هم على قيد الحياة الذين يعرفون عن الإمبراطورية العثمانية أكثر من السير مارك سايكس وأقل منهم هم من يستطيعون أن يجارونه في وضوح رؤيته حول هذه القضية"، وبهذا كان من وجهة نظر وزارة الحرب البريطانية أنه من المنطقي جداً اختيار الرجل الذي لا يجيد العربية ولا التركية ولا الفارسية وهو نفسه الرجل الذي أدار بكفاءة رغم ذلك حملة الرد واضعاف البروباجندا التركية الألمانية التي كانت تروج عبر قنواتها بأن الحرب ضد الخلافة هي حرب ضد الإسلام والمسلمين وذلك عبر التوجيهات التي كان يرسلها للمكتب العربي التابع للخارجية البريطانية طوال عام ١٩١٥م بالتركيز على أنها حرب للعدالة والحرية والمساواة والتقدم ضد القهر والظلم والتخلف في نشرتي الحقيقة والكوكب التابعين للمكتب وفي الصحف والدوريات الموالية للحلفاء من الهند وحتى القاهرة كممثل لبريطانيا في مفاوضات قسمة الجزء الآسيوي من تركة الرجل المريض.

كان سايكس قد وضع الخطوط الرئيسية لما سيفعله حتى قبل بدء المفاوضات مع بيكو في رسالة أرسلها لممثل البعثة العسكرية الفرنسية في مصر دوانيل دوسان - كيتان مطلع خريف ١٩١٥م تضمنت "أنه منفتح على فكرة دولتين في سوريا على أنه ينبغي على إنجلترا تأمين مواصلاتها إلى الهند ولهذا لا بد من إنشاء سكة حديدية تربط الرافدين بالمتوسط ولكن هذا المرغوب لا يمكن أن يكون يافا وأن حيفا هي أسوأ حل من الممكن قبوله وسيتم تدويل منطقة جنوب حيفا ضمناً لأمن

مصر أما بقية المنطقة فسوف يتم تقسيمها لمنطقتين فرنسية وإنجليزية توضع كل واحدة منهما تحت إمرة أمير عثماني سيتعين عليه اتباع آراء مستشاريه الإنجليز والفرنسيين وسوف يتعين على إدارتنا العسكرية أن تقتصر قدر الإمكان على قيادة ميلشيات محلية، وهذا يعني أن سايكس كان قد بلور رؤيته حتى قبل أن تبدأ مراسلات حسين ماكماهون التي كانت نتاجاً لنصيحة سايكس بدعم شريف مكة كمرجعية روحية بديلة عن الخلافة العثمانية من منطلق أنه حاكم مكة وأنه عربي كما نصح سايكس أيضاً باستكشاف قدرات مرجعيات مذاهب روحية أخرى بديلة كالشيعة والوهابية وأعرب سايكس في تقارير بوضوح أنه بدون دعم شريف مكة في هذه المرحلة فإنه احتمال وارد وكبير أن تواجه بريطانيا وحلفاؤها بجهد إسلامي حقيقي في الشرق الأوسط وتوحد ضدها، كما أن وجود شريف مكة في صف الحلفاء سيكفل تحييد مسلمي الهند هم أيضاً لأن حاكم المدينة المقدسة انحاز إلى صف غير الصف العثماني مما ينزع عن الصراع اية صبغة دينية من وجهة نظرهم، كما ان الاتفاق مع الشريف حسين كان له هدف آخر وهو تخفيف الضغط على الحكومة الأمريكية والتي لم تكن قد دخلت الحرب فعلياً ولكنها كانت تفرض حصاراً على ألمانيا وحلفائها، هذه الحكومة كانت تؤمن بأن الإمبريالية العسكرية وسياسات الغزو ومدافع الأساطيل لم تعد مناسبة للقرن العشرين وتنادي رسمياً بحق تقرير المصير لكل الشعوب كانت تواجه بظغوط شديدة في الوطن لتخفف الضغط عن الألمان ولهذا فإن كلاً من البريطانيين والفرنسيين الذين كانوا يواجهون صعوبة كبيرة على مختلف الجبهات كانوا مدركين تماماً أنهم لن يمكنهم كسب الحرب دون وجود الأميركيين ولذا كانت مفاوضات سايكس وبيكو سرية وكذلك كان وجود الشريف حسين في الصورة ضرورياً لإقناع الحليف القوي أنهم يساعدون العرب في تقرير مصيرهم أي أن إعلان ضرورة قيام دولة عربية كان أحد أهم دعائم هذه المرحلة من الحرب وهكذا بدأت مراسلات حسين - ماكماهون في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٥م، وضماناً لتجنب النزاع مع الحليف الروسي قبل بدء المفاوضات سعوا أيضاً لتحديد الجانب الروسي من خلال منحه امتيازات في البلقان وبحر قزوين وكفالة حماية المصالح والنفوذ الأرثوذكسي الروسي في الأراضي المقدسة.

وبدأ دوران عجلة الثورة العربية كما بدأت المفاوضات الرسمية لتقسيم الدولة العثمانية في ١٦مايو ١٩١٦م في باريس ورسم الخطوط التي شكلت عاملنا العربي كما نعرفه الآن باجتماع بين رجلين

أولهما هو السير مارك سايكس عن الجانب البريطاني والثاني هو فرانسوا جورج بيكو عن الجانب الفرنسي، بدأت المفاوضات برسم سايكس لخط على الخريطة الموضوعة على الطاولة أمام نظيره الفرنسي يمتد من عكا على البحر المتوسط إلى كركوك شمالي العراق قائلاً إن المنطقة شمالي الخط ستخضع بصورة مباشرة أو غير مباشرة للفرنسيين أما المنطقة جنوب الخط فستكون خاضعة لبريطانيا، بالنسبة لفلسطين فستخضع للتقسيم فيما عدا سنجقية القدس التي ستكون تحت الإدارة الدولية للحلفاء بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا وإسبانيا أيضاً ومعهم شريف مكة، على أن تسيطر فرنسا على ما يعرف بالمنطقة الزرقاء شمالي الخط والتي تشمل لبنان والساحل السوري وكليهما والإسكندرونة في تركيا، أما بريطانيا فستسيطر على جنوب العراق وبغداد ومينائي حيفا وعكا، لتبقى المنطقتين المقسومتين بين الجزء الفرنسي والبريطاني فهما أراض مخصصة لدولة عربية أو لكونفدرالية من عدة دول تعلن تحت الحماية الفرنسية في الجزء الشمالي والبريطانية في الجنوب، وخضعت فلسطين هكذا للتقسيم لخمس أجزاء:

١. الشمال وهو يشمل على المنطقة فوق بحر الجليل والضفة الشمالية للبحيرة وهذا الجزء سيصبح تحت السيادة التامة للفرنسيين.
٢. الضفة الشرقية للبحيرة والجولان سيكونان جزءاً من الدولة العربية الخاضعة للحماية الفرنسية. قلب فلسطين بما فيه القدس ويافا والناصرية وطبرية وغزة سيخضع لإدارة دولية تشكل بعد التشاور مع روسيا وبقية الحلفاء (الأسبان والإيطاليين) وبوجود مندوب لشريف مكة الذي سيكون له حقوق متساوية في إبداء رأيه في إدارة فلسطين.
٣. ميناء حيفا وعكا والمنطقة الواقعة بينهما تحت الإدارة البريطانية المباشرة.
٤. جنوب فلسطين ويتضمن الخليل وبئر سبع والضفة الأخرى عبر نهر الأردن جزء من الدولة العربية التي ستقام تحت الحماية البريطانية.

بهذا الطرح أصبحت فلسطين كياناً أشبه بالشركة المساهمة يشارك في إدارتها مجلس إدارة مكون من بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا وإسبانيا وشريف مكة كان الهدف الأساس منه إيجاد نوع من توازن القوى يكفل عدم نشوب صراعات حول الأرض المقدسة كما أنه يكفل مصالح الطرفين

الإنجليزي والفرنسي، فقد كان هم بريطانيا الأول حماية مصالحها في فلسطين والعراق والسيطرة على أقصر طريق يصل بين البحر المتوسط والخليج العربي ولتأمين الحدود مع مصر وضمّان عدم إنشاء خطوط مواصلات وعلى الأخص خطوط سكك حديد لا تتبع للإمبراطورية فالأولوية الحيوية لسياسة بريطانيا في الشرق الأوسط منذ احتلال مصر عام ١٨٨١م كانت ضمان أمن وسلامة قناة السويس حيث أن البريطانيين كانوا يرون في فلسطين محوراً لكوردون عازل يشكله الشرق الأوسط يحمي الطريق للهند، والأولوية الثانية وهي الطابع الذي مازال يميز سياسة الغرب كلها تجاه الشرق الأوسط هو ضمان تدفق البترول الشرق أوسطي بسلاسة وسرعة وسعر مناسب وكانت هذه الأهمية قد بدأت تظهر في هذا التوقيت بالذات ومنذ العام ١٩١٢م عندها قرر اللورد ونستون تشرشل وزير البحرية في تلك الفترة تحويل كل ماكينات مراكب الأسطول البريطاني للعمل بالبترول بدلاً عن الفحم وبذلك أصبحت السيطرة على البحر الأحمر وتحويله لبحيرة إنجليزية وكذلك السيطرة على الأردن وبلاد الرافدين من أهم أولويات السياسة البريطانية.

أما المصالح الفرنسية فكانت تتمثل في الحفاظ على ميراثهم وثقلهم وتأثيرهم الثقافي والتاريخي والفكري منذ الحروب الصليبية في سوريا الكبرى كما يسمونها وفي الهلال الخصيب أيضاً والحفاظ على لبنان كمحمية فرنسية خالصة، وأيضاً على استثماراتهم في تجارة الحرير في سوريا وفي البنى التحتية والتحديث للمنطقة، وكذلك في استغلال المطلب البريطاني الخاص بإقامة الإمبراطورية العربية والتي كانت فرنسا تراه حاملاً أو كما قال بيكو لسايكس "ما الذي يلزم عراقياً شيعياً في البصرة على أن يرسل الضرائب لأمر سني في أقاصي الحجاز"، ليحصل بذلك على مد ولاية فرنسا للموصل وتأمين ميناء الإسكندرونة ليضمن منفذاً فرنسياً على نفط العراق من حوض كركوك ما لم يضعه الفرنسيون في اعتبارهم أن الالتفاف على بنود هذا الاتفاق كدرع وقتي للحفاظ على الإمبراطورية التي كانت تلاقي الهزائم في كل الجبهات وعلى الأخص جبهة الدردنيل لكن لم يكن لديهم أية نية لتنفيذه واستمروا في التفاوض عليه في الفترة من ١٩١٦م حتى ١٩٢٢م حين أصبحت خريطة سايكس الأصلية شبه غير موجوده على الأرض وهذا بسعي من سايكس نفسه وكان أول ضحايا الرغبة البريطانية في التملص من التزامات سايكس بيكو هم العرب الذين دخلوا الحرب ضد الدولة العثمانية لتحرير أراضيهم فأنكر حقهم في الدولة القومية التي أرادوها والتي كانت

الاتفاقية قد نصت على وجودها مجزوءة السيادة فقد كان رأي البريطانيين أنه يجب عليهم أن يبيعوا حلفاءهم الصغار (العرب) لكي يدفعوا ما يتوجب عليهم دفعه للحلفاء الكبار.

ولكن الحقيقة أن الإنجليز لم تكن لديهم نية للدفع على الإطلاق ربما يبدو هذا جلياً من مقال نشر في المانشستر جارديان التي كان محررها سي. بي. سكوت من أوساط وزارة الحرب البريطانية في نوفمبر ١٩١٥م وهو توقيت مقارب لتوقيت مراسلات حسين - ماكماهون وعنوانه الدفاع عن مصر كتب فيه "إن خط الإمداد التركي يدخل الآن في أراضي فلسطين شرقي نهر الأردن وإن وقع هذا الخط الطبيعي في يد أية قوة معادية فإنه سيضرب خط الدفاع الطبيعي عن مصر كما أننا منخرطين في عمليات في الرافدين ستكسبنا على الأغلب أراض جديدة ومصالح جديدة ولهذا فلا يمكننا تحمل كلفة فصل العراق عن مصر بأية كيانات قد تصح معادية".

إذا لم يكن لدى البريطانيين الرغبة في احترام اتفاقية سايكس بيكو فيما يختص بفلسطين والدليل على ذلك أن مؤرخاً مهماً كالفرنسي هنري لورنس مؤلف "المسألة الفلسطينية" قال إن الإصرار على تسمية الاتفاقية باسم سايكس بيكو إنما هو للتقليل من أهميتها، فهما لم تعد لديهما الرغبة لاحترام بنودها فيما يختص بفلسطين على الأخص، وسايكس الذي رآته الإدارة البريطانية متساهلاً في منح الإسكندرونة للفرنسيين كان مدركاً تماماً أنه لا سبيل لتنفيذ خطته في فلسطين وأنه من الواجب بشكل أو بآخر أن تبقى الأراضي الفلسطينية بأكملها في قبضة بريطانيا ولكن بدون المخاطرة بنزاعات دولية، وهنا كان سعي مارك سايكس للاتصال بالصهاينة في ٢٨ يناير و٣٠ يناير ١٩١٧م حيث التقى سايكس بحاييم فايتسمان بحضور والتر روتشيلد والكونت جيمس روتشيلد وهيربرت صمويل وسوكولوف ممثل اليهود الروس وهاري ساشر ليستمع لمطالبهم في فلسطين وبالطبع دون إبلاغهم أية معلومات عن الاتفاق البريطاني الفرنسي ويحدثه فايتسمان عن المشروع الذي يتبناه منذ ١٩١٤م بجعل المطالب الصهيونية أداة حصرية لخدمة الإمبريالية البريطانية وعرض عليه بشكل برامجي فكرته عن الوحدة ما بين المشروع القومي اليهودي وإعادة إحياء التراث التوراتي والذي كان إحدى العقائد التي ميزت المشروع الإمبريالي البريطاني في القرن التاسع عشر وما بين المصالح الامبريالية البريطانية المتمثلة في سيطرة النفوذ البريطاني على الأرض المقدسة وضمان ولاء يهود روسيا وأيضاً قطع تعامل المؤسسات الاقتصادية اليهودية الكبرى مع برلين وكوبنهاجن في

مقابل أن تعترف بريطانيا بالحقوق اليهودية التاريخية في فلسطين وأن توافق على تشكيل شركة يهودية لتنمية الأراضي الفلسطينية، وكان رد سايكس أن ما يقوله فايتسمان سيواجه بمعارضة من قبل روسيا وإيطاليا وفرنسا والقوميين العرب ولهذا يلتقي سوكولوف ببيكو عبر سايكس في ٩ و٨ فبراير على أساس أنه محاور بريطاني لي طرح سوكولوف مسألة الوطن القومي اليهودي في فلسطين على بيكو الذي يسأله عن رؤية اليهود لتنظيم أنفسهم كدولة ويجب سوكولوف "بأنهم سوف يستقرون بالشكل نفسه الذي استقر به الانجليز والفرنسيون في كندا والبورير في جنوب أفريقيا"، وذلك تحت الحماية البريطانية وبالطبع يرفض بيكو الفكرة بدعوى رغبة الرأي العام الفرنسي هو الآخر بضم فلسطين لفرنسا.

كان هذا اللقاء قبل أن يتسرب خبر اتفاق سايكس بيكو للصهاينة في أبريل ١٩١٧م عن طريق بعض الصحافيين الأصدقاء لهاري ساشر ليلبلغ به حايم فايتسمان الذي كان منخرطاً في مناقشات مستمته مع مسؤولين بريطانيين متعاطفين مع المطالب الصهيونية من فيهم مارك سايكس الأمر الذي دفع ساشر لأن يكتب لفايتسمان فحوى الاتفاق ويذيل رسالته بجملة "لقد تم الكذب علينا وخذاعنا". فكان أكثر ما صدم فايتسمان في الاتفاق نقطتين الأولى أن سايكس بيكو سوف تقسم الياشوف (يهود فلسطين) ما بين مناطق النفوذ الخمسة مع وقوع أغلب المستوطنات في منطقة النفوذ الفرنسي الذي كان يراه معادياً، ووجود مناطق استيطان رئيسية كتل أبيب وبتاح تكفا وريشون ليتسيون وزكرون ياكوف في المنطقة الدولية أي تحت رحمة كل المتحالفين مما جعله يشبهها بحكم سليمان بتقسيم الطفل في أسوأ صورة واحتج قائلاً "إن هذا الاتفاق يدمر جهد ثلاثين عاماً من الاستيطان"، النقطة الثانية أن هذا الاتفاق منح فرنسا هيمنة كاملة على مستوطنات الجليل ومنحها حقوقاً متساوية مع بريطانيا في يهوذا (الضفة الغربية) والساحل وفرنسا ليست متعاطفة مع الرؤية الصهيونية وستسعى بكل الطرق للحد من جهود الاستعمار والاستيطان.

لذلك فقد بلور رؤيته فيما بعد بالكلمات التالية "كان هذا الاتفاق قاتلاً ومميتاً بالنسبة لنا فبالرغم من أنه لم يكن معاهدة كاملة فقد كان اتفاقاً رسمياً ولهذا فتنفيذه كان سيصبح أكبر عقبة في طريق تقدمنا نحو وطن لليهود"، ولكن فايتسمان لم يتراجع رغم الاتفاق عن رأيه أن بريطانيا هي الحليف الوحيد القادر على إعطاء الصهاينة وطناً ولذلك تغاضى عن الخديعة وطلب فوراً لقاءً

مع اللورد روبرت سيسل سكرتير الدولة لوزارة الخارجية بالنيابة ليحتج على الاتفاق ويبلغه أهم اعتراضاته عليها، وكانت أن هذا التقسيم سيثير الاضطرابات عبر العالم كله في الدوائر الصهيونية كما أنه خطر على المصالح البريطانية التجارية واللوجستية لأن أي نشاط تجاري أو اقتصادي في منطقة الإدارة الدولية سيتطلب موافقة كل الشركاء وأن الغيرة والتنافس على فرض النفوذ فيما بينهم سيدفع إلى المزيد من الخلافات ولن يحلها، ولوح فايتسمان بورقة "أن الصهاينة عبر العالم سيعتبرون وجود أية إدارة فرنسية في فلسطين بمثابة الدمار الثالث للييكل" في إشارة خفية لقدرته على الضغط في أميركا وألمانيا وروسيا، ولم يكتفِ فايتسمان بذلك بل كرس كل جهوده هو وأعضاء حركته والمتعاطفين معهم ووسائل الإعلام الداعمة لهم على هدف واحد هو تحييد اتفاق سايكس بيكو تمهيداً لإلغائه وإعلان حماية بريطانية بلا شريك على كامل الأراضي الفلسطينية وهو من وجهة نظره الطريق الوحيد لبداية مشروع الوطن القومي في أرض الميعاد وبالطبع ولأن المصالح البريطانية تقتضي وجود كيان صديق وجوده في هذه المنطقة الحساسة يعتمد على بريطانيا التي لن ترضي بقية الدول بسيادة بريطانية منفردة عليها فقد اكتسب فايتسمان العديد من الأصدقاء في الإدارة البريطانية كانوا يرون أن سايكس أعطى الكثير للفرنسيين وأنه لا يمكن الوثوق بأحد فيما يختص بمسارات النفط وأعتاب القناة وعلى الأخص الإنجليز هم خاضوا حرب الشرق الأوسط وحدهم بدون مساعدة إلا من فرق رمزية فرنسية ولذلك فلا يتوجب عليهم الاقترام مع أحد، أو كما قال لويد جورج لألنبي فيما يختص بهذه المسألة "لا يجوز لنا أن نقاتل من أجل كنعان لتقطع كأجزاء أمام أعين الرب لقد استعدنا فلسطين لتكون موحدة وكاملة ولتستعيد عظمتها"، وبالطبع سايكس نفسه تراجع عن الصيغة الأولى مع المتراجعين وكان واحداً ممن صاغوا الاتفاق الذي أدى إلى وعد بلفور البديل الآمن للإدارة الدولية وللهيمنة الفرنسية على الأرض المقدسة، فوعد بلفور للصهاينة كان أداة لتحقيق هدف بريطاني استراتيجي وهو السيطرة البريطانية المطلقة على كامل الأرض المقدسة عبر وسيط ملائم هو الصهاينة ووطنهم القومي.

فايتسمان طرح رؤية لما أسماه هنري لورنس فلسطين بريطانية وظل متمسكاً بهذه الرؤية رغم أن تسرب معلومة سايكس بيكو أتى من الفرنسيين وليس البريطانيين ولهذا استطاع فايتسمان في لقاء ٢٥ أبريل ١٩١٧م بسيسل أن يقنع الأخير بأن الحل العملي الوحيد لمشكلة فلسطين هو فرض

الحماية عليها وتعلل بأنه نظراً للعلاقات الفرنسية بالعرب المشرقين (وهي نقطة كان الفرنسيون يعتبرونها موطن قوتهم أمام الإنجليز بحكم علاقاتهم القديمة بالشرق)، فإنها ستعتمد على السوريين والمسيحيين العرب (المشرقين) في إدارتها والانطباع البريطاني عن المشاركة لم يكن طيباً أو على حد تعبير فايتسمان "إن المشرقي ليس شخصية جذابة فهو فقد فضائل العرب البدائية، ولم يحز فضائل الحضارة الغربية وهو لا يملك من الهوية الفرنسية غير طلاء سطحي ولا يمكن الاعتماد عليه في تعاون مفيد"، ثم استطرد فايتسمان ليقول "إن الفرنسيين قد سعوا دوماً إلى فرض الروح الفرنسية على سكان مستعمراتهم وأن إدارتهم أقل كفاءة من إدارة البريطانيين وأن الصهاينة قد قاموا في فلسطين بعمل أكثر فائدة من العمل الذي قام به الفرنسيون في تونس"، واقترح فايتسمان على سيسل فكرة أن يعهد للبريطانيين بإدارة فلسطين كوديعة لصالح اليهود مما جعل هذا غير مناف لحق الشعوب في تقرير مصيرها الذي التزم به الحلفاء قبل الحرب والذي تصر عليه الولايات المتحدة المتترددة في دخول الحرب، بل وأثار أيضاً فكرة حماية بريطانية أميركية مشتركة لفلسطين وقد دخلت الولايات المتحدة بالفعل الحرب في نهاية نيسان/أبريل ١٩١٧م بعد تردد دام طويلاً لتستمر العجلة في الدوران ومعها المفاوضات التي تمنح اليهود القدرة على إنشاء وطنهم القومي، وفي أواخر آب/أغسطس ١٩١٧م يكتب مارك سايكس مذكرة جديدة حول مستقبل الشرق العثماني (أسيا العثمانية) توصي بالاستناد إلى مبدأ القوميات ليترتب على هذا الاعتراف بالحجاز كدولة ذات سيادة تحت الإشراف البريطاني ووضع فلسطين تحت الحماية البريطانية وتتولى فرنسا المصالح الكاثوليكية وتدويل القدس وبيت لحم مع اعتراف فرنسا بالأرمن في الشمال والعرب في الجنوب، وكتب في مذكرته "إنني أريد أن أرى وفاقاً أنجلو - فرنسياً مستديماً متحالفاً مع اليهود ومع العرب ومع الأرمن ومن شأن هذا الوفاق أن يجعل نزعة الجامعة الإسلامية غير مؤذية وأن يحمي الهند وأفريقيا من المناورات التركية - الألمانية".

ثم يدعم سايكس فايتسمان بمذكرة أكثر وضوحاً في أوائل تشرين الأول/أكتوبر وذلك بعد حصول الأخير على دعم أميركي وبريطاني كنتاج لدراسة الألمان إصدار تصريح يعود عليهم بدعم يهود أميركا وروسيا ويكتب في هذه المذكرة "إن الصهاينة لا يريدون القدس ولا الأماكن المسيحية والإسلامية المقدسة ولا يسعون إلى إقامة دولة يهودية ما يريدونه هو حكم ذاتي قومي يجمع اتحاد

فيدرالي وحداتهم المختلفة ويكون مفتوحاً لجميع المستوطنين اليهود، واستناداً على هذه المذكرة وبعد الكثير من الشد والجذب والاتصال بشخصيات يهودية حول العالم وبالأخص في أميركا وروسيا انعقدت في ٣١ أكتوبر ١٩١٧م لجنة لبحث ملف مستقبل فلسطين في وزارة الخارجية البريطانية ولم يبدِ هناك معارضة لفكرة الوطن القومي لليهود تحت الحماية البريطانية سوى اللورد كرزون ليواجهه بلفور مدعوماً بمذكرة سايكس التي ورد بها "أما فيما يتعلق بالمقام القومي فإنه يتعين فهمه على أنه يعني شكلاً من أشكال الحماية يمارسه البريطانيون أو الأميركيون أو أمة أخرى، ويحصل اليهود بفضلها على إمكانات العمل على خلاصهم، وإمكانات بناء مركز حقيقي للثقافة وللحياة القوميتين عبر التعليم والزراعة والصناعة ولا يعني هذا بالضرورة الإقامة الفورية لدولة يهودية قد تنبثق تدريجياً بحكم القوانين العادية للتطور السياسي"، وهكذا وعند خروج سايكس من الاجتماع يخاطب فايتسمان الذي كان على مقربة قائلاً "دكتور فايتسمان مبروك، جالك ولد".

بعدها بيومين في ٢ نوفمبر ١٩١٧م يوجه بلفور وعده الشهير لروتشيلد وعد كان سايكس الحاضر دائماً في كل اللحظات المصرية هو صائغه وعرابه والمسؤول عنه، فالرجل الذي مازالت الخطوط التي رسمها على رمال الشرق الأوسط تشعل الحرائق وتثير النزاعات هو أيضاً واضع التصور القومي لدولة إسرائيل بشكلها الحالي وهو واضع نظرية الوفاق الذي مازالت القوى الغربية تحلم به فيما يختص بالمنطقة حتى اليوم، شرق أوسط يتحالف فيه اليهود مع العرب والأرمن والأكراد في وفاق مع القوى المسيطرة على عالمنا ليحمي هذا الوفاق مصالحها وتطلعاتها الأولى على الأرض بعد الاتفاق، وكانت الخطوة لتجهيز فلسطين لتحتضن بذرة الوطن القومي في ديسمبر ١٩١٨م عندما قابل لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني نظيره الفرنسي كليمنصو بعد وقف إطلاق النار واستقواء البريطانيين بنصرهم وبوجودهم على الأرض وسأله كليمنصو ماذا تريد؟ فرد جورج الموصل.

وكان جواب كليمنصو ستحصل عليها هل هناك شيء آخر؟ فرد جورج نعم أريد القدس.

ووافق كليمنصو الذي قال لنظيره أنتم تتعاملون مع فرنسا منذ بدء الهدنة كأنها عدو لكم، وكان جواب لويد جورج ألم يكن هذا هو الحال دائماً! في إشارة منه إلى المنافسة التاريخية بين البلدين لتحصل بريطانيا على فلسطين وبتترول العراق وتأمين القناة ويحصل الصهاينة على فرصة إقامة كيانهن وتظل مقولة سايكس التي تربط وجود الكيان الصهيوني بتقدم وتطور الشرق الأوسط

قاعدة في السياسة الغربية على مدى عشر عقود.

ويأتي ترامب الآن محاولاً أن ينحت خطه الطموح على رمال المنطقة بإعادة اقتراح الوفاق القومي الذي رآه سايكس منذ أكثر من مئة عام والذي عكفت كل المؤسسات الثقافية الغربية طوال العقود الماضية على محاولة إدخاله في الذهنية العربية وعلى شره وإرساء قواعده على نفس قاعدة حق الشعوب في تقرير مصيرها! وليعترض المعترضون وليوافق الموافقون، ويبدو الخلاف على التوقيت وما إذا كانت الأرض ممهدة بما فيه الكفاية لكن تجمع كل الأطراف على أن بقاء إسرائيل كدولة يهودية قومية خالصة هو ضرورة لحفظ مصالح أوروبا وأميركا في الشرق الأوسط سواء أقامت دولة واحدة على أرض فلسطين أو دولتين.

المراجع:

1. جورج أنطونيوس — يقظة العرب - تاريخ حركة العرب القومية — ترجمة ناصر الدين الأسد — دار العلم للملايين - بيروت ط ٨ - ١٩٨٧م.
2. هنري لورنس — مسألة فلسطين المجلد الأول (١٧٩٩م - ١٩٢٢م) — ترجمة لييب السباعي - المركز القومي للترجمة ط ١ - ٢٠٠٩م.
3. Mark Sykes - The Caliphs Last heritage - New York, Arno Press, 1973.
4. Bruce Westrate - The Arab Bureau, British Policy in the Middle East, 1916 -1920 - University Park, Pennsylvania - The Pennsylvania state University Press, 1992.
5. James Barr - A line in the sand, Britain- France struggle for the mastery of the Middle East - London, Simon and Schuster, 2011.
6. Sadia Mcevoy - The Construction of Ottoman Asia and its Muslim Peoples in wellington house - Propaganda Associated Literature (1914 -1918) - Degree of Doctor of Philosophy - King's College London 2016.
7. Martin Kramer -Sykes Picot and the Zionists - 100Years since the Sykes Picot Agreement Conference - Jerusalem Center for public affairs, 18May 2016.
8. Los Angeles Times - Trump and Netanyahu side step two state solution from Middle East peace in their first summit -Issue1, 15-Feb 2017.

سيل من مشاريع الحلول الاسرائيلية للقضية الفلسطينية لاستبدال حل الدولتين التقليدي

نظير مجلي*

«أنا اعرف أنك رجل قوي. زعيم حقيقي لشعبك. وكلي ثقة بأنك ستكون معي شريكا لصنع السلام، الذي يساعد المعتدلين ويضعف المتطرفين في الشرق الأوسط»، بهذه الكلمات خاطب الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، رئيس الحكومة الاسرائيلية، بنيامين نتنياهو، خلال لقائهما في البيت الأبيض. وحسب براك ربيد، محرر الشؤون السياسية في صحيفة «هآرتس»⁽¹⁾، فإن كلمات زعيم البيت الأبيض تركت أثرا غير عادي لدى نتنياهو. فمثل هذه الكلمات لم تقل له أبدا في السنوات الأخيرة، لا في واشنطن ولا في تل ابيب ولا حتى في ديوانه الرئاسي. ولكنه عندما عاد من الزيارة وبدأ يتلقى الأسئلة الأميركية، وصار يقرأ سيل «مشاريع الحلول» التي يطرحها قادة اليمين الاسرائيلي لاستبدال حل الدولتين «الذي لم يعد واقعا»، كما يقولون، بدأ نتنياهو يتخبط. وعندما حضر المبعوث الأميركي، جيسون غرينبلات، ليستفسر عن «الحلول الفورية التي تقترحها في موضوع المستوطنات، وما تحتاجه للحفاظ على ائتلافك الحكومي وما تقترحه حتى لا يفسره العرب على انه إجهاض لحل الدولتين»، لم يعد يعرف نتنياهو ماذا يفعل.

ويكتب رابيد، نقلا عن وزير كبير في الحكومة الاسرائيلية، ممن يكثرون زيارة ديوان رئيس الوزراء: «نتنياهو يتعرض الى ضغط كبير من قبل ترامب في موضوع المستوطنات. لقد قال ترامب لنتنياهو

* باحث فلسطيني

- قل ما هي احتياجاتك في موضوع المستوطنات وما هو الذي يمكن ان تفعله من اجل كبح البناء فيها. لقد دخل نتنياهو الى زاوية لا يعرف كيف يخرج منها. وهذا هو، ايضا، السبب الذي جعله يلغي سفره الى مؤتمر اللوي الاسرائيلي الأميركي «ايباك» في واشنطن، في نهاية الشهر (آذار ٢٠١٧). فليس لديه ما يعرضه على ترامب حاليا. الشعور الذي خرجت به هو انه بدأ الحنين لأوباما»^(٢) لكن حلفاء نتنياهو ورفاقه في الليكود، لا يعيشون أزمة زعيمهم. ولا يدرون بها. إنهم ما زالوا يعيشون سكرة انتصار ترامب ولا يدركون الفرق بين تصريحاته قبيل وفي خضم معركة الانتخابات وبين ممارساته وأقواله بعد دخوله البيت الأبيض. نسوا ما كان قاله زعيمهم الأسبق، أريئيل شارون، عندما ترك صفوف المعارضة وتولى رئاسة الوزراء، في سنة ٢٠٠١: «ما تراه من هنا لا تراه من هناك»^(٣).

وقد يكون من الأصح أن نقول إن نتنياهو جعلهم ينسون ما قاله وفعله شارون وما سبقه إليه مناحم بيغن، الذي حارب وهو في المعارضة أية فكرة سلام ثم عندما صار رئيسا للحكومة انسحب من كل سيناء ودمر المستوطنات فيها واعترف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في اطار حكم ذاتي»، واسحق شمير، الذي كان أحد زعماء الارهاب اليهودي في فلسطين في زمن الانتداب ولم يؤيد اتفاقيات السلام مع مصر ثم عندما صار رئيسا للحكومة امتنع عن الرد على قصف اسرائيل بالصواريخ العراقية ثم ذهب الى مؤتمر مدريد للسلام، ونسوا وينسون ايهود اولمرت، أبو عملية التهويد في القدس الشرقية الذي عرض خطة سلام على اساس دولتين تكون القدس الشرقية فيها عاصمة لفلسطين.

فقط نتنياهو حاد عن هذه القاعدة، منذ ان تولى رئاسة حكومته الثانية في سنة ٢٠٠٩ وحتى اليوم، ويتمسك في سياسته اليمينية الرفضية ولا يتيح أي تحرك في مسيرة السلام. وهو وإياهم يؤكدون ان الوضع العربي والفلسطيني بات مثاليا لمواصلة الوضع القائم، «فالعرب منشغلون في أحوالهم وحرورهم الأهلية، دمرت جيوشهم والفلسطينيون ممزقون في الانقسام». وقد جاء الرئيس ترامب بتصريحه الشهير بأنه «لا يهم دولة او دولتان»، ليحيي في نفوسهم الأمل القديم بتصفية القضية الفلسطينية تماما وإلغاء فكرة ازالة الاحتلال.

ولذلك، وخلال بضعة أسابيع من تسلّم ترامب الحكم، انهمرت على الساحة السياسية الاسرائيلية مشاريع حلول لتسوية الصراع تكون بدائل لحلّ الدولتين المألوف. وقد اصبحت هناك سبعة مشاريع مقترحة، حتى الآن، بعضها من اليمين المتطرف وبعضها من اليسار الراديكالي وبعضها من الوسط.

كونفدرالية

من أبرز هذه المقترحات، ما طرحه أبرهام بورغ، وهو الرئيس الأسبق للكنيست والرئيس الأسبق للوكالة اليهودية، الذي يطرح أفكارا لتجديد المشروع الصهيوني واستبداله بمشروع اسرائيلي مبني على السلام والمساواة الكاملة والديمقراطية الحقّة. وقد اختار بورغ أن يعلن مشروعه لأول مرة في رام الله بالذات، أمام الرئيس الفلسطيني، محمود عباس^(٤).

ويسعى بورغ إلى رؤية دولة يحظى جميع مواطنيها بتساو مطلق في الحقوق، وإلى دولتين تستطيع القوميات المختلفة فيها الحصول على تعريف مستقل لذاتها. ولكن هذه الدولة، على العكس مما يسعى إليه الداعون إلى خطة الفصل من اليسار واليمين، بحسب رؤية بورغ، تعيش في كونفدرالية بين دولة إسرائيل ودولة فلسطين المستقلة، وبذلك، فإن رؤيا «نحن نعيش هنا وهم يعيشون هناك» لن تكون حاضنة لتخليد الصراع، بل ينبت مكانها تعاون حقيقي بين الشعبين.

والفرضية المركزية عند بورغ هي: أفضل الحلول هو إقامة دولة فلسطين إلى جانب إسرائيل، تعيش بسلام معها وتكون حدودها هي حدود العام ١٩٦٧، وعاصمتها القدس الشرقية، باعتبارها دولة حرة، مستقلة، وذات سيادة، وهي الدولة القومية للأمة الفلسطينية. ولكن طالما توجد له هذه المعارضة الواسعة، فإن حل الدولتين لم يعد كافيا ويصبح «شديد البساطة والسطحية». وبدلا من ذلك يقترح بورغ إضافة عدة دعائم إلى حل الدولتين: «إن فكرة دولة واحدة هي مجرد طبقة أولية من هذا الحل. ونحن بحاجة، عمليا، إلى العديد من الطبقات الأخرى، كما أننا بحاجة، في أسفل هذا المبنى كلّ، الى بنى تحتية مختلفة»، حسبما يقول ويضيف: «ينبغي علينا أن نحدد مبدأ يقول بأن يحظى كل إنسان يعيش بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط بالحقوق ذاتها والحريات ذاتها. فوق ذلك كله ستكون هناك طبقة نطلق عليها اسم الدولتين - دولة فلسطينية ودولة إسرائيلية- وفوق هذه الطبقة ستكون هناك طبقة أخرى فوق دولية، شكل من أشكال الفيدرالية، يتم تنسيقه بين الدولتين، لكي يتحول أي عنصر من عناصر الاحتكاك إلى عنصر للاستكمال، والتنسيق، والتفاهم».

إن هذا المبنى الثلاثي، بحسب أقوال بورغ، قادر على منح فرص حل النزاع. وينبغي ان تدار المفاوضات بين دولة إسرائيل ودولة فلسطين في شأن الفيدرالية، بين شريكين متساويي الحقوق، من دون ضغوطات، وبشكل عادل. ويتابع: «إن هذا البديل يعد جسرا يصل بين ثلاث رؤى متعارضة: تواصل الأزمة، دولتان لشعبين، أو دولة واحدة. فعبّر هذه الرؤية الوحدوية الكونفدرالية سيكون بإمكاننا التوصل إلى توافقات واسعة النطاق وأكثر عمقا مما نعرفه حتى اليوم».

٣٠ كانتونا

هناك اقتراح ثان يطرحه عمانوئيل شاحف، أحد كبار ضباط «الموساد» (جهاز المخابرات الخارجية) السابقين، والذي أقام حركة خاصة بهذا المشروع تدعى «حركة الفدرالية»^(٥) فيقول: إن إعلان دونالد ترامب: «دولة واحدة أو دولتان، كما تشاؤون، يمنحنا الأمل». علينا ان نسعى إلى «تقسيم أرض إسرائيل (فلسطين التاريخية) إلى فيدرالية مكونة من ثلاثين كانتونا، على النحو التالي:

٧ كنتونات في الشمال (الجليل الأعلى) و٦ كنتونات في الشمال الغربي (الجليل الغربي والساحل) و١١ كانتونا في الشرق (الضفة الغربية والمثلث وتل ابيب يافا) و٦ كانتونات في الجنوب (النقب).

ويقول: «هذه الفكرة تمنح إسرائيل، وللمرة الأولى، شرعية من أجل التوصل إلى حل صحيح للصراع مع الفلسطينيين: فرض القانون الإسرائيلي على أرض إسرائيل بأكملها، بما يشمل يهودا والسامرة (الضفة الغربية)، باستثناء غزة، منح حقوق المواطنة لسكان يهودا والسامرة العرب، وتحويل إسرائيل إلى ديمقراطية فدرالية تقدمية. إن مفتاح هذا الحل هو منح الحكم المستقل الإقليمي لكل قطاع في أرض إسرائيل وتحويلها إلى فدرالية على غرار الولايات المتحدة، سويسرا، بلجيكا، ودول أخرى متطورة في العالم. إنها دولة سيكون بإمكان اليهود والعرب إدارة شؤونهم فيها بأنفسهم وتحقيق هويتهم الثقافية تحت المظلة الأمنية التي يوفرها الجيش الإسرائيلي، وتحت المظلة الاقتصادية التي يوفرها الاقتصاد الإسرائيلي الحداثي والمتقدم».

ووفق هذا الاقتراح، يتم الإبقاء على المستوطنات في الضفة الغربية على حالها، وإبقاء الجيش الإسرائيلي باعتباره القوة العسكرية الوحيدة بين البحر والنهر، باستثناء قطاع غزة. وبحسب هذا البرنامج سيتم تقسيم البلاد كلها إلى ثلاثين كانتونا، أي ثلاثين مقاطعة مستقلة تدير شؤونها الداخلية بحسب

حاجاتها وبحسب آرائها. ويكون لكل كانتون حكومة ومجلس خاص به، تدير المسائل التشريعية وتسن القوانين المحلية وتدير شؤون التعليم، السلطة المحلية، الخدمات الشرطة، التخطيط والبناء والإسكان، في وقت تقوم فيه الحكومة الفيدرالية بإدارة شؤون الأمن، الخارجية، والاقتصاد العام. وبحسب هذا البرنامج، سيتم توسيع الكنيست الإسرائيلي، وإلى جانب المجلس التشريعي القائم، سيقام مجلس آخر، يشبه البيت الأعلى، يمثل الكانتونات. بحسب أقوال شاحف، فإن الفلسطينيين عبر هذا الحل سيكونون قادرين على تحقيق تطلعاتهم القومية في إطار الكانتونات. سيتم إطلاق اسم إسرائيل على الدولة الفيدرالية، لكن الكانتونات التي ستشمل أغلبية عربية ستكون قادرة على رفع علمها العربي الخاص بها. وفوق كل هذا فإن الـ «هتكفا» [النشيد الوطني الإسرائيلي، الذي يتحدث عن أشواق اليهود إلى بناء وطن قومي لهم في «أرض صهيون»] سيكون هو النشيد الوطني للجميع. بالإمكان تطبيق برنامجنا باتفاقية أو بدونها»، يقول شاحف، مضيفاً بأن خمسين شخصية يقودون تطوير هذا الاقتراح، كما أن عضو الكنيست يهودا غليك (الليكود) هو واحد من مؤيدي هذا المشروع.

وطن واحد لدولتين

وهناك اقتراح ثالث يطرح منذ سنوات، ويقوم هذه الأيام بإعادة الترويج له بسبب الباب الموصود أمام حل الدولتين التقليدي. وهو: «دولتان، وطن واحد». وقد أطلق فكرتها مجموعة من الشخصيات الاسرائيلية والفلسطينية. وهم يقترحون إقامة كونفدرالية بين إسرائيل والدولة الفلسطينية على أساس حدود ١٩٦٧، وضمن حرية الحركة والمؤسسات المشتركة. وتظل المستوطنات تحت السيادة الفلسطينية، وسيكون بإمكان المستوطنين الحفاظ على جنسيتهم الإسرائيلية، كما أن عددا موازيا من سكان فلسطين سيكونون قادرين على السكنى في إسرائيل تحت المسمى المدني «سكان» [أي بدون جنسية، ولكن مع حق السكن والعمل].

وقد ولدت هذه المبادرة قبل نحو خمسة أعوام بعد سلسلة من اللقاءات، أجراها الصحافي الإسرائيلي ميرون رابابورت والناشط السياسي الفلسطيني عوني المشني، ابن مخيم الدهيشة. بحسب البرنامج المذكور، سيتم تحديد الحدود بين الدولتين، وفق خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧، وإنهاء حالة الاحتلال بشكل نهائي. ستكون الدولتان ديمقائيتين، وسيكون نظام الحكم فيهما مؤسسا على مبدأ

سيادة القانون والاعتراف بمبادئ حقوق الإنسان المتعارف عليها، كما تمت صياغتها في قواعد القضاء الدولي، مؤسسة على قيم المساواة، الحرية، وقدسية حياة الإنسان. ستمنح الدولتان، بحسب هذا البرنامج، الحق في تحديد طبيعة الهجرة إلى أراضيها إلى جانب قوانين التوطين فيها. وبذلك، فإن فلسطين ستكون حرة في توطين اللاجئين الفلسطينيين، أما اسرائيل فستكون حرة في توطين جميع يهود المهجر، بحسب رؤية كل منها. وستكون الدولتان ملتزمتين برؤيا الأرض المفتوحة، حيث سيُضمن لسكان الدولتين الحق في التحرك والسكنى في كل أنحاء البلاد.

كما تقول الخطة بأن السكان الدائمين الإسرائيليين في فلسطين، سينفذون حق التصويت الخاص بهم في إسرائيل داخل فلسطين، كما أن القدس ستكون عاصمة للدولتين، وسيكون الفلسطينيون مواطنين فلسطينيين وسكان الدولة الإسرائيليين مواطنين إسرائيليين. ويقترح هذا البرنامج أيضا، منظومات مشتركة لتحقيق التصالح بين الشعبين، ومن ضمنها إقامة لجان مصالحة مشتركة، تتيح مناقشة أكثر عمقا وأكثر استكمالا للظلم الذي مورس في الماضي من قبل الطرفين، كما ستتم بلورة برامج مشتركة بهدف تحقيق التصالح على مستوى المجتمعات، والمناهج التعليمية والمؤسسات الثقافية. ومن أجل تحقيق اتفاقية المصالحة، ستقام هيئة دولية، تكون مقبولة من الطرفين، حيث سيتم تمثيل جهات عديدة من ضمنها جامعة الدول العربية، الإتحاد الأوروبي، والأمم المتحدة. هذه الهيئة ستكون داخلية في عمليات تطبيق مخطط «دولتان، وطن واحد» و ستتاح أمامها فرصة التمثيل الدبلوماسي، والقضائي، والاقتصادي.

دولة أبرتهايد

يطرح عضو الكنيست السابق من الجناح المتطرف في حزب الليكود، موشيه فيغلين، قائد حركة «زهوت» (هوية)، مشروع الدولة الواحدة، على النحو التالي: فرض السيادة الاسرائيلية الكاملة على كافة مناطق فلسطين، منح توصيف «سكان» يشمل حقوق الإنسان كاملة لجميع الفلسطينيين ولكن من دون حقوق سياسية كالانتخاب للكنيست مثلا. ويطرح برنامج تشجيع لهجرة السكان العرب، اقتصاديا، ممن سيكونون مستعدين للهجرة إلى دولة أخرى، وفتح مسار تلقي حق المواطنة لمن يربط مصيره بمصير دولة إسرائيل ويعلن ولاءه لها ويثبت هذا الولاء بالخدمة العسكرية في الجيش.

حكم ذاتي

يقترح عضو الكنيست اليميني المتطرف، يوآف كيش (من حزب الليكود) مخططا يرتكز على برنامج الحكم الذاتي، الذي اقترحه رئيس الحكومة الأسبق مناحيم بيغن، خلال مؤتمر كامب ديفيد مع الرئيس المصري انور السادات والرئيس الأميركي جيمي كارتر في العام ١٩٧٩.

ويتطرق البرنامج إلى أراضي الضفة الغربية والقدس، ولا يشمل قطاع غزة. وهو يلغي إمكانية إقامة دولة فلسطينية، ويسعى إلى إلغاء إتفاقيات أوسلو، كما أنه مكون من عدة مراحل. ففي المرحلة الأولى، سيتم فرض السيادة الإسرائيلية على الضفة، باستثناء أراضي الحكم الذاتي التي ستمنح للفلسطينيين، كما تشمل هذه المرحلة إلغاء إتفاقيات أوسلو، وتفكيك السلطة الفلسطينية وتفكيك الإدارة المدنية والعسكرية الإسرائيلية في الضفة. وتشمل المرحلة الثانية إقامة نظام الحكم الذاتي، حيث ستتم إعادة تأهيل مخيمات اللاجئين، وستسعى إسرائيل إلى تحقيق سلام اقتصادي، وحل قضية القدس. وموجبها، فإن أي عربي يقطن في المناطق التي تقع خارج دائرة الحكم الذاتي، سيكون قادرا على الاختيار ما بين حق السكن [الذي لا يعني المواطنة] الإسرائيلية أو الـ«جنسية» التابعة لسلطة الحكم الذاتي. وفي حال قرر الشخص المعني ممارسة حق السكن في إسرائيل فسيكون بإمكانه السعي للحصول على الجنسية الإسرائيلية. أما في حال اختار حق السكن في منطقة الحكم الذاتي، فسيتم اعتباره كأحد سكان منطقة الحكم الذاتي ولكنه يقطن في إسرائيل.

وفي المرحلة الثالثة، ستسعى إسرائيل إلى تسوية سياسية إقليمية، توفر ردا أيضا على قضية الوضع السياسي للمواطنين العرب الساكنين في مناطق الحكم الذاتي. وستتمد مساحة الحكم الذاتي على أراض تبلغ مساحتها نحو ٣٨٪ من أراضي الضفة الغربية، وهي المناطق التي لا توجد فيها اليوم مستوطنات يهودية. كما سيتيح هذا البرنامج حق الإدارة الذاتية القصوى للسكان المحليين، وستدار على يد مجلس إداري ينتخبه السكان المحليون. ويكون الأمن في مناطق الحكم الذاتي في يد السلطة الإسرائيلية، وسيتم حفظ حرية التنقل والعبادات لأبناء الديانات جميعا في أماكنهم المقدسة. وبحسب أقوال عضو الكنيست كيش، فإن «عهد ترامب يحمل في طياته نافذة من الفرص لتطبيق هذا البرنامج. فهذا البرنامج لا يدعي عدم إمكانية الحل الكامل في هذا الوضع، إلا أنه يضع أفقا ورؤيا جديدة، ويحافظ على المصالح الحيوية لإسرائيل في هذه الغابة الشرق أوسطية في أيامنا هذه».

الدولة الواحدة

يطرح هذا المشروع قادة الجناح اللبرالي لليمين الاسرائيلي، الذين لا ينتظمون في كتلة أو حزب أو تنظيم، لكنهم ذوو حضور سياسي في حزب الليكود بالأساس. وأبرزهم هو البروفسور موشيه ارنس، الذي شغل عدة مناصب مهمة في حكومات اسرائيل، وبينها وزير الدفاع، ووزير شؤون الأقليات، وسفير اسرائيل في واشنطن. ويؤيده في ذلك رئيس الدولة الحالي، رؤوبين رفلين، ووزير شؤون المخابرات السابق، دان مريدور، وعضو الكنيست الحالي، بيني بيغن، ووزير السياحة الأسبق، روني ميلو، وغيرهم.

وينص المشروع على تحويل أرض اسرائيل (فلسطين) إلى دولة واحدة من دون قطاع غزة، يعيش فيها المواطنون اليهود والعرب بمساواة كاملة، بما في ذلك الترشح للكنيست والتصويت، والتمتع بالجنسية الاسرائيلية. ولكن هذا المشروع وفق خطة تدريجية. ففي البداية يتم بناء جسور الثقة، بحيث تتم عملية نهوض اقتصادي في المناطق العربية لجسر هوة التمييز المتبع حاليا. ثم تجري انتخابات محلية مع منح صلاحيات أوسع من الصلاحيات البلدية، مثل شرطة بلدية وقوات أمن داخلي. ثم يجري ضم مناطق معينة الى الانتخابات العامة، تتطور وتتسع شيئاً فشيئاً، ريثما تنضج فكرة التعايش المشترك ويصبح ممكناً تحديد مدة ٢٠ - ٣٠ سنة حتى تصبح هذه دولة متكاملة الحقوق.

وتنص هذه الخطة على عرض حل لقضية اللاجئين بتوطينهم حيثما يتواجدون اليوم أو يتم ايجاد حلول أخرى في دول يمكنها التجند للفكرة، مثل كندا (التي كانت قد أبدت استعدادها لاستيعاب ١٠٠ ألف فلسطيني) واستراليا والدول العربية.

خطة هرتسوغ

ويعرض رئيس حزب «المعسكر الصهيوني» المعارض، النائب يتسحاق هرتسوغ، خطة قال إن سببها يعود الى قيام ننتياهو، بإضاعة الفرصة التاريخية التي سنحت لصنع السلام بين اسرائيل والعرب، خلال لقاء القمة مع كل من الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي، والملك الاردني عبد الله، ووزير الخارجية الأميركي جون كيري، والتي عقدت قبل سنة بشكل سري وتم الكشف عنها في مطلع آذار ٢٠١٧^(١).

وقد عرض هرتسوغ خطة من عشر نقاط، تعتمد الحلول المرحلية. جاء فيها:

١- يجب العمل على اعادة المصادقة على التزام الاطراف والمجتمع الدولي بالهدف النهائي لحل يقوم على انشاء دولتين تعيشان الى جانب بعضهما بأمن وسلام.

٢- على الاطراف تحديد فترة مداها عشر سنوات، يتم خلالها التحديد بأن الاراضي الواقعة الى الغرب من الأردن هي منطقة بدون عنف على مختلف انواعه. يتم الاتفاق على تطبيق مشترك للقانون وفرض عقوبات لا هواده فيها ضد كل انواع الارهاب والتحرير. ويتخذ مجلس الامن قرارا بهذا الشأن ويشرف مباشرة على تطبيقه.

٣- تتحرك الاطراف خلال هذه الفترة نحو تطبيق حل الدولتين. اسرائيل تواصل التقدم في اجراءات الانفصال عن الفلسطينيين، من خلال استكمال بناء الجدار الذي سيحمي القدس والمستوطنات، اقامة جدار بين القدس والقرى الفلسطينية القائمة حول القدس، وكذلك من خلال نقل صلاحيات اخرى للفلسطينيين على الأرض، بما في ذلك نقل صلاحيات مدنية للفلسطينيين في اجزاء من المناطق C، وذلك من اجل ضمان تطوير عمراني فلسطيني بين البلدات المجاورة للجدار والمدن الفلسطينية الكبرى. تماما بشكل يختلف عما يطالب به بينت.

٤- تجمد اسرائيل البناء خارج الكتل الاستيطانية وتمتنع عن أي نشاط يغير الواقع على الارض في هذه المناطق، الا للاحتياجات الأمنية، من اجل ضمان تحقيق حل الدولتين.

٥- في المقابل يتم تسريع التطوير الاقتصادي الفلسطيني بشكل دراماتيكي، بواسطة آليات اقليمية ودولية، بما في ذلك التطوير العمراني، ترميم مخيمات اللاجئين والتطوير الاقتصادي والصناعي المستدام. الفلسطينيون من جانبهم يعملون على منع الارهاب والتحرير، وكذلك العمل على بلورة اتفاق فلسطيني قومي واسع على المستوى الداخلي، يشمل كل مناطق الضفة وغزة، تحت سيادة واحدة. اذا فعلوا ذلك، سيحق لهم الاعلان عن دولة داخل حدود مؤقتة، ويكون من الواضح انه سيتم تحديد حدودها النهائية في الاتفاق. وتدرس اسرائيل بالاجاب الاعتراف بالدولة الفلسطينية، وتعلن بأنها تعتبرها شريكا لتطبيق الحل الدائم والنهائي.

٦- يواصل الجيش الاسرائيلي العمل في كل مناطق الضفة، حتى حدود نهر الاردن، وحول قطاع

غزة. يتواصل التعاون الامني مع السلطة الفلسطينية واجهزتها، بقوة اكبر.

٧- تعمل الاطراف على اعادة اعمار غزة، بما في ذلك اقامة ميناء، بما يتفق مع الترتيبات الأمنية المتشددة، نزع السلاح بشكل كامل وتدمير الانفاق.

٨- بعد مرور الفترة المحددة، وعلى افتراض ان المنطقة لن تشهد العنف خلال هذه السنوات، يتم البدء بالمفاوضات المباشرة بين الاطراف، بدعم من دول المنطقة والمجتمع الدولي. بدون شروط مسبقة، كمتساوين مقابل متساوين، بجدية واصرار، وبتحرك نحو اتفاق سلام كامل ونهائي، من اجل تسوية كل المسائل التي ستبقى موضع خلاف، بما في ذلك تحديد الحدود الدائمة، وحل المسائل الجوهرية ووضع حد للمطالب والصراع.

٩- دول المنطقة تدعم كل الخطوات على الملأ وبكامل القوة، كجزء من عملية اقليمية واسعة ودرامية. اسرائيل تبادر الى اقامة مؤسسات شرق اوسطية مشتركة، تعمل على تطوير المنطقة والتعاون في مجالات مختلفة، من بينها الامن، الاقتصاد، المياه، وتنقل البضائع والعمل، وتقتراح بأن تكون القدس مركزا لهذه المجتمعات الاقليمية.

١٠- في الوقت الذي تحدث فيه عاصفة قوية من حولنا، ويصبح خطر فقدان دولة اسرائيل كدولة قومية لنا، مسألة ملموسة في المستقبل، يجب تحريك عملية جديدة، مدروسة وواقعية لتطبيق حل الدولتين.

المهم

القاسم المشترك الذي يجمع بين كل هذه المشاريع هو أنها تقوم على الشعور بان حل الدولتين التقليدي وصل الى الباب الموصود. بعضهم فرح بذلك وبعضهم حزين. بعضهم يراها فرصة سانحة وبعضهم يرونها «محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه». والأهم، هو ان الجميع توصلوا الى قناعة بأن حكومة بنيامين نتنياهو لن تقود الى الحل على أساس دولتين. وهذا في وقت، ما زال فيه ٥٩% من الاسرائيليين يؤيدون هذا الحل، بمن في ذلك ٤١% من مصوتي حزب الليكود الحاكم^(٧).

هوامش

- ١ - صحيفة «هآرتس» ١٧ آذار ٢٠١٧
- ٢- المصدر نفسه
- ٣- تصريح شارون عندما حاول اقتناع الجمهور بصحة موقفه في الانسحاب من قطاع غزة وتدمير جميع المستوطنات ولماذا قام بتغيير أفكاره حول القضية الفلسطينية لأن مسؤوليته كرئيس حكومة تحتم عليه رؤية الأمور بمنظار آخر. كتاب «الأمر التي تراها من هنا - ما الذي يصيب قادة اليمين عندما يصلون الى السلطة»، ص ٣٦٥، أريه إلداد، تل أبيب، دار النشر كنيرت، ٢٠١٦
- ٤- اللقاء تم في يوم ١٧ شباط ٢٠١٧ في المقاطعة ونشر نص المبادرة في اليوم التالي في الصحف الاسرائيلية
5 - <http://www.federation.org.il/index.php/he/>
- ٦ - عرضها في مقال له نشر في صحيفة «هآرتس» يوم ٢٣ شباط ٢٠١٧
- ٧ - حسب استطلاع رأي نشره معهد أبحاث الأمن القومي في تل أبيب، ونشره خلال مؤتمره السنوي في كانون الثاني ٢٠١٧

دونالد ترامب:
التحديات عربيا ودوليا

د. صائب عريقات

الرئيس دونالد ترامب: التحديات عربياً ودولياً

د. صائب عريقات*

دراسة قدمها د. صائب عريقات أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، عضو مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات، في المنتدى الفكري الذي عقد في القاهرة مصاحباً لاجتماعات مجلس أمناء المؤسسة في ٢٠١٧/٢/٢٣.

المحتويات

أولاً: المقدمة.

ثانياً: مفاهيم الرئيس ترامب

ثالثاً: مفاهيم خطابات التنصيب للرؤساء جون كيندي، جورج بوش الأب، باراك أوباما.

رابعاً: اميركا أولاً - اقتصادياً.

خامساً: السياسة الخارجية الأمريكية المتوقعة لإدارة الرئيس ترامب، وخاصة عملية السلام الفلسطينية - الإسرائيلية.

سادساً: التوصيات.

* أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

أولاً: المقدمة:

لم تمض سوى عدة أسابيع على تنصيب الرئيس دونالد ترامب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، حيث ادى اليمين الدستوري ليصبح الرئيس ٤٥ في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية يوم ٢٠١٧/١/٢٠. لذلك فإنه من السابق لأوانه اطلاق الأحكام على رئاسة الرئيس ترامب دولياً وعربياً، فالإدارة الجديدة لا زالت قيد التأسيس، وما طرحه الرئيس ترامب أثناء الحملة الانتخابية، لا شك وأنه سوف يختلف عما سوف يطرحه الرئيس ترامب كرئيس.

وإن كان يحرص دائماً على القول أنه يفني بعوده، وأنه رئيس مختلف وبرنامج مختلف ورؤية مختلفة عما سبقه من رؤساء.

في أول اسبوعين لتسلم الرئيس ترامب لدفة الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية، أعلن تمسكه ببناء جدار مع المكسيك، على أن تدفع المكسيك تكلفة البناء، حيث ثارت مشكلة كبيرة أثناء المكالمات الأولى للرئيس ترامب مع الرئيس المكسيكي انريكي بينا نيتو، كذلك كان الحال بالنسبة للمكالمة الهاتفية مع الرئيس الفرنسي فرنسوا هولاند، والمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، ورئيس وزراء استراليا مالكوم ترنبول.

صحيفة واشنطن بوست وفي عددها الصادر يوم ٢٠١٧/٢/٥، أشارت أن ما تحدث به الرئيس ترامب مع الرئيس المكسيكي بينا نيتو، كان فظاً للغاية، وكذلك فعل مع رئيس وزراء استراليا حول قضية قبول الرئيس الأمريكي السابق براك أوباما للاجئين من الشرق الأوسط وصلوا إلى استراليا إلى أميركا.

ولم تقل المكالمات مع الرئيس الفرنسي والمستشارة الألمانية حدة حول روسيا وحلف شمال الأطلسي (الناتو).

الاستثناء في هذه المكالمات كان مع الرئيس الصيني جينغ بينج حيث أوردت صحيفة الفايننشال تايمز في عددها الصادر يوم ٢٠١٧/٢/١٠، حيث أكد الرئيس ترامب للرئيس جينغ بينج التزامه «بسياسة الصين الواحدة».

«One China Policy»

الأمر الذي وصفته وزارة الخارجية الصينية بأنه أمر جيد جداً.

جاء لقاء الرئيس ترامب مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنجامين نتنياهو في واشنطن يوم ٢٠١٧/٢/١٥، حيث قال الرئيس ترامب في المؤتمر الصحافي المشترك الذي عقد في البيت الأبيض: « دولتان أو دولة واحدة لا يهم، أنا أؤيد ما يتم الاتفاق عليه من الطرفين»^٢، جاء ذلك للمحللين وكأنه تراجع إدارة الرئيس ترامب عن حل الدولتين، خاصة وأن هذا التصريح جاء بعد تعيين المحامي ديفيد فريدمان سفيراً لأميركا في إسرائيل، وهو مؤيد للاستيطان الاستعماري الإسرائيلي ومعروف برفضه لحل الدولتين، وكذلك لنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، إضافة إلى تعيين صهره جيرارد كوشنير مسؤولاً عن ملف عملية السلام في الشرق الأوسط، وهو المعروف أيضاً بتبرعاته للاستيطان الإسرائيلي ورفضه لخيار الدولتين.

كان هناك لقاء للرئيس ترامب مع جلالة الملك عبد الله الثاني على هامش (صلاة الافطار) في واشنطن يوم ٢٠١٧/٢/٣، حيث أكد جلالة الملك عبد الله للرئيس الأميركي رفضه لنقل السفارة الأمريكية للقدس، ورفضه للاستيطان الإسرائيلي وتمسكه بخيار حل الدولتين على حدود ١٩٦٧^٤. كانت هناك اتصالات للرئيس ترامب مع سيادة الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي والعاقل السعودي جلالة الملك سلمان بن عبد العزيز.

أما مع الجانب الفلسطيني فجاء الاتصال الأول من خلال رئيس جهاز المخابرات الأمريكية الـ «CIA»، حيث التقى مع الرئيس محمود عباس في رام الله يوم ٢٠١٧/٢/١٤، وكان قبل ذلك قد التقى رئيس جهاز المخابرات العامة الفلسطيني اللواء ماجد فرج في واشنطن يوم ٢٠١٧/٢/٧، وسوف نتطرق لذلك بالتفصيل لاحقاً.

في هذه المقدمة لا بد لنا أن نذكر بقرار الرئيس ترامب فرض منع دخول أميركا على ست دول عربية (سوريا، العراق، اليمن، الصومال، ليبيا، السودان) ودولة إسلامية هي إيران.

الأمر الذي رفضه القضاء الأميركي، وهو ما دفع الرئيس ترامب لفتح معركة مع القضاء الأميركي، تماماً كما فتح معركة مع الإعلام الأميركي وهو ليوود، معتبراً أن كل من يخالفه الرأي عدواً للشعب. على أي حال فإنه من السابق لأوانه إطلاق الأحكام، ولكننا سنحاول من خلال هذه الدراسة تحديد

مفاهيم الرئيس ترامب لعلاقات بلاده الخارجية، وسوف نخصص فصلاً عن التحديات المترتبة على ذلك دولياً وعربياً، وفصلاً آخر عن الرئيس ترامب ومواقفه المتوقعة إزاء الصراع العربي الإسرائيلي عامة والقضية الفلسطينية خاصة، وذلك على ضوء ما أعلنه من تحالف وثيق مع إسرائيل. ثم سنحاول تقديم عددٍ من التوصيات لصناع القرار في عالمنا العربي لأفضل الطرق للتعامل مع إدارة الرئيس ترامب على أسس المصالح المتبادلة، وإنعكاس ذلك على القضية الفلسطينية.

ثانياً: مفاهيم الرئيس ترامب:

على الرغم مما قمت به من دراسات حول شخصية رجل الاعمال الأميركي دونالد ترامب، وما كان يؤمن به أو ما يطرحه من أفكار حول قضايا مختلفة، وحول قدرته على إتمام الصفقات العادلة، او موافقه تجاه عدد من القضايا الدولية وخاصة العلاقات الأميركية - الإسرائيلية، أو ما كان يصفه بأنه علاقات غير متكافئة لأميركا مع دول العالم أثناء حملته الانتخابية، الأمر الذي دفعه إلى طرح شعار أميركا أولاً، ولنعد لأميركا عظمتها، إلا أنني وجدت أنه من غير المناسب القيام بطرح هذه الجوانب من شخصية الرئيس ترامب كرجل أعمال أو كمرشح كنقطة ارتكاز للتعامل معه كرئيس للولايات المتحدة، دون التقليل من أهمية هذه الجوانب وتأثيرها على صناعة القرار عند الرئيس ترامب، لذلك وجدت من المناسب أن نحدد مفاهيم العلاقات الخارجية عند الرئيس ترامب من خطاب التنصيب يوم ٢٠/١/٢٠١٧، ومقارنته مع خطابات التنصيب لرؤساء آخرين لأميركا، لمحاولة إظهار الفروق وتحديد المفاهيم عند الرئيس ترامب.

عناصر وركائز خطاب التنصيب للرئيس ترامب:

١. الطلب من الأميركيين الانضمام له في جهد وطني كبير لإعادة بناء أميركا واستعادة وعدها ومكانتها لجميع الأميركيين.
٢. تأكيد انتقال السلطة له بشكل منظم وسلمي، على اعتباره الفائز في الانتخابات الرئاسية، لكن أكد وبصوت مرتفع وبشعبوية عالية جداً، أنه لا يتم مجرد نقل السلطة من إدارة إلى أخرى، لأنه سوف يقوم بنقل السلطة من واشنطن إلى الشعب.

٣. أكد أن المؤسسة السياسية في واشنطن، حمت نفسها ولكنها لم تحم الشعب الذي تحمل التكلفة، حيث فقدت الوظائف وأغلقت المصانع.
٤. من الآن كل شيء سوف يتغير، هذه لحظتكم وهذا يومكم، وهذا انتصاركم، وسيذكر الناس أن هذا اليوم ٢٠١٧/١/٢٠، هو اليوم الذي أصبح فيه الناس مرة أخرى هم حكام هذه الأمة.
٥. الأميركيون سوف يحصلون على الوظائف، والمدارس، والأمن، ولن تكون مدننا مهمشة وفقيرة، وغير آمنة.
٦. أكد انهيار الصناعة الأميركية لحساب الصناعة الأجنبية، أكد استنزاف الجيش الأميركي لصالح دعم جيوش البلدان الأخرى، أكد دفاع أميركا عن حدود البلدان الأخرى وعدم الدفاع عن حدودها.
٧. أشار إلى إنفاق تريليونات الدولارات خارج أميركا، إلى الحد الذي انهارت فيه البنى التحتية في أميركا، وجعلنا دولاً أجنبية غنية، في حين تبذرت ثروة وقوة وثقة أميركا.
٨. أكد أن المصانع الأميركية أُغلقت وتم نقلها للدول الأجنبية على حساب الوظائف للأميركيين.
٩. أشار إلى أن ثروة الطبقة الوسطى قد انتزعت من قيمة المنازل الأميركية أو أعيد توزيعها خارج أميركا.
١٠. ابتداءً من اليوم، قال ترامب، ستحكم أميركا رؤية جديدة، من اليوم ستأتي أميركا أولاً.
- كل قراراتنا اعتباراً من اليوم بشأن التجارة، الضرائب، الهجرة، والشؤون الخارجية، سوف تكون لصالح الأسر الأميركية والعمال الأميركيين.
١١. أميركا ستعود للفوز مرة أخرى وبطريقة لم تشهد مثيلاً لها في السابق، سوف تعود وظائفنا وثروتنا، وحدودنا، وسوف نستعيد أحلامنا.
١٢. سوف نبني الطرق الجديدة والسريعة، والأنفاق والجسور، والمطارات والسكك الحديدية.
١٣. المبدأ الذي ستركز عليه قراراتنا، شراء المنتجات الأميركية ووظفوا المواطنين الأميركيين.
١٤. على صعيد العلاقات الخارجية قال ترامب:

«سنسعى لصداقات وحسن نوايا مع جميع دول العالم، ونفعل ذلك على أساس الفهم بأن على كل دولة أن تضع مصالحها فوق أي اعتبار».

لن نفرض طريقة حياتنا على أحد، وهذا بالتأكيد في إشارة إلى محاولة فرض الديمقراطية على عدد من دول العالم وتحديدًا الدول العربية، هذا المبدأ الذي شكل نقطة ارتكاز للرئيس الجمهوري جورج بوش الابن.

١٥. إضافة إلى ذلك أكد الرئيس ترامب على نيته تعزيز التحالفات القديمة وتشكيل تحالفات جديدة، حيث أكد نقطة ارتكاز مفهومه: «توحيد العالم المتحضر ضد إرهاب الإسلام المتطرف، الذي سنزيله بشكل كامل من على وجه الأرض».

ويستشهد على ذلك بما جاء في الكتاب المقدس: «من المبهج والجميل أن يعيش شعب الله معاً في اتحاد».

١٦. طرح نقطة ارتكاز لمفهوم اثبات المصادقية «نريد الأفعال وليس الأقوال».

١٧. ويختم خطابه قائلاً: «سوف نجعل أميركا قوية مرة أخرى، وثرية مرة أخرى، وفخورة مرة أخرى، وأمنة مرة أخرى، نعم سوف نجعل أميركا عظيمة مرة أخرى».

ثالثاً: مفاهيم خطابات التنصيب للرؤوساء جون كينيدي، جورج بوش الابن، باراك أوباما

يهدف المقارنة وتحديد الاختلافات في المفاهيم، قمنا بدراسة ومراجعة خطابات التنصيب لرؤساء أميركا من الرئيس ترومان عام ١٩٤٨ إلى الرئيس أوباما عام ٢٠١٣، واخترنا تحديداً خطابات التنصيب للرؤوساء، كينيدي، جورج بوش الابن، وأوباما، والعوامل المشتركة لهذه الخطابات تشمل^١:

١. حكم القانون وحقوق الإنسان والحرية هي المثل التي نتمسك بها والتي لا تزال منارة للعالم ولن نتخلى عنها.

٢. لقد واجهنا الفاشية والشيوعية ليس فقط بالصواريخ والدبابات بل بالتحالفات والقناعات الثابتة.

٣. إن قوتنا وحدها لا يمكنها حمايتنا، قوتنا تنمو عبر استخدامها الحكمة، وأمننا ينتج عن عدالة قضيتنا وقوة قدوتنا، وخصال التواضع وضبط النفس.

٤. لمواجهة التهديدات والتحديات لا بد من التعاون والتفاهم بين الأمم، وبذلك سنلحق الهزيمة بالإرهاب.
٥. نحن أمة من المسيحيين والمسلمين واليهود والهندوس وغير ذلك، وعلينا أن نضطلع بدورنا لإحلال حقبة جديدة من السلام، (الرئيس أوباما - ٢٠٠٩).
٦. للعالم الإسلامي نقول أننا نسعى لطريق جديد إلى الأمام يعتمد على المصلحة المشتركة والاحترام المتبادل، وعلى قادة العالم الذين يسعون إلى نشر بذور النزاع أو تحميل العرب مسؤولية آفات مجتمعاتهم أن يدركوا أن شعوبهم ستحكم عليهم، والذين يتمسكون بالسلطة من خلال الفساد والخداع، وإسكات صوت المنشقين أن يدركوا أنهم على الجانب الخاطئ من التاريخ.
٧. لدينا واجبات حيال أمتنا وحيال أنفسنا وحيال العالم، بالأمل والفضيلة سنواجه التحديات، وسنواصل حمل هبة الحرية العظيمة، ونقلها إلى الأجيال القادمة بسلام.
٨. خلال القرن الماضي، إيمان أميركا بالحرية والديمقراطية لم يتزعزع، إنه الأمل للإنسانية، وإنها البذور التي نزرعها للإنسانية، الحرية والديمقراطية هي أساس حياتنا ويستحق العالم أجمع أن يتمتع بها (الرئيس بوش ٢٠٠١).
٩. أميركا متحدة على أسس المبادئ والقيم، الحرية والعدالة والديمقراطية، وعلينا تأسيس أولادنا على هذه المبادئ والقيم (الرئيس بوش الابن ٢٠٠١).
١٠. الإصلاحات في مدارسنا ومؤسساتنا الصحية والبنى التحتية والصناعة هي ما سوف نقوم به دون المساس بمبادئنا وقيمنا - الحرية والديمقراطية والعدالة - (الرئيس بوش ٢٠٠١).
١١. إن ما نشهده اليوم هو احتفال بالحرية، حرية ترمز إلى التجديد والتغيير. (الرئيس جون كينيدي ١٩٦١).
١٢. لن نسمح بتقويض حقوق الإنسان، ومبادئ الحرية والديمقراطية والعدالة (الرئيس كينيدي ١٩٦١)
١٣. نحن نجدد التزامنا تجاه منظمة الامم المتحدة والتي تعتبر أفضل أمل لنا في عصر تفوقت فيه أدوات الحرب على ادوات السلام (الرئيس كينيدي ١٩٦١).

١٤. نحن نلتزم بالسلام العالمي، والسياسة ليست علامة ضعف، ودعونا لا نتفاوض بدافع الخوف، دعونا لا نخاف ابداً من التفاوض.

١٥. إننا نطرح اقتراحات جديدة ودقيقة من أجل التفتيش والرقابة على الأسلحة تحت سيطرة الأمم المتحدة.

١٦. لنشجع التعاون في مجال التجارة الحرة، والقضاء على الأمراض، فنحن ضد الطغيان والمرض والحرب ذاتها (الرئيس كينيدي ١٩٦١).

١٧. لن نتخلى عن الدفاع عن الحرية والديمقراطية والعدالة، سوف نعمل كل ما في وسعنا لحرية البشرية.

الخلافاً واضحة ومحددة وكبيرة بين المفاهيم التي طرحها الرئيس دونالد ترامب، وبين المفاهيم التي طُرحت في خطابات تنصيب الرؤساء في أميركا منذ عهد الرئيس ترومان ١٩٤٨ إلى الرئيس باراك أوباما ٢٠١٣.

الرؤساء ترومان، ايزونهاور، كينيدي، جونسون، نيكسون، فورد، ريغان، بوش الأب، كلينتون، بوش الأب، أوباما، طرحوا جميعاً: مبادئ الحرية والديمقراطية والسلام العالمي والعدالة والتجارة الحرة وحقوق الإنسان، النظام العالمي القائم على هذه المبادئ ودعم منظمة الأمم المتحدة وكافة مؤسساتها خدمة للبشرية جمعاء. إضافة إلى وجوب الانتصار على الفقر والمرض ورفع مستوى المعيشة للناس كافة وليس فقط للأميركيين.

تحدثوا عن أميركا القوية بتحالفاتها الدولية، التحالفات على أساس القيم والمبادئ، ونشر ثقافة التعايش والتسامح وحقوق الانسان للبشرية كافة.

حتى في التعامل مع الخصوم، كان المجال مفتوحاً دائماً لحل النزاعات والخلافات بالطرق السلمية والمفاوضات، ومن خلال نظام المراقبة والتفتيش عن الأسلحة تحت إشراف الأمم المتحدة.

أما مفاهيم الرئيس ترامب كما طُرحت في خطاب تنصيبه فلقد جاءت مُختلفة، حيث اعتبر أن السلطة كانت مختطفة من نخبة واشنطن السياسية وأنه سيعيدها للشعب، وذلك بدءاً لاستعادة وعد ومكانة وعظمة أميركا.

أميركا أولاً، ليس على أساس الديمقراطية والحرية والعدالة والتجارة الحرة، التي لم يأتِ على ذكرها، وليس على أساس التحالفات الدولية، وليس مواجهة الخصوم للحفاظ على المبادئ والقيم، وإنما أميركا أولاً بإعادة المصانع والوظائف وحماية الحدود وإعادة بناء جيشها.

علاقات أميركا الدولية سوف تحدد على أساس هذه الأسس والركائز، لم يذكر الحرية والديمقراطية والتجارة الحرة، ذكر وظائف للأميركيين وإعادة بناء الجيش الأميركي وحماية الحدود الأميركية، وميزان تجارة لصالح أميركا وليس لصالح الدول الأخرى.

إنها الرؤية الجديدة لأميركا، العلاقات الدولية لأميركا ستكون على أساس أميركا أولاً والحلفاء سيكون هؤلاء الذين يُساهمون لإعادة العظمة لأميركا.

كيف تترجم هذه المفاهيم في واقع العلاقات الدولية؟.

ماذا عن حلف شمال الأطلسي والنااتو؟.

ماذا عن الاتحاد الأوروبي؟.

وكيف سيتعامل الرئيس ترامب مع العجز في الميزان التجاري مع الصين والمكسيك وكندا والاتحاد الأوروبي؟.

ماذا عن العلاقات مع الدول العربية؟.

الرئيس ترامب حدد علاقاته بشكل قاطع مع العراق، سوريا، الصومال، ليبيا، اليمن والسودان ، حيث شملها مع إيران في القرار الإداري بمنع مواطنيها من دخول الأراضي الأميركية؟. ثم عاد وأسقط العراق من قراره الإداري الثاني بشأن الهجرة.

لكن ماذا عن السعودية ودول الخليج؟.

ماذا عن المغرب والجزائر وشمال افريقيا؟.

ماذا عن العلاقات الأميركية - المصرية؟.

الرئيس ترامب أعلن عن ترسيخ تحالف أميركا مع إسرائيل، وأعلن أنه سيوفر لها الحماية في الأمم المتحدة وباقي المنظمات الدولية، ولا زال يؤكد على تصميمه على نقل السفارة الأميركية

إلى القدس. ولقد وصلت الأمور إلى حد لم يسبق له مثيل في مواقف أميركا من الصراع العربي - الإسرائيلي منذ عام ١٩٦٧، عندما أعلن الرئيس ترامب أن حل الدولتين أو الدولة الواحدة يتساوى عنده، ولكن المهم ما يتفق عليه الطرفان.

هذا التصريح الذي أطلقه الرئيس ترامب أمام رئيس وزراء إسرائيل بنجامين نتنياهو في المؤتمر الصحافي المشترك بينهما في واشنطن يوم ٢٠١٧/٢/١٥.

ماذا عن تعيينه المحامي ديفيد فريدمان الصهيوني المستوطن، الذي يرفض حل الدولتين، ويدعم الاستيطان ونقل السفارة الأمريكية إلى القدس؟.

رابعاً: أميركا أولاً : اقتصادياً:

إذا ما القينا نظرة على قائمة بأهم شركاء أميركا تجارياً حسب الجدول رقم «١»، سنجد أن الدول العربية ستكون غير موجودة في أول عشرين أهم شريك للولايات المتحدة الأمريكية ، وأن المملكة العربية السعودية تحتل الترتيب رقم (٢٣) عالمياً في التجارة مع أميركا، في حين تحتل الامارات العربية المتحدة الترتيب رقم (٢٦) عالمياً ، أما إسرائيل فمكانها على القائمة جاء في المرتبة (٢٢) عالمياً.

جدول رقم (١) .^٧

قائمة بأهم الدول الشريكة لأميركا بالتجارة لعام ٢٠١٦ (بالمليار دولار)

البلد	صادرات	واردات	المجموع	الميزان التجاري
العالم	١,٤٥٤,٦٢٤	٢,١٨٨,٩٤٠	٣,٦٤٣,٥٦٤	٧٣٤,٣١٦-
الصين	١١٥,٧٧٥	٤٦٢,٨١٣	٥٧٨,٥٨٨	٣٤٧,٠٣٨-
كندا	٢٦٦,٨٢٧	٢٧٨,٠٦٧	٥٤٤,٨٩٤	١١,٢٤٠-
المكسيك	٢٣٠,٩٥٩	٢٩٤,١٥١	٥٢٥,١١٠	٦٣,١٩٢-
اليابان	٦٣,٢٦٤	١٣٢,٢٠٢	١٩٥,٤٦٦	٦٨,٩٣٨-
المانيا	٤٩,٣٦٢	١١٤,٢٢٧	١٦٣,٥٨٩	٦٤,٨٦٥-
كوريا الجنوبية	٤٢,٢٦٦	٦٩,٩٣٢	١١٢,١٩٨	٢٧,٦٦٦-
بريطانيا	٥٥,٣٩٦	٥٤,٣٢٦	١٠٩,٧٢٢	١,٠٧٠+

١٥,٨٢٤-	٧٧,٧٠٦	٤٦,٧٦٥	٣٠,٩٤١	فرنسا
٢٤,٣٠٩-	٦٧,٦٨٧	٤٥,٩٩٨	٢١,٦٨٩	الهند
١٣,٢٦٨-	٦٥,٣٥٨	٣٩,٣١٣	٢٦,٠٤٦	تايوان
٢٨,٤٥٦-	٦١,٩٦٤	٤٥,٢١٠	١٦,٧٥٤	إيطاليا
١٣,٦٧٣-	٥٩,٠٧٥	٣٦,٣٧٤	٢٢,٧٠١	سويسرا
٢٤,٢٢٥+	٥٦,٥٢٩	١٦,١٥٢	٤٠,٣٧٧	هولندا
٤,١٢١+	٥٦,٤٧٣	٢٦,١٧٦	٣٠,٢٩٧	البرازيل
٣٥,٠٦٠-	٥٥,٠٦٠	٤٥,٥٠٤	٩,٥٥٦	أيرلندا
٣١,٩٥٨-	٥٢,٢٦٠	٤٢,١٠٩	١٠,١٥١	فيتنام
١٥,٢٥١+	٤٩,٢٩١	١٧,٠٢٠	٣٢,٢٧١	بلجيكا
٢٤,٨٢٠-	٤٨,٥٥٤	٣٦,٦٨٧	١١,٨٦٧	ماليزيا
٩,٠٦٧+	٤٤,٦٦٩	١٧,٨٠١	٢٦,٨٦٨	سنغافورا
٢٧,٥٢٢+	٤٢,٢٩٤	٧,٣٨٦	٣٤,٩٠٨	هونغ كونج
١٨,٩٢٠-	٤٠,٠٦٦	٢٩,٤٩٣	١٠,٥٧٣	تايوان
٩,٠٠٩-	٣٥,٤٠٣	٢٢,٢٠٢	١٣,١٩٧	إسرائيل
١,٠٩٧+	٣٤,٩٤٩	١٦,٩٢٦	١٨,٠٢٣	السعودية
١٢,٦٩١+	٣١,٧٥٩	٩,٥٣٤	٢٢,٢٢٥	أستراليا
٦٩٧-	٢٦,٨٩٥	١٣,٧٩٦	١٣,٠٩٩	كولومبيا
١٩,٠٢٦+	٢٥,٧٣٨	٣,٣٥٦	٢٢,٣٨٢	الإمارات العربية
١٣,١٦٦-	٢٥,٢٤٠	١٩,٢٠٣	٦,٠٣٧	إندونيسيا
٣,٠٩٥-	٢٣,٨٣٤١	١٣,٤٦٨	١٠,٣٧٣	إسبانيا
٤,١٤٢+	٢١,٧٤٠	٨,٧٩٩	١٢,٩٤١	تشيلي
٨,٧١٤-	٢٠,٣١٠	١٤,٥١٢	٥,٧٩٨	روسيا
٧٠٦,٥٨٤-	٣,٢٥٢,٤٢٨	١,٩٧٩,٥٠٦	١,٢٧٢,٩٢٢	أفضل ٣٠
٢٧,٧٣٢-	٣٩١,١٣٦	٢٠٩,٤٣٤	١٨١,٧٠٢	الدول الباقية

وإذا ما القينا نظرة على جدول رقم «٢» الدول العربية والتجارة مع أمريكا عام ٢٠١٦ ، سنجد أن مُجمل الصادرات والواردات العربية مع أمريكا بلغت ١١٠ بليون دولار عام ٢٠١٦. وهذا يُبين أن تجارة كوريا الجنوبية مع أمريكا كانت أكثر من جميع الدول العربية مجتمعة. وان ميزان الفائض كان لصالح أمريكا بحوالي ٢٥ مليار دولار.

جدول رقم (٢)١

تجارة الدول العربية مع امريكا - ٢٠١٦

الدولة	صادرات	واردات	الميزان (+) (-)
الجزائر	٢,٢٣٧,١ بليون دولار	٣,٢٢٨,٨ بليون	-٩٩١ مليون دولار عجز
البحرين	٩٠٢,١ مليون	٧٦٨,٣ مليون	+١٣٣,٨ مليون دولار فائض
جزر القمر	١,٣ مليون	٢,٧ مليون	-١,٤ مليون عجز
جيبوتي	١٤٥ مليون	٢٨ مليون	+١١٧ مليون فائض
مصر	٣,٥ بليون	١,٥ بليون	+٢,١ بليون فائض
العراق	١,٢ بليون	٦ بليون	-٤,٨ بليون عجز
فلسطين	١,١ مليون	٦,٤ مليون	-٥,٣ مليون عجز
الاردن	١,٤٩٤,٨ بليون	١,٥٥٧,٢ بليون	-٦٢,٤ مليون عجز
الكويت	٣,٣ بليون	٣,٣١٦ بليون	-١٦ مليون عجز
لبنان	١,١٣٤,٩ بليون	١٠٧,٩ مليون	+١,٥٢٦,٧ بليون فائض
ليبيا	١٨٨,٩ مليون	٢٢٣,٥ مليون	-٣٤,٦ مليون عجز
موريتانيا	١١٦,٣ مليون	٥٠,٣ مليون	+٦٦ مليون فائض
المغرب	١,٨٦٦ بليون	١,٠٢١,٨ بليون	+٨٤٤,٢ مليون فائض
سلطنة عمان	١,٧٨٣,٩ بليون	١,١٠٨,٧ بليون	+٦٧٥,٢ مليون فائض
قطر	٤,٩٢٨,٧ بليون	١,١٦٠,٧ بليون	+٣,٧٦٨ مليون فائض
السعودية	١٨,٠٢٢,٦ بليون	١٦,٩٢٥,٩ بليون	+١,١ بليون فائض
الصومال	٣٦,٩ مليون	١ مليون	+٣٥,٩ مليون فائض
السودان	٥٨,٧ مليون	٢٥,٣ مليون	+٤٣,٤ مليون فائض
سوريا	٣,٧ مليون	٦,٧ مليون	-٣ مليون عجز
تونس	٣٩١,٦ مليون	٥٢٤,٢ مليون	+١٣٢,٧ مليون فائض
الامارات	٢٢,٣٨١,٨ بليون	٣,٣٥٦ بليون	+١٩ بليون فائض

أما إسرائيل:

اسرائيل	١٣,١ بليون	٢٢,٢ بليون	-٩ بليون عجز
---------	------------	------------	--------------

لا نستطيع معرفة أو حتى التنبؤ بما سيقوم به الرئيس ترامب مع صباح كل يوم، فعلى ما يبدو فإن علينا أن نضع في عين الاعتبار أن سياسة الرئيس ترامب ستكون مقرونة بعدم قدرتنا على المعرفة أو التنبؤ أي (Uncertainty, Unpredictability)، لم يمر يوم واحد منذ تولي الرئيس ترامب الرئاسة في الولايات المتحدة دون أزمة أو أزمات داخلية ودولية.

الإعلام الأمريكي مزيف وعدو للشعب، القضاء مزعوم، هوليوود لا تتقن صناعة السينما، واعضاء مجلس الشيوخ والنواب الذين يعارضونه لا يعرفون مصالح أميركا، ويريدون إبقاء أميركا ضعيفة، وهو يريد أميركا أولاً.

دولياً أزمة مع المكسيك حول بناء الجدار، الذي طالب أن تدفع المكسيك تكاليف بنائه، وأزمة مع أستراليا حول أعداد المهاجرين الذين من المقرر أن ينتقلوا من أستراليا إلى أميركا، وأزمة مع ألمانيا حول سياسة ميركل بقبول المهاجرين، إضافة إلى الصين وسياسة (صين واحدة) (One China Policy) العامل المشترك بين كل هذه الدول هو الفائض في ميزانها التجاري مع أميركا.

إذا أرادت الصين أن يوافق الرئيس ترامب على سياسة (صين واحدة)، فعليها أن تعمل بشكل جدي لتصحيح العجز في الميزان التجاري لصالحها والذي بلغ في نهاية عام ٢٠١٦، ٣٤٢ بليون دولار.

كذلك الحال بالنسبة لألمانيا، إذ وصف الرئيس ترامب المفاوضات الأمريكية بالفاشل مع ألمانيا، ونجاح المفاوضات الألماني، فالفائض التجاري لصالح ألمانيا في نهاية عام ٢٠١٦ بلغ ٦٣ بليون دولار.

هذا هو الحال مع اليابان، فرنسا، بريطانيا، حتى إسرائيل لديها فائض بقيمة ٩ بليون دولار في التجارة مع أميركا عام ٢٠١٦.

العجز التجاري للولايات المتحدة الأمريكية مع العالم في العام ٢٠١٦ بلغ ٧٣٤ مليار دولار، وهذا ما سيعمل الرئيس ترامب على تعديله لزيادة حجم الصادرات الأمريكية وبالتالي خلق وظائف، وجعل أميركا أولاً، وإعادة العظمة لأميركا.

تحديد العلاقات مع دول العالم سيكون على أساس هذا القياس، فعلى كل دولة من دول العالم أن

تضع البيانات للرئيس ترامب التي تثبت أن تعزيز العلاقات مع هذه الدولة أو تلك من شأنه أن يحقق للرئيس ترامب ما يريد من جعل أميركا عظيمة مرة أخرى وأن يجعلها أولاً. أكد الرئيس ترامب أكثر من مرة أنه ليس انعزالياً وأنه يؤيد تجارته الحرة والتجارة العادلة.

«Free and fair trade»^٦

الرئيس ترامب لا يؤمن بعدم الانحياز، فهو منحاز مع مصالح بلاده، ولن يتوانى عن استخدام القوة دفاعاً عن مصالح بلاده، وإرساله قوات أميركية إلى العراق، واسقاط العراق عن لائحة المحظورين من دخول أميركا، يدل على رفض الرئيس ترامب لسياسة عدم الانحياز، وكذلك الحال بالنسبة للتهديدات التي أطلقها ضد كوريا الشمالية بعد سلسلة من تجاربها الصاروخية في شهر آذار ٢٠١٧.

أما التحالف بالنسبة للرئيس ترامب، فيقوم على أساس الافتراض، بأن الدولة التي لا تستطيع الدفاع عن أمنها ومصالحها بالاعتماد على قدرتها الذاتية، بإمكانها الاعتماد على الولايات المتحدة الأميركية، إذا ما خصصت لأميركا المكاسب الكبيرة جراء القيام بتوفير الحماية.

ففي أكثر من مقابلة أثناء حملته الانتخابية قال ترامب (المرشح)، بأنه كان على بلاده أن تأخذ عائدات النفط من الكويت والعراق لسنوات طويلة جراء تدخلها العسكري لتحرير الكويت وإسقاط الرئيس صدام حسين.

على أي حال علينا أن ننتظر لنرى محددات وقياسات وأثمان التحالفات التي سوف تقوم بها الولايات المتحدة الأميركية في مختلف أرجاء العالم.

فإذا كان على ألمانيا أن تزيد من إنفاقها العسكري لمواجهة التهديدات، وكذلك الحال بالنسبة لليابان، فربما سيكون علينا أن نرى تطورات هامة جداً في العلاقات الدولية، خاصة إذا ما كان على ألمانيا واليابان أن تواجه تهديدات روسيا، الصين، أو كوريا الشمالية.

فلقد فرضت على اليابان وألمانيا قيود كبيرة في مجال صناعتها وقدراتها العسكرية، فهل سنرى الرئيس ترامب يقلب هذه القيود لدفع ألمانيا واليابان للاعتماد على الذات في مواجهة التهديدات والتحديات؟.

الامتحان الحقيقي الأول للرئيس ترامب جاء من الشرق الأوسط ومن سوريا تحديداً، عندما أعلنت واشنطن رسمياً بأن النظام السوري قد استخدم أسلحة كيميائية ضد شعبه في مدينة إدلب، جاء ذلك بعد يومين من استقباله الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي في البيت الأبيض يوم ٢٠١٧/٤/٢، وأثناء استقباله العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني يوم ٢٠١٧/٤/٥.

كان الرئيس ترامب بانتظار لقاء في غاية الأهمية مع الرئيس الصيني يوم ٢٠١٧/٤/٧ الذي تُسجل بلاده فائزاً تجارياً قيمته ٥٠٪ من العجز في ميزان التجارة الأميركي العالمي، والحليف للنظامين السوري والكوري الشمالي.

الرئيس ترامب قرر قصف سوريا بصواريخ توماهوك وجهت ضد قاعدة الشعيرات الجوية في حملته الانتخابية كان يفرض مجرد التفكير في قصف سوريا أو التدخل فيها، إلا أنه الآن يعلم الرئيس الصيني والرئيس الروسي بقراره، ما يعني أنه قرر الانخراط في الشرق الأوسط، وقرر أن تكون أميركا، وكما قالت سفيرته في الأمم المتحدة نيكى هيلي يوم ٢٠١٧/٤/٥، أنه إذا لم يتم المجتمع الدولي بتحمل مسؤولياته تجاه أسلحة كيميائية ضد الشعب السوري، فإن الولايات المتحدة ستتحمل المسؤولية لوحدها^١.

كانت رسالة واضحة للعالم أراد الرئيس ترامب أن يقول من خلالها أنه يختلف عن سبقيه وأنه إن قال فعل، وأنه لن يتردد كما فعل سلفه الرئيس باراك أوباما.

لقد فرضت الأوضاع والتطورات الإقليمية والدولية نفسها فوق الاقتصاد وفوق كل ما قيل عن أميركا أولاً، من الناحية الاقتصادية، وتبين أن إعادة أميركا لعظمتها على حد تعبير الرئيس ترامب يتطلب انخراط أميركا إقليمياً وقارياً ودولياً، وعدم النأي بنفسها.

الضربة الصاروخية ضد سوريا كانت عبارة عن رسائل وجهت لروسيا، والصين، وإيران، ومصر والأردن والسعودية وباقي الدول العربية، ولإسرائيل أيضاً، وكذلك لفلسطين، الرسالة: «الرئيس ترامب جدي وصاحب مصداقية، وسيحول أقواله إلى أفعال، وإن كانت لديه القدرة على استخدام السلاح والصواريخ، فسيكون لديه القدرة على صناعة السلام، وصياغة التحالفات وتفهم المصالح وتداخلاتها.

خامساً: السياسة الخارجية الأمريكية المتوقعة في الشرق الأوسط لإدارة الرئيس ترامب، وخاصة عملية السلام الفلسطينية - الإسرائيلية:

أ- كما قلنا لن يكون بإمكاننا إطلاق الأحكام المسبقة، فنحن لا زلنا في بداية عهد إدارة الرئيس ترامب، ولكننا وخلافاً لما يقال عن اتخاذ الرئيس ترامب لتوجه انعزالي فإن تقديراتنا لتوجهات السياسة الخارجية الأمريكية للرئيس ترامب سوف تكون:

١. استمرار تبني الرئيس ترامب في سياسته الخارجية لأميركا أولاً وإعادة العظمة لأميركا، وذلك على أساس تحديد دقيق للمصالح الأمريكية، والتعامل معها على اعتبارها نقطة الارتكاز لأي تحرك أو قرار أمريكي بشأن السياسة الخارجية.

٢. خلافاً لما قيل أن الرئيس ترامب لن يتدخل لأسباب إنسانية، فإن قراره بقصف الصواريخ ضد سوريا، أثبت أنه يستطيع أن يغلف قرارته (بالدوافع الإنسانية والاخلاقية) على حد تعبيره، خاصة وأنه بات واضحاً أن الأوضاع الداخلية في أميركا وفشله في تمرير خطته الصحية على حساب خطة أوباما الصحية، والتحقيقات الجارية حول اتصالات أركان إدارته مع روسيا قبل وأثناء وبعد الانتخابات، وفشله بتمرير قرار إداري بمنع دخول أميركا لمواطني عدد من الدول الإسلامية، هذه الأوضاع دفعت بقراره بالقصف الصاروخي ضد سوريا، إذ انحسر بعد ذلك النقاش ليس في اتهام إدارة الرئيس ترامب بالفشل أو التخبط أو اللين مع روسيا أو حتى التورط معها، إلى تأييد الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء للضربة الصاروخية ضد سوريا ومطالبة الرئيس ترامب بطرح استراتيجية عمل لوقف الحرب الدائرة في سوريا منذ سبعة أعوام.

٣. لن تكون إدارة الرئيس ترامب معتمدة على مبدأ العزلة في السياسة الخارجية الدولية، حيث ترى هذه الإدارة وجوب التدخل في سوريا، أو حتى في كوريا الشمالية، وما تحريك البورج العسكرية في شبه الجزيرة الكورية أو البحر المتوسط، إلا دليل على أن إدارة الرئيس ترامب لن تعتمد على مبدأ العزلة الدولية في سياستها الخارجية.

٤. سوف تستمر إدارة الرئيس ترامب في مواقفها ضد الهجرة إليها وخاصة من الدول الإسلامية

والمكسيك، وسوف يستمر في محاولاته تمرير قرارات إدارية بهذا الخصوص، إضافة إلى فكرة بناء جدار بين المكسيك وأميركا.

5. سوف تستمر إدارة الرئيس ترامب في اعتمادها إسرائيل وأمنها كمصلحة أميركية عليا على اعتبارها جزءاً من الحياة السياسية الأميركية الداخلية، إضافة إلى استعدادها للاستمرار بالقيام بالأدوار الوظيفية خدمة للمصالح الأميركية.

مع ذلك بدا واضحاً خلال المؤتمر الصحافي الذي عقده الرئيس ترامب مع رئيس الوزراء نتنياهو يوم ٢٠١٧/٢/١٥ بأن الرئيس ترامب أكد على عمق العلاقة الإسرائيلية الأميركية، وأنه سيقدم الحماية لإسرائيل في المحافل الدولية وخاصة مجلس الأمن، إضافة إلى قوله (دولة أو دولتين غير مهم)، إلا أنه طلب من نتنياهو أن يلجم الاستيطان.

ب- الرئيس ترامب وعملية السلام في الشرق الأوسط:

موافق الرئيس ترامب من إسرائيل لا تعني انه سوف يتخلى عن إمكانية التوصل إلى صفقة سلام تاريخية بين الفلسطينيين والإسرائيليين بل على العكس تماماً، فلقد بدأت الاتصالات مع الجانب الفلسطيني على كافة المستويات بعد أقل من أسبوعين من تسلّم الرئيس ترامب لولايته الرئاسية يوم ٢٠١٧/١/٢٠.

حيث وجه رئيس جهاز المخابرات الأميركية مايكل بامبينو دعوة لنظيره الفلسطيني اللواء ماجد فرج حيث التقيا في واشنطن يوم ٢٠١٧/٢/٧.

ثم قام رئيس الـ (CIA) بزيارة رسمية إلى فلسطين، التقى خلالها في رام الله مع سيادة الرئيس محمود عباس بحضور الدكتور صائب عريقات واللواء ماجد فرج^١.

بعد ذلك جاء الاتصال الهاتفي من الرئيس ترامب للرئيس عباس يوم الجمعة ٢٠١٧/٣/١٠، حيث بدأ الرئيس ترامب حديثه قائلاً للرئيس عباس:

«أنت رجل شجاع ومؤمن بالسلام، وقادر على صناعته، وأنا على استعداد لعقد الصفقة التاريخية، وكفى عقوداً من المعاناة للفلسطينيين والإسرائيليين، لدينا فرصة وسأعمل على تحقيقها».

رد الرئيس عباس قائلاً:

«نحن ننتظر هذه الفرصة من ٧٠ سنة، ونعتمد عليك سيادة الرئيس، وأنت قادر وتستطيع تحقيق هذه الصفقة التاريخية، ونحن نؤمن بحل الدولتين، دولة فلسطين تعيش بأمن وسلام إلى جانب دولة إسرائيل على حدود ١٩٦٧».

ما إن سمع الرئيس ترامب ذلك من الرئيس عباس حتى رد عليه:

«اسمح لي أن أقدم لك دعوة للقدوم ولللقاء بي في البيت الأبيض، وأعضاء فريق سيكونون جيرارد كوشنير، وجيسن جرين بلات، وديفيد فريدمان، وسأرسل لك جرين بلات للقاء بك وبفريقك خلال أيام»^{١٢}.

يوم ٢٠١٧/٣/١٤، وصل مبعوث الرئيس ترامب للمفاوضات الدولية جيسن جرين بلات إلى المقاطعة في رام الله يرافقه القنصل الأميركي العام دونالد بلوم، وموظفة مجلس الأمن القومي الأميركي يائيل لامبرت، وكان وفد الرئيس أبو مازن مشكل من د. صائب عريقات والوزير ماجد فرج والمستشار نبيل أبو ردينة.

لقاءات جرين بلات شملت لقاءً بأربعة عيون مع الرئيس عباس، ولقاء غداء عمل مع د. صائب واللواء ماجد فرج وأبو ردينة، ثم لقاء مع رئيس صندوق الاستثمار محمد مصطفى، ولقاء في مخيم الجلزون، ولقاء مع رجال أعمال فلسطينيين، ولقاء مع قادة الأجهزة الأمنية في أريحا، ولقاء مع طلاب في جامعة بيت لحم.

على الجانب الآخر التقى جرين بلات مع رئيس الوزراء نتنياهو، والمحامي اسحق ميلخو، ووزير الدفاع افيغدور ليرمان، والوزير نفتالي بينت، والجنرال يواف مردخاي (بولي)، وزعيم المعسكر الصهيوني بوجي هرتزوغ وشريكته تسيغي ليفني.

ومن ثم حضر جرين بلات القمة العربية التي عقدت في البحر الميت في الأردن، وأجرى سلسلة من اللقاءات شملت العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني بن الحسين، والرئيس عباس، ووزراء خارجية مصر، الأردن، قطر، الامارات، والأمين العام للجامعة العربية، إضافة إلى لقاء مع الدكتور صائب عريقات حيث وجهت دعوة للدكتور عريقات للقدوم إلى واشنطن قبل نهاية شهر نيسان ٢٠١٧

وذلك للتحضير للقاء الرئيس محمود عباس مع الرئيس دونالد ترامب.

في هذه اللقاءات أكدنا كعرب وكفلسطينيين، وبما في ذلك أثناء الزيارات الرسمية لواشنطن واللقاءات مع الرئيس ترامب التي قام بها الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي، والعاقل الأردني الملك عبد الله الثاني، وولي ولي العهد السعودي سمو الأمير محمد بن سلمان، على تمسكنا بمبادرة السلام العربية، ومبدأ الدولتين على حدود ١٩٦٧، لتعيش دولة فلسطين بعاصمتها القدس الشرقية بأمن وسلام إلى جانب دولة إسرائيل على حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧، واعتبار ضم القدس الشرقية لإسرائيل لاغ وباطلاً ولا يخلق حقاً ولا ينشئ التزاماً، ورفض نقل السفارة الأميركية إلى القدس، وحل قضايا الوضع النهائي كافة (القدس، الحدود، المستوطنات، اللاجئين، المياه، الأسرى) استناداً لقرارات الشرعية الدولية ذات العلاقة، إضافة إلى رفض تغيير منهج وفلسفة مبادرة السلام العربية التي تنص على أنه حال استكمال انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية والفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ وبما يشمل القدس الشرقية، سيصار إلى قيام علاقات بين الدول العربية وإسرائيل. جاء ذلك رداً على محاولات إسرائيل عكس فلسفة المبادرة العربية أي البدء بالتطبيع أولاً ثم الحديث عن الانسحاب.

جاء هذا الموقف العربي محدداً وواضحاً من خلال إعلان عمان الذي صدر عن قمة البحر الميت في الأردن يوم ٢٩/٣/٢٠١٧. جاء فيه.^{١٣}

«نحن قادة الدول العربية المجتمعين في المملكة الاردنية الهاشمية/منطقة البحر الميت يوم ٢٩ من اذار ٢٠١٧ في الدورة العادية الثامنة والعشرين لمجلس جامعة الدول العربية على مستوى القمة بدعوة كريمة من جلالة الملك عبدالله الثاني ملك المملكة الاردنية الهاشمية .

اذ نوّكد ان حماية العالم العربي من الاخطار التي تحدق به وان بناء المستقبل الافضل الذي تستحقه شعوبنا يستوجبان تعزيز العمل العربي المشترك المؤطر في آليات عمل منهجية مؤسساتية والمبني على طروحات واقعية عملية قادرة على معالجة الازمات ووقف الانهيار ووضع امتنا على طريق صلبة نحو مستقبل آمن خال من القهر والخوف والحروب ويعمه السلام والامل والانجاز.

ندرك ان قمتنا التأمّت في ظرف عربي صعب فثمة ازمات تقوض دولا وتقتل مئات الالوف من

الشعوب العربية وتشرد الملايين من ابناء امتنا لاجئين ونازحين ومهجرين وانتشار غير مسبق لعصابات ارهابية تهدد الامن والاستقرار في المنطقة والعالم. وثمة احتلال وعوز وقهر وتحديات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية تدفع باتجاه تجذير بيئات اليأس المولدة للإحباط والفوضى والتي يستغلها الضالليون لنشر الجهل ولحرمان الشعوب العربية حقها في الحياة الامنة الحرة والكرامة المنجزة.

وبعد مشاورات مكثفة وحوارات معمقة صريحة فإننا:

أولاً: نؤكد استمرارنا في العمل على اعادة اطلاق مفاوضات سلام فلسطينية اسرائيلية جادة وفاعلة تنهي الانسداد السياسي وتسير وفق جدول زمني محدد لإنهاء الصراع على اساس حل الدولتين الذي يضمن قيام الدولة الفلسطينية المستقلة على خطوط الرابع من حزيران عام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشرقية والذي يشكل السبيل الوحيد لتحقيق الامن والاستقرار.

ونشدد على ان السلام الشامل والدائم خيار عربي استراتيجي تجسده مبادرة السلام التي تبنتها جميع الدول العربية في قمة بيروت في العام ٢٠٠٢ ودعمتها منظمة التعاون الاسلامي والتي ما تزال تشكل الخطة الاكثر شمولية وقدرة على تحقيق مصالح تاريخية تقوم على انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي الفلسطينية والسورية واللبنانية المحتلة الى خطوط الرابع من حزيران عام ١٩٦٧ وتضمن معالجة جميع قضايا الوضع النهائي وفي مقدمتها قضية اللاجئين وتوفير الامن والقبول والسلام لإسرائيل مع جميع الدول العربية ونشدد على التزامنا بالمبادرة وعلى تمسكنا بجميع بنودها خير سبيل لتحقيق السلام الدائم والشامل.

وفي السياق ذاته نؤكد رفضنا كل الخطوات الاسرائيلية الاحادية التي تستهدف تغيير الحقائق على الارض وتقوض حل الدولتين ونطالب المجتمع الدولي بتنفيذ قرارات الشرعية الدولية وآخرها قرار مجلس الامن رقم ٢٣٣٤ عام ٢٠١٦ والتي تدين الاستيطان ومصادرة الاراضي، كما نؤكد دعمنا مخرجات مؤتمر باريس للسلام في الشرق الاوسط بتاريخ ١٥ كانون الثاني ٢٠١٧ والذي جدد التزام المجتمع الدولي بحل الدولتين سبيلا وحيدا لتحقيق السلام الدائم.

كما نؤكد رفضنا جميع الخطوات والاجراءات التي تتخذها اسرائيل لتغيير الوضع القانوني والتاريخي

في المقدسات الاسلامية والمسيحية في القدس ونثمن الجهود التي تقوم بها المملكة الاردنية الهاشمية بقيادة جلاله الملك عبدالله الثاني ابن الحسين صاحب الوصاية الهاشمية على المقدسات الاسلامية والمسيحية لحماية المدينة المقدسة وهوية مقدساتها العربية الاسلامية والمسيحية وخصوصا المسجد الاقصى - الحرم الشريف.

ونطالب بتنفيذ جميع قرارات مجلس الامن المتعلقة بالقدس وخصوصا القرار ٢٥٢ عام ١٩٦٨ و٢٦٧ و٤٦٥ عام ١٩٨٠ و٤٧٨ عام ١٩٨٠ والتي تعتبر باطله كل اجراءات اسرائيل المستهدفة تغيير معالم القدس الشرقية وهويتها وتطالب دول العالم عدم نقل سفاراتها الى القدس او الاعتراف بها عاصمة لإسرائيل. ونؤكد ايضا على ضرورة تنفيذ قرار المجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو الذي صدر في الدورة ٢٠٠ بتاريخ ١٨ تشرين اول ٢٠١٦، ونطالب بوقف الانتهاكات الإسرائيلية ضد المسجد الأقصى / الحرم الشريف، واعتبار إدارة أوقاف القدس والمسجد الأقصى الأردنية السلطة القانونية الوحيدة على الحرم في إدارته وصيانته والحفاظ عليه وتنظيم الدخول إليه.

وإننا إذ نجتمع في المملكة الأردنية الهاشمية، وعلى بعد بضعة كيلو مترات من الأراضي الفلسطينية المحتلة، نؤكد وقوفنا مع الشعب الفلسطيني الشقيق، وندعم جهود تحقيق المصالحة وتشكيل حكومة وحدة وطنية في ظل الشرعية الوطنية الفلسطينية، برئاسة فخامة الرئيس محمود عباس». على صعيد إدارة الرئيس ترامب فلقد بقيت المواقف الأميركية بعيدة عن التحديد، وجاء رد الإدارة الأميركية على إعلان عمان على شكل بيان صدر يوم ٢٠١٧/٣/٣٠، تحت عنوان رحلة المبعوث الخاص للمُحادثات الدولية جيسون جرين بلات إلى الأردن ٢٧-٢٩ آذار/٢٠١٧، جاء فيه:^٤

«بناءً على دعوة المملكة الأردنية الهاشمية، حضر مساعد الرئيس والممثل الخاص للمفاوضات الدولية جيسون جرين بلات القمة العربية ال ٢٨ هذا الأسبوع في الأردن. لم يؤيد جرين بلات القرارات أو الخطب التي تمت الموافقة عليها من قبل رؤساء الدول العربية المجتمعين بصفته كمرآب فقط في المؤتمر. بدلاً من ذلك، استمع إلى وجهات نظرهم وأفكارهم، وعقد عدداً من الاجتماعات الثنائية مع الزعماء العرب والوفود الاجنبية الأخرى لمناقشة وجهات نظر الولايات المتحدة وسياساتها وكان الحوار في الاجتماعات صريحاً ومفيداً.

وركز السيد جرين بلات في اجتماعاته على كيفية إحراز تقدم ملموس نحو تعزيز السلام في الشرق الأوسط، بما في ذلك اتفاق شامل بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وأكد مجدداً اهتمام الرئيس ترامب الشخصي بالتوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل والفلسطينيين، وإعتقاده بان اتفاق السلام هذا ليس ممكناً فحسب، بل سيعكس صدى إيجابياً في جميع أنحاء المنطقة والعالم، ورحب السيد غرينبلات بسماع وجهات نظر القادة العرب بشأن القضايا الإسرائيلية الفلسطينية، وإبراز الدور الهام الذي يمكن أن يؤديه الشركاء الإقليميون في السعي لتحقيق السلام، كما حث السيد غرينبلات ضد الخطاب غير المفيد الذي لا يؤدي إلا إلى جعل الطريق إلى السلام أكثر صعوبة.

وأوضح غرين بلات أنه ليس في المنطقة لفرض أفكار أو خطط سلام على الآخرين، وأكد مجدداً أن السلام بين إسرائيل والفلسطينيين، يمكن التفاوض عليه فقط بين الطرفين مباشرة، وأن الولايات المتحدة ستعمل بشكل وثيق مع إسرائيل والفلسطينيين لتحقيق تقدم نحو الهدف الذي يسعون إليه، كما ناقش كيفية تمكين نمو الاقتصاد الفلسطيني بشكل ملموس وتعزيز الفرص الاقتصادية للفلسطينيين حتى يتمكنوا من تحقيق كامل إمكاناتهم والمساهمة كشركاء كاملين في الجهود الرامية إلى بناء مستقبل سلمي خال من الإرهاب والتطرف.

ويخطط السيد غرين بلات لمواصلة مناقشاته مع الشركاء الإقليميين الذي عرضوا مساعدتهم، مستفيداً من مشورتهم بشأن كيفية التحرك نحو مستقبل أكثر سلاماً، والاعتماد على دعمهم وشراكتهم كما نحن جميعاً نعمل على تحقيق هذا الهدف».

بيان جرين بلات أعلن:

عدم تأييد الخطابات والقرارات التي قيلت واعتمدت في القمة العربية، وواضح تماماً أن المقصود هو ما جاء حول عدم شرعية المستوطنات الاستعمارية الإسرائيلية، وتهويد القدس وفرض الحقائق على الأرض، وتكريس وترسيخ نظام الابرتايد، وحتى مبدأ الدولتين على حدود ١٩٦٧، إضافة إلى قرارات الشرعية الدولية ذات العلاقة وخاصة قرار مجلس الأمن (٣٤٢٤) لعام ٢٠١٦.

ركز على أهمية دول الإقليم في المساهمة في صناعة السلام، واعتبر أنه لن يكون مفيداً طرح الأفكار التي سوف تُعقد طرق التوصل إلى حلول.

أكد أن أميركا لن تفرض الحلول أو خطط السلام على أحد، وأن هدفهم إعادة إطلاق مفاوضات ثنائية مباشرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين بدعم من دول الإقليم.

شدد على ضرورة تحقيق نمو الاقتصاد الفلسطيني، وذلك لجعلهم شركاء كاملين في الجهود الرامية إلى بناء مستقبل سلمي خال من الإرهاب والتطرف، لم يربط ذلك بالأمن السياسي ولم يربط ذلك بحل الدولتين، ولكن ربط بإشارة واضحة إلى حاجة الفلسطينيين إلى المساعدة والتأهيل حتى يستطيعوا أن يكونوا شركاء كاملين، على اعتبارهم ليسوا شركاء بعد ٢٦ سنة من إنطلاق عملية السلام عام ١٩٩١.

الولايات المتحدة سوف تعمل مع إسرائيل والفلسطينيين لتحقيق تقدم نحو الهدف الذي يسعون إليه، وأيضاً لم يُحدد الهدف، فإسرائيل برئاسة نتنياهو تسعى لتكريس مبدأ الدولة الواحدة بنظامين (One State Two System)، أي الأبرثايد، في حين تسعى دولة فلسطين برئاسة محمود عباس إلى تحقيق هدف الدولتين على حدود ١٩٦٧.

على أي حال قادم الأيام سيحمل في طياته إزالة كل الغموض الذي يكتنف مواقف إدارة الرئيس ترامب تجاه مبدأ حل الدولتين على حدود ١٩٦٧، وعدم شرعية الاستيطان الاستعماري الإسرائيلي، وقرار ضم القدس الشرقية المحتلة الذي رفضته ولم تقبله جميع الادارات الأمريكية المتعاقبة منذ عام ١٩٦٧.

ولكننا نستطيع القول أن إدارة الرئيس ترامب أعطت أولوية كبرى لعملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية، من حيث تعيين جيسن جرين بلات مبعوثاً لعملية السلام، واللقاءات المتعاقبة التي تجري بين إدارة الرئيس ترامب وإسرائيل وفلسطين كل على حدة، للبحث في سبل إعادة اطلاق عملية السلام.

سادساً: التوصيات:

إلى يومنا هذا وقبل إرسال هذه الدراسة للمطبعة يوم ٢٠١٧/٤/١٥، لم تعلن إدارة الرئيس ترامب تأييدها لخيار الدولتين، وصحيح أنها أيضاً لم تعلن معارضتها، لكن لا نريد أن يُعتبر ذلك تراجعاً عن مواقف الإدارات الأمريكية السابقة منذ أن بدأت عملية السلام في مدريد عام ١٩٩١.

لذلك فإن علينا كفلسطينيين وكعرب:

١. التمسك بإعلان عمان الصادر عن القمة العربية التي عقدت في البحر الميت - الأردن ٢٠١٧/٣/٢٩، أي التمسك بمبادئ مبادرة السلام العربية (٢٠٠٢)، وخيار الدولتين على حدود ١٩٦٧، ورفض الاستيطان الاستعماري الإسرائيلي بكافة أشكاله، واعتبار ضم القدس الشرقية لاغياً وباطلاً، ورفض نقل سفارة أي دولة إلى القدس الشرقية.
٢. تعزيز المواقف مع روسيا والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي حول التمسك بخيار الدولتين على حدود ١٩٦٧، وقرارات الشرعية الدولية ذات العلاقة.
٣. تكريس ذات المواقف مع الصين، منظمة عدم الانحياز، منظمة التعاون الإسلامي، الاتحاد الإفريقي، دول أميركا اللاتينية، أستراليا، كندا، وغيرها من الدول والمنظمات الدولية.
٤. الإصرار على رفض الحلول الإنتقالية والاقتصادية، والتأكيد على وجوب إيجاد حل نهائي لقضايا الوضع النهائي كافة (القدس، الحدود، المستوطنات، اللاجئين، المياه، الأسرى) استناداً لقرارات الشرعية الدولية ذات العلاقة ورفض التعامل مع جميع طروحات الحكومة الإسرائيلية حول مبدأ الدولة الواحدة بنظامين، أي الأبرتايد.
٥. استمرار سعي دولة فلسطين للحصول على العضوية الكاملة في الأمم المتحدة، وطرح ملفاتها ومشاريع قراراتها أمام مجلس الامن الدولي، الجمعية العامة للأمم المتحدة، مجلس حقوق الإنسان، المحكمة الجنائية الدولية، وغيرها من المنظمات والمؤسسات الدولية ذات العلاقة.
٦. استمرار الإنضمام للمواثيق والمنظمات والمؤسسات الدولية، ترسيخاً لمكانة دولة فلسطين وبخاصتها القدس الشرقية على حدود ١٩٦٧ كعضو مراقب في الأمم المتحدة استناداً لقرار الجمعية العامة ١٩/٦٧ لعام ٢٠١٢.
٧. ارتكازاً لقاعدة أن لا دولة فلسطينية في قطاع غزة ولا دولة فلسطينية دون قطاع غزة، يجب إزالة أسباب الانقسام، وتشكيل حكومة وحدة وطنية برنامج منظمة التحرير الفلسطينية، والعودة إلى إرادة الشعب الفلسطيني من خلال إجراء انتخابات عامة بأسرع وقت ممكن.
٨. عقد المجلس الوطني الفلسطيني بدورة عادية بأسرع وقت، وذلك لاعتماد استراتيجية سياسية

- للمرحلة القادمة، قادرة على مواجهة التحديات التي تواجه مشروعنا الوطني الفلسطيني.
٩. استمرار بناء مؤسسات الدولة الفلسطينية، وتعزيز صمود أبناء شعبنا الفلسطيني وخاصة في القدس الشرقية المحتلة عاصمة دولة فلسطين.
١٠. التعاون مع المجتمع الدولي في مكافحة ظاهرة الإرهاب بكافة أشكالها، ووجوب ربط هزيمة داعش، بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي وإقامة دولة فلسطين المستقلة بعاصمتها القدس الشرقية على حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧، على اعتبار ذلك المدخل لهزيمة التطرف والإرهاب، والذي يعتبر ركناً رئيسياً في سياسة إدارة الرئيس ترامب الخارجية.
١١. الاعداد لتحديد العلاقات مع سلطة الاحتلال (إسرائيل) تنفيذاً لقرارات المجلس المركزي الفلسطيني آذار ٢٠١٥، فالوضع القائم لا يمكن استمراره فمخطط حكومة نتياهو يستند إلى:
- إبقاء السلطة الفلسطينية دون سلطة.
 - إبقاء الاحتلال الإسرائيلي دون تكلفة.
 - استمرار فصل قطاع غزة عن الضفة الغربية، وذلك حتى يتم تدمير خيار الدولتين على حدود ١٩٦٧.
- ان تمسكنا ببعدها العربي من خلال تعميق التنسيق مع الأشقاء العرب بشكل ثنائي من خلال الجامعة العربية ولجنة مبادرة السلام العربية وكذلك الحال بالنسبة لتعزيز وتمكين العلاقات مع روسيا، الصين، الاتحاد الأوروبي، الاتحاد الإفريقي، دول أميركا اللاتينية، منظمة عدم الانحياز، منظمة التعاون الإسلامي وغيرها من الدول والمنظمات الدولية على أسس ومبادئ القانون الدولي والشرعية الدولية وقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ذات العلاقة، وتثبيتاً وتأكيداً لخيار الدولتين على حدود ١٩٦٧، أي دولة فلسطين المستقلة بعاصمتها القدس الشرقية لتعيش بأمن وسلام إلى جانب دولة إسرائيل على حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧، سوف يشكل نقطة الارتكاز في التعامل مع إدارة الرئيس ترامب وبما يحفظ أسس وركائز المشروع الوطني الفلسطيني الهادف إلى تحقيق الاستقلال الكامل والسيادة الناجزة لدولة فلسطين على حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧، وبعاصمتها القدس الشرقية.

نحن نُدرك أن هُنَاك خلافات بين الدول العربية حول كيفية التعامل مع إيران ومع حركة الأخوان المسلمين ومع أزمات سوريا وليبيا واليمن وغيرها ، ولكن فيما يتعلق بعملية السلام والتعامل مع إدارة الرئيس ترامب حول هذا الملف، فإن هناك اجماع عربي ودولي تم تكريسه في القمة العربية التي عُقدت في الأردن يوم ٢٠١٧/٣/٢٩ ، لا بد وأن يكون أساساً ومرتكزاً لنا وخاصة فيما يتعلق بالتمسك بمبادرة السلام العربية لعام ٢٠٠٢، وللقانون الدولي ولأسس وركائز الشرعية الدولية ذات العلاقة.

الهوامش:

- 1- Avis elk. Leaks of Trump's call with U.S. allies were unflattering to the allies. The Washington Post. February. 5. 2017
- 2- Demetri Sebastopulo, Trump backs one China policy in the first Presidential call to XI, Financial Times, Febraury.10.2017
- 3- Cable Nevs Network. (C.N.N). February 15..2017
- ٤- ما نقله لي معالي وزير الخارجية الأردني أيمن الصفدي، في لقاءئ معه بوزارة الخارجية الأردنية . عمان يوم ٢٠١٧/٢/١٠.
- ٥- خطاب الرئيس دونالد ترامب عقب أداء اليمين الدستورية ٢٠١٧/١/٢٠.
- ٦- خطاب تنصيب الرئيس جون كينيدي ١٩٦١، وخطاب تنصيب الرئيس جورج بوش الابن ٢٠٠١، وخطاب تنصيب الرئيس باراك أوباما ٢٠٠٩.
- 7 - United States Census Bureau. Dept. of Commerce. Washington D.C. December 2016
- 8 - CIA Facts year Book.2016
- ٩- ما قاله الرئيس ترامب في المؤتمر الصحفي مع المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل يوم ٢٠١٧/٣/١٧.
- ١٠- ما قالته سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية نيكي هيلي أثناء ترأسها جلسة مجلس الأمن الدولي يوم ٢٠١٧/٤/٥، ونقلته وكالة أنباء CNN التلفزيونية الأمريكية.
- ١١- تمت زيارة بامبيو واللقاء مع الرئيس عباس بحضور عريقات وفرج يوم ٢٠١٧/٢/١٤.
- ١٢- من محضر المكاملة الهاتفية بين الرئيس ترامب والرئيس عباس. الجمعة ٢٠١٧/٣/١٠.
- ١٣- إعلان عمان ٢٠١٧/٣/٢٩.
- ١٤- نص البيان الذي صدر عن رحلة المبعوث الخاص للمحادثات الدولية جيسن جرين بلات إلى الأردن ٢٧-٢٩/ آذار ٢٠١٧.

أوراق ثقافية

السرديات الروائية لاتفاقية سايكس - بيكو

نبيل سليمان

قبيل رحيله، وفي أعقاب الزلزال في تونس ومصر (٢٠١١)، قال سميح القاسم: "من خطايا سايكس بيكو ومشتقاتها وتداعياتها وإسقاطاتها على وطننا العربي الكبير المنكوب بسايكس بيكو: جاء في الأنباء أن الجماهير المنتصرة في القاهرة كانت تسير في الشوارع وهي تهتف: ارفعوا رؤوسكم أنتم مصريون، وليس ارفعوا رؤوسكم أنتم عرب" (الحوار المتمدن ٢٠١١/٢/٢٦). وكان سميح القاسم قد شخّص إسرائيل بحالة تاريخية نشأت في ظرف تاريخي محكوم بفضيحة سايكس بيكو. وفي مقام آخر، وفيما بين السخرية والمرارة قال إنه حين تتحرر فلسطين، ونتخلص من آثار جريمة سايكس بيكو، لن يعود هناك من مبرر لكتابة شعر المقاومة، لكنه سيكون قد بلغ عندئذٍ المئتين أو المئتين وعشرين سنة.

لأم الخطايا هذه، للفضيحة والجريمة هذه، كما سُمي سميح القاسم سايكس بيكو بأسمائها غير الحسنی، حضورها الذي لم تزده الأيام إلا حضوراً، وبخاصة وهي تكمل مئويتها، وتتجدد منذ زلزلت الأرض العربية زلزالها عام ٢٠١١. هكذا نقرأ لخطيب بدلة واحدة من إبداعاته في السخرية السياسية تحت عنوان (أهلاً عمي سايكس أهلاً عمي بيكو) في العربي الجديد (٢٠١٤/٩/١٤).

رسمت خطأ:

وها هو الخليفة الداعشي أبو بكر البغدادي يخطب في الموصل في تموز ٢٠١٤: "لن يتوقف هذا الزحف المبارك حتى ندق آخر مسمار في نعش مؤامرة سايكس بيكو". وكان داعش قد بث في صيف ٢٠١٤ فيلم (نهاية سايكس بيكو) مصوراً إلغاء الحدود بين سوريا والعراق كإعلان عن نهاية

نظام الدولة - الأمة، وتوعد داعش بأن هذه الحدود ليست الوحيدة التي سوف يزيلها. في ذلك الصيف نفسه بثت وكالة رويترز في مقالة أن اتفاقية سايكس بيكو "رسمت خطوطاً على رمال الشرق الأوسط، تغسلها الدماء".

وقد روى الكاتب البريطاني جيمس بار في كتابه (خط في الرمال) أن سايكس قال إنه يريد أن يرسم خطأ يبدأ بألف عكا وينتهي بكاف كركوك، أي بالحرفين الأخيرين من اسمي المدينتين الفلسطينية فالعراقية. ولعل هاني الراهب (١٩٣٩-٢٠٠٠) كان قد تأثر بكتاب بار في عنوان روايته (رسمت خطأ في الرمال - ١٩٩٩). ولعل للمرء أن يتقرى اتفاقية سايكس بيكو في هذه الرواية التي تتهجى قيام الحدود والكيانات والدول والدويلات الخليجية. ومن ذلك، بالسخرية والرمزية البديعتين، قول الدكتور ربيع أحمد: "نحن شعب أنشأه الإنكليز، قال، وبضعة آلاف تلملموا من عشائر الصحراء. رسم الإنكليز حولهم خطأ بقلم الرصاص، وقال: كونوا نفيطة جيم". وفي الرواية أن الجنرال فيكس قد امتشق قلماً وفتق ورقة ورسم خطأً من البحر إلى الصحراء فإلى الصحراء فإلى البحر: "قال، لتكن هذه نفيطية سين، فكانت. وقال: لتكن هذه نفيطية جيم، فكانت. قال لتكن النفيطيات، فكانت. ذلك هو الميجر فيكس صانع الدول".

الغائب الحاضر:

ثمة سرديات أخرى تكون اتفاقية سايكس بيكو فيها هي الغائب الحاضر أكثر مما يتلامح في رواية (رسمت خطأ في الرمال). وربما كان ذلك بسبب الاشتغال السردى على التأرخة والوثيقة كما في رواية ناديا خوست (أعاصير في بلاد الشام - ١٩٨٧) التي تحدد ميلاد بطلها قيس بعد اتفاقية سايكس بيكو، وكذلك روايتها (دماء وأحلام في بلاد الشام - ٢٠٠٩) التي يدور فيها الحديث في نادي الصفا حول شفق شهداء ٦ أيار واتفاقية سايكس بيكو، ومثلها رواية (الهجرة من الجنة - ١٩٨٩) التي تتحدث عن تضرر مدينة حلب من معاهدة سايكس بيكو، لأنها قطعت أوصالها مع العراق. وفي الجزء الثاني من رواية واسيني الاعرج (رماد الشرق) وهو (الذئب الذي نبت في البراري - ٢٠١٣) نرى الشخصية التي تتولى الاستذكار من ماضي فلسطين، تروي صفحات عن الموقف من العثمانية ومن الإنجليز: "ذئب خلصنا من ضبع، لكن الذئب يتمادى". كما تحضر مفردات اتفاقية سايكس بيكو في غيابها؛ حين يكتشف بابا شريف الذي رأى والده في سجن عاليه ثم معلقاً على

المشنقة، أسماء الأمير فيصل ولورنس العرب والجنرال النبي..

قبل ذلك دفع نهاد سيريس بالجزء الثاني من روايته (رياح الشمال) وعنوانه (١٩١٧). ومن حضور الغائب - الاتفاقية، ما في الحوار بين خليل عوض والأستاذ عبد الجليل وصالح بنبوك، حين يتساءل الأول: هل نتعاون مع الإنكليز أم لا؟ فالأمير فيصل عضو جمعية العربية الفتاة يرفض أن يقتنع بالأقوال التي تسربت عن أن الإنكليز والفرنسيين يحضرون شيئاً غير سعيد بالنسبة لمنطقتنا". وحين يطلب صالح بنبوك توضيحاً، يضيف خليل أن الأمر لا يزال مبهماً، والرفاق غير مقتنعين، ويثقون بالإنكليز، وهذا ما يؤكد عبد الجليل... ولا تخفى الإشارة في كل ذلك إلى تسريب الروس لاتفاقية سايكس بيكو، وإنكار الإنكليز. وستتكرر الإشارة بعد رحيل الأتراك عن حلب، وذلك في رسالة صالح بنبوك إلى زينب، حيث يحدثها عن أرمني مثقف هو وارتكس، قبض عليه في كسب وكان في روسيا، وحدثت عن ثورة الروس (١٩١٧) وإيقافهم الحرب مع الأتراك.

اتفاقية سايكس بيكو كفاعل روائي:

بخلاف ما تقدم، حضرت اتفاقية سايكس بيكو بصراحة في روايات محدودة، ولكن بدرجات متفاوتة كفاعل روائي:

الزوبعة:

في الفصل الحادي والعشرين من رواية زياد قاسم (١٩٤٥-٢٠٠٧) وعنوانها: (الزوبعة - الجيل الأول -١٩٩٤)، يتحدث السارد عن سنوات الحرب التي ضاقت بالدسائس والمؤامرات، وعبء تبدل بعدما رجحت كفة الحرب لصالح الحلفاء، وتمددت معها الثورة إلى خارج الحجاز. ويرصد السارد ما طرأ على معنويات العرب والحلفاء إثر اندلاع الثورة الشيوعية في روسيا، وتسليم الأتراك للاتحاديين الوثائق التي استولوا عليها من خزائن القيصر، والمتعلقة باتفاقية سايكس بيكو، ونصت على كيفية اقتسام الغنائم، وتوزيع الأراضي العربية، عند انتهاء الحرب. ويتابع السارد أن جمال باشا سلم الوثائق إلى شريف مكة محذراً من مؤامرة الحلفاء. لكن الشريف استفسر من الحليف الإنكليزي - ولم يسأل سواه - فنفي نفياً قاطعاً وجود مثل هذه النية، وأكد أن الاتفاقية جاءت لتحرير العرب من الأتراك. لكن تداول هذه الأخبار أصاب العرب وزعماءهم بالريبة، بينما فسر كثيرون، وبخاصة

الموالون للغرب، الأمر على أنه مناورة تركية لتأليب العرب على الحلفاء. وهكذا وجد العرب أنفسهم في معمعة، غير قادرين على التراجع ولا على التوقف، وما من سبيل أمامهم إلا بالملضيّ قدماً حتى إسقاط الحكم التركي وجلائه، ومن بعد، إن قدر لهم أن يحاربوا الإنكليز والفرنسيين فإنها مشيئة الله، وليست مشيئتهم.

على هذا النحو التقريري يتابع السارد أن نشر الوثائق السرية (الاتفاقية) لم يعد على تركيا بخير يذكر، فقد استمرت الثورة، وسقطت بغداد بيد الإنكليز الذين دخلوا فلسطين، ونزلت الأساطيل الفرنسية على شواطئ لبنان، وتحولت محطة عمّان إلى ثكنة عسكرية تعج بالآلاف من الأتراك المنسحبين من الجزيرة ومن فلسطين.

وفي هذا الموضوع قرب نهاية الرواية يأتي حوار مطول بين لورنس والجنرال اللبني الذي يأمر الجاسوس الشهير بمنع الأمير فيصل من دخول سورية: "لن يسبقنا هذا البدوي إلى دمشق". وحين يسأل لورنس: "لماذا أنت محتد؟" يرد اللبني بأن سوريا منطقة نفوذ فرنسي، بمقتضى الاتفاق. فيتابع لورنس أنكم قلتم إن الاتفاق مجرد أوراق، ويعقب اللبني كما الحكيم: "كل شيء في الدنيا مجرد أوراق" بما في ذلك أنت وأنا". وحين يسأل لورنس عن العرب الذين لولاهم لما هزمت تركيا، يجزم الجنرال أنها كانت ستهزم، وربما كانت الحرب ستطول قليلاً بدون العرب. ويتابع الجنرال رداً على ما يقرره لورانس من أن الجنرال أصبح سياسياً، بأنه ينفذ الأوامر التي تحدد سوريا كمنطقة للنفوذ الفرنسي، والفرنسيون لن يسكتوا على دخول فيصل إلى دمشق، لذلك على لورانس أن يواصل المشوار ويمنع فيصل من الدخول "من أجل بلادك".

لكن لورانس لا يرى في ذلك إلا مشكلة فرنسية، بينما يقرر اللبني أنها مشكلة إنكليزية أيضاً "على كل منا أن يحترم الاتفاق ويساعد في تنفيذه".

أعدائي:

في الفصل السابع والعشرين من رواية ممدوح عدوان (١٩٤١-٢٠٠٤) وعنوانها: (أعدائي-٢٠٠٠)، أي قرب نهايتها، يعبر شكري العسلي الضابط العثماني الهارب من الجبهة الروسية التركية، للأمير فيصل عن قلقه من وعد بلفور، فإذا بالأمير قلق مثله رغم تطمينات والده، وينتظر التوضيح الذي سيأتي

به لورنس. ولسوف يقضي شكري العسلي مع شهداء ٦ أيار، بينما يسأل لورنس الأمير عما يعكر مزاجه: "هل هو بسبب ما يشاع عن اتفاقية سايكس بيكو؟" فإرد الأمير: "ليست وحدها، ولست وحدي القلق، كلنا قلقون من وعد بلفور".

على هذا النحو من سَوِّق المعلومة التاريخية عارية أو شبه عارية، كما تقدم في رواية (الزوبعة) أو في روايات واسيني الأعرج وناديا خوست، تحضر اتفاقية سايكس بيكو في رواية (أعدائي)، وبخاصة في صياغة السارد الطويلة لخطاب جمال باشا في بيروت بعد فضح الاتفاق، وقبل مغادرته إلى ألمانيا، حيث روى أن الخارجية الروسية المنسحبة من التحالف بعد الثورة، نشرت اتفاقاً سرياً بين سايكس وبيكو، يتضمن أن المنطقة العثمانية التي يطمح الشريف حسين إلى حكمها بصفتها دولة عربية وبصفتها ملكاً عليها، سيتم تقاسمها بين الإنكليز والفرنسيين، وأن اليهود يعملون لصالح الإنكليز لأنهم وعدوهم بتحقيق حلمهم بدولة يهودية في فلسطين. ويتابع جمال باشا أن التفسيرات التي قدمت للشريف حسين تجعله يظهر بمظهر البدوي المغفل حين يتحدث عن العلاقة مع اليهود من خلال القرابة وتقاليد الضيافة في عالم جديد قائم على المخططات والمشاريع، والشريف بذلك يدخل عالم السياسة المعاصرة بعقلية مشايخ العشائر.

ويعلن جمال باشا أنه لكي يبرئ ذمته أمام الله والتاريخ والعرب والمسلمين، لكأن دماء شهداء ٦ أيار وسواهم ليست في رقبته، أرسل نسخة من اتفاقية سايكس بيكو إلى الأمير فيصل في العقبة، دعاه فيها إلى الانشقاق عن الإنكليز، والتعاون معه قبل فوات الأوان. كما أرسل نسخة من الاتفاقية إلى الأمير عبدالله الذي كان من أكثر المتحمسين والمشتغلين للاتفاق بين والده الشريف والإنكليز، ولم تزعه الاتفاقية، بينما اضطرب فيصل، وأرسل الاتفاقية إلى أبيه يسأله الرأي، فأرسلها الشريف حسين إلى الإنكليز الذين شكروه على ثقته. وتصميماً من جمال باشا على إبراء ذمته يرسل الاتفاقية إلى جعفر العسكري القائد الأعلى لدى الأمير فيصل، لكي يكون الضباط العرب المخدوعون على بينة من أمرهم، ولكي يعرفوا إلى أين يقودون أمتهم وهم منخدعون بالشريف.

قبل ذلك، في الفصل الثاني والعشرين، يقود بطل الرواية عارف إبراهيم الجاسوس الصهيوني ألتز من القدس إلى دمشق. وفي حوار بين الرجلين يقول ألتز إن (تحالفاتنا مع (أصحابكم الإنكليز والفرنسيين) صارت أقوى من (تحالفاتكم). ويتنبأ للمستقبل العربي الباهر أنه سيكون على العرب

أن يتخلصوا من الإنكليز والفرنسيين ونتائج معاهدة سايكس بيكو، ثم أن يتخلصوا من تخلفهم وحكامهم الذين سينصبهم الإنكليز والفرنسيون، والذين لن يصعب شراؤهم على الصهاينة أو على غيرهم. وفيما يبدو خطاباً لنا في مئوية اتفاقية سايكس بيكو يقول ألتز: السلسلة طويلة، ستستغرق منكم أكثر من مئة سنة، وخلال ذلك سنكون قد حققنا حلمنا.

مدارات الشرق:

يسعى كاتب هذه الرواية الرباعية إلى أن يلتقي القنصل الفرنسي في بيروت: جورج بيكو، بعدما تردد أنه سيكون قريباً جداً مندوباً سامياً لمتابعة شؤون الشرق الأدنى، وسيفاوض البريطانيين في مستقبل البلاد العربية. لكن اللقاء لم يتحقق لسبب ما، فلحق الكاتب بالمندوب السامي بيكو إلى القاهرة. لكن بيكو اختفى ربما في أعماق النيل أو في أعماق هرم خوفو، ومعه نظيره البريطاني مارك سايكس. ومع الرجلين اختفى المندوب الروسي. وسيعلم الكاتب بعد عودته خائباً أن الروسي أشرف على مفاوضات الإنكليزي والفرنسي، والتي تتوجت باتفاقية القاهرة السرية، ثم توجه المندوبون الثلاثة إلى بطرسبرغ حتى توالى المفاوضات التي تتوجت بما سيرف باتفاقية سايكس بيكو. وكان ليون تروتسكي، وزير خارجية روسيا بعد ثورة ١٩١٧ هو من أسر للكاتب بذلك وبسواه.

عندما رفر علم الثورة العربية التي أطلقها الشريف حسين، ابتهج الكاتب. لكنه ابتأس عندما قيل إن مارك سايكس هو من صمم ذلك العلم، أو حدد ألوانه على الأقل. وسيتضاعف ابتئاس الكاتب عندما يتخلق ذلك العلم لعلماً لفلسطين أو لعلماً لحزب البعث العربي الاشتراكي أو لعلماً للأردن.

هكذا كانت حال الكاتب عندما ابتدأ مغامرة روائية ربيع عام ١٩٨٦، ولم تتوقف حتى ربيع ١٩٩٣، وذلك بصدور الجزأين الثالث والرابع من رباعية (مدارات الشرق). أما الجزءان الأول والثاني فقد صدرا عام ١٩٩٠، وفيهما كان لاتفاقية سايكس بيكو ما كان. ومن أجل ذلك بلغ (بي) الحفر في الوثائق وكتب التاريخ والمذكرات والدوريات أن تمهيت بمارك سايكس وجورج بيكو، ليس فقط لأرى رأي العين كيف تم التوقيع عليه في نيسان ١٩١٦، ولا كيف انضمت إليه إيطاليا بعد شهر، بل لأرى كيف ترسم الخرائط وتقوم الدول، ليس فقط في أمس قريب أو بعيد، بل في حاضر طريف، وربما في مستقبل أين منه ما سبقه.

الأشعة:

في مستهل الجزء الأول من (مدارات الشرق) وهو (الأشعة) يسرع سليم أفندي إلى بيروت حين ارتفع فيها العلم العربي. لكن الفرنسيين سبقوه، وأبهظه القلق على العلم الذي لم يكذب يبرق في طرابلس أو اللاذقية أو أنطاكية، حتى رمي أرضاً. وحين يجلس سليم أفندي: "الآن بدأ تاريخ هذه البلاد" يعبر صديقه الباشا شكيم عن خشيته من أن يكون هذا التاريخ قد بدأ من قبل في رؤوسهم: الإنكليز والفرنسيون واليهود وربما سواهم.

بعد قليل من النصر الملمع الباهت، ومنذ أهلاً عام ١٩١٩، أخذت المظاهرات تجوب الشام / دمشق يوماً تقريباً. ومن شخصيات الرواية العاملين المتظاهران هولوا وعبد الودود اللذان يدركان أن رحيل الأتراك لم يجلب غمة الشام بعدما قُطعت تقطيعاً، فالاستقلال الذي يعد به (القصر) لن يكون غير انسحاب للإنكليز من الشباك، ودخول الفرنسيين من الباب. وعبد الودود ينقل مما يسمع في مجلس سليم أفندي من الأعيان: هذا يفضل الإنكليز، وهذا فرنسا، وثالث: أميركا، وهذا يغمز من القصر ومن الأمير فيصل، وهذا ينصح بالصبر، وثالث: لا نجاة إلا بالقتال، والروس لاهون بأنفسهم.

وفي غمرة ذلك، أي في تموز ١٩١٩، تحضر لجنة كينغ - كراين الأميركية إلى دمشق على إيقاع رفض المؤتمر الوطني السوري لاتفاقية سايكس بيكو، ولوعد بلفور. وكان حضور اللجنة لـ (استفتاء) الناس عما يرغبون لبلادهم. ومما تصور الرواية تجمهر المتظاهرين أمام أوتيل فكتوريا، حيث تنزل اللجنة، وثمة من يؤكد أنها لن تقبل لعبة سايكس وبيكو، ولا اللعبة اليهودية في فلسطين. ويعلو صوت أحدهم عما قال الناس في القدس: إن لم تتوقف هجرة اليهود، فلما أن نلقاهم في البحر أو يردونا إلى البادية. ومن الهتافات التي صدعت اللجنة (لا وصاية ولا حماية) و(الاستقلال أو الموت) ونشيد (أنت سوريا بلادي) في إيقاع بدائي حار، يجعل الأجساد نفوساً مشبوبة، والنفوس أجساداً تتفجر رغبة وعنفاً.

لقد كان هاجسي الأكبر في (مدارات الشرق) كما في سائر رواياتي، هو في تسريد الوثيقة والخروج من إهابها، ومن إهاب التارخة، ليتخلق البشر والوقائع والجغرافيا روائياً، بفضل التخيل، ولتكون أخبوات، فتصير الرواية هي الوثيقة، وليس العكس، وتصير الرواية حفراً في التاريخ، وليس ملخصاً له ولا نسخاً عنه. وقد بدأت (الأشعة) بوصول خمسة من عناصر جيش الأمير فيصل الذي بلغ دمشق. وفيما يستعيد

أولاء من طريقهم إلى دمشق، يبرز سادسهم حمادي الحسون الذي فرَّ بعدما اصطخب الفضاء بالمناشير التركية التي تفضح خديعة الإنكليز والفرنسيين، حتى أعلن ضباط العصيان، وهتف حمادي مع من هتفوا: نقاتل الإنكليز أولاً. وحين يمضي أحدهم (راغب الناصح) إلى مخفر (العال) في الجولان، بصحبة الشاويش، سيزوره عزيز اللباد من زمرة الجنود الخمسة الذي يتساءل: "لماذا تطمع الدنيا ببلادنا؟ بل لماذا تطمع الناس ببعضها؟ ماذا يضرهم لو تركونا نعيش بسلام؟ هل كتب الله علينا ذلك؟ مرة الأتراك ومرة الإنكليز ومرة الفرنسيين، وها هي فلسطين تبتلى بالصهيونية..". لكن الشاويش لا يرى في الأمر خديعة، بل هي السياسة: دهاء وشطارة كما يقول الكبار (الضباط). على مستوى آخر هو لعلية القوم، ثمة الست لميعة زوجة المستر بيجيت وشقيقة الباشا شكيم، تحدث شقيقها عن أن الحكومة التي أعقبت رحيل الأتراك ليست خارجة على سلطة الإنكليز والفرنسيين معاً، لأن سوريا قانونياً هي جزء من بلاد العدو المحتلة، وجيش سوريا جزء من جيوش الحلفاء التي حررت بلاد العدو. ولقد وقف الباشا الكهل مع الشباب في قرار المؤتمر السوري رفض اتفاقية سايكس بيكو وتعديلاتها، ورفض الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وطلب المساعدة من أميركا على بريطانيا. إلا أن صوت الست لميعة وما يمثله يختم (الأشعة) بتقسيم سوريا إلى سبع دول، فيتفجر السؤال الملتاع عن دولة دمشق ودولة حلب ودولة العلويين ودولة لبنان الكبير أو الصغير ودولة الدروز ودولة أخرى في فلسطين ودولة سابعة شرقي الأردن، وسوى ذلك خلف الحدود التي رسموا لسوريا من كل ناحية. ولم يبق إلا أن يحددوا فوقها للشمس كيف تدور.

بنات نعش:

في الجزء الثاني من (مدارات الشرق) وهو (بنات نعش) يتركز حضور اتفاقية سايكس بيكو وما تفتق عنها في الآثار الفلسطينية لكل ذلك، وبخاصة عبر شخصية عمر التكلي الذي أسند له الباشا شكيم أن يدير أملاك زوجته في سهل البطيحة في الجولان، حيث القوافل الذاهبة الآبية من القرى الجولانية إلى صفد أو الناصرة أو النبطية أو الشام. وإذ قرر عمر أن يضبط عمل الجمالة الذين يهزبون الكيروسين من صفد، قرر أن يزور صفد والناصرة. وفي الطريق استهوته طبريا وحماماتها، واستوقفته الحولة وقلعة الحصن المقبلة عليها، وصيب نهر بانياس فيها. أما في صفد، حيث اصطخب مساعده طه، فقد عقد صفقة صغيرة، لأن القدوم إلى فلسطين كان قد غدا متعباً بعدما

شدد الإنكليز على الحدود مع سوريا، ورفعوا الرسوم الجمركية. ومن صفد إلى نابلس، ومن عاهرة يهودية إلى أخرى تجددان لعمر ذكرى علاقاته مع سارة أو صليحة أو المغنيات اليهوديات في دمشق، يمضي الرجل دون أن تهدأ شكواه من الإنكليز كأهنا لا يريدون له أن يعمل في فلسطين.

أما هولو، شقيق عمر ونقيضه، فقد أقام فترة في حي المنشية في حيفا بعد ما صار اتفاق سايكس بيكو واقعاً. وفي حيفا يلتقي بالشيوعي بديع الطارة وأصدقائه، ويرى المستعمرات الصهيونية على الساحل "كأنهم يسابقون الزمن". وتتفجر هواجس هولو: "كيف يقبل ملك في مكة أو في الشام أن تكون فلسطين ملجأ لليهود، ثم يتشاطر ويشترط السيادة العربية؟ يؤيد هجرة اليهود ثم يتحرز على المبالغة فيها، يؤيد التعاون مع الصهيونية ثم يتحفظ على تأسيس دولة (...). والله لم يقصّر، لا اليهود ولا الإنكليز، حين رفضوا أن تكون فلسطين تحت عرش من يلعب هكذا". ويرصد هولو في حيفا أصداء الثورات في سوريا، على الرغم من أن هزائم الثوار بدأت تتواتر، لكن حيفا لا تتحدث إلا عن إخفاق الفرنسيين.

وقبل ذلك، كانت فرنسا قد خصصت قطاراً مسلحاً لنقل بلفور من حيفا إلى محطة القدم في دمشق. لكن المحتشدين في المحطة هاجموا القطار، فهرب الفرنسيون بلفور إلى السيارة للأوتيل، حيث احتشد المتظاهرون، واضطر الفرنسيون إلى تهريب بلفور من الباب الخلفي للأوتيل، والإسراع به إلى بيروت. وكان هولو التكلي من شخصيات الرواية التي شاركت في ذلك، كما شارك سواه في ذيول أخرى لاتفاقية سايكس بيكو، في سوريا أو لبنان أو فلسطين، وبقدر ما كانت الاتفاقية وذيولها وما تفتقت عنه فاعلاً حاسماً في حيوات الشخصيات الروائية، سواء من المقاومين بمختلف أشكال المقاومة، أم من المنخرطين في الركب الفرنسي.

ولعل ما هو أولى بأن يختم هذه الرسوم لسرديات اتفاقية سايكس بيكو، هذا الذي اقترحه الفلسطيني المقيم في كندا: نور الدين الشريف، من إنتاج أفلام كرتون للأطفال حول قضايا كبرى، فتحل، مثلاً، شخصيات مثل جورج بيكو وكارل سايكس محل الباتمان والسوبرمان والبوكمون. وإذا يستعرض صديق للشريف ما يشغل الأطفال الآن من حروب في الفضاء الخارجي، ويضرب مثلاً بانفجار كوكب وتحول بقاياها إلى كويكبات، يلتقط الشريف الفكرة ويصوغها في قصة (أعرف ماذا سأكون) محدثاً الأطفال عن أننا كنا في الماضي البعيد كوكباً واحداً، حتى هاجمنا سايكس وبيكو على متن سفينة فضائية، فتم تدمير الكوكب، وتحولت بقاياها إلى كواكب صغيرة بلغت العشرين. وهكذا،

من مشهد إلى مشهد، سيرى الاطفال بعد قرن من اتفاقية سايكس بيكو، كيف صارت شظية من كوكبنا مثل خريطة فلسطين، وشظية مثل خريطة العراق، وشظية مثل خريطة الكويت..
أما أنا، فما أخشاه أن يكون خيال (مدارات الشرق) أو خيال أية سردية لاتفاقية سايكس بيكو، قاصراً عما ينتظرنا من اتفاقية سايكس بيكو القادمة التي تعد بتواقيح أكبر وبتذير أكبر.

الأدباء الفلسطينيون الأوائل .. حكايات تمتد منذ القرن التاسع عشر

بديعة زيدان

من الصعب إمكان تقديم بانوراما شاملة عن الأدب الفلسطيني شعراً ونثراً وترجمة في مطلع القرن العشرين، أو حتى في نهايات القرن التاسع، وحتى النكبة، في دراسة واحدة، ودون أن يعتري هذه الدراسة نقص هنا، أو هناك، وعدم التفات لمرجع مهم بالعربية أو بلغات أخرى، فهناك من أعدوا كتباً حول هذا المحور الهام، واختلفوا فيما بينهم بالتأريخ والأسبقيات، وحتى التحليل أحياناً، لكن المؤكد أن الفلسطينيين لم يكونوا غائبين في كتاباتهم، وحتى الإبداعية منها، عن الوعي القومي والوطني، وعن مقاومة الانتداب أو الاحتلال البريطاني، أو المشاريع الصهيونية الاستعمارية، ففي العام ١٩٠٨ تم تأسيس صحيفة الكرمل الفلسطينية في حيفا لمقاومة «الاستعمار الصهيوني»، وبعدها بثلاثة أعوام صدر أول كتاب بالعربية عن الصهيونية للصحافي نجيب نصار بعنوان «الصهيونية: تاريخها وأهدافها وأهميتها»، وليس ذلك فحسب، حيث نشر لإسعاف الناشبي قصيدة في العام ١٩٠٩ في مجلة النفائس العصرية بعنوان «يا فتاة الحي»، جاء فيها:

يا فتاةَ الحيِّ جُوديَ بالدماءِ	بدلَ الدمعِ إذا رُميتِ البكاءِ
فلقد ولّت فلسطينٌ ولم	يبقِ يا أختَ العلا غيرُ ذمّاءِ
نكبْتُ أقدامها سُبُل الهدى	فَسَرَّتها للعدا شرَّ شراءِ
سوف تشكين وتبكين دماً	يومَ لا يُجدي ولا يغني البكاءِ
فدعوا شحناءكم يا هؤلاءِ	وانبذوا البغضاءَ نبذاً والعداءِ

إن الاستعمار قد جاز المدى
دون أن يعدوه عن سيرِ عداء
إن هذا الداء قد أمسى عيَاءً
فتلافوه سريعاً بالدواء
إنها أوطانكم فاستيقظوا
لا تبيعوها لقومٍ دخلاء
فاعلموا يا قومٌ إن لم تعلموا
أن عُقباكم هلاكٌ وفناء
اذكروا إنْ غرَّكم ما لهمُ
عزَّةُ الأنفسِ دوماً والإباء. (١)

وشارك الناشيبي في المجالس والندوات الأدبية والفكرية المقدسية، وأبرزها تلك التي عرفت بـ“حلقة الأربعاء”، والتي كانت تعقد في مقهى “المختار”، نسبة إلى مختار طائفة الروم الارثوذكس عيسى بن ميشيل الطبة، وهو المقهى الذي اشتهر فيما بعد بـ“مقهى الصعاليك”، وكان من أشهر رواده الشاعر والأديب والمربي خليل السكاكيني، وإسحق موسى الحسيني، والصحافي يوسف العيسى أحد مؤسسي جريدة فلسطين» في يافا، وجريدة ألف باء في دمشق العام ١٩٢٠، ويعقوب فراج، والشاعر الصحافي عيسى داود العيسى مؤسس جريدة فلسطين، والصحافي عادل جبر صاحب جريدة الحياة المقدسية، والشاعر اللبناني رشيد نخلة المنفي إلى القدس منذ العام ١٩١٣ من قبل جمال باشا السفاح قائد الجيش العثماني الرابع في سوريا، بسبب ما كان يخشاه من شعوره القومي، والمعلم اللبناني نخلة زريق.

وابتداء من العام ١٩١٩، بدأ المقهى يتكرس كملتقى للمثقفين، ومنذ العام ١٩٢٠ تقريباً أصبح زبائن المقهى يقتصرون على الأدباء والشعراء والمثقفين والسياسيين إضافة إلى أفراد الرعية الأرثوذكسية. وتشير المراجع التاريخية ذات العلاقة، أن المقهى كان يعج طيلة سنوات الاحتلال البريطاني بمثقفي مدينة القدس وجوارها وكذلك المثقفين الوافدين من حيفا ويافا وعكا وغزة وغيرها، من أمثال: أحمد الشقيري، وأكرم زعيتر، ونيقولا حنا، وشريف القبح، وعبد الحميد ياسين، وتوفيق عبد الرازق، ورفعت الشهابي، وصالح عبد اللطيف الحسيني، والمحامي حسن صدقي الدجاني، وأحمد سامح الخالدي، وأحمد عزت الأعظمي، ومحمد البديري، ومنيف الحسيني، وطاهر الفتياي، وخالد الدزدار، وداود الكردي، وإميل الغوري، وعلي محيي الدين الحسيني، وأديب الخوري، ويوسف مرنيس، وداود ترزي، وعبد الله

البندك، وجميل مسلم، وصبحي الطاهر، وجبرائيل شكري ذيب، وعيسى الناعوري، واسكندر الخوري البيتجالي، وجميل البحري، ومترى حلاج، وكمال عباس، ورشيد الحاج إبراهيم، وهاني بشير، وصبحي فؤاد الرئيس، وهاني أبو مصلح، وعزت القاسم، وقيصر أبيض، وجان سويدان، ومنير إبراهيم حداد، وعزمي النشاشيبي، وحنا فضولة، وفهمي الحسيني، وخليل الدجاني، وعارف العزوني، وسعيد الخليل، وجورج صالح الخوري، وسليم الحلو، ويوسف سلوم، وطانيوس نصر، وجورج عازر، وجودت حبيب، وشوكت حماد، وصليبا عريضة، وزهدي السقا، ومحمود سيف الدين الإيراني، والدكتور اسكندر حليبي، وادمون روك، وميشيل عازر، وعمر العزوني، ويوسف حنا. (٢)

كما كان يشارك في الندوات الأدبية عدد من الضيوف من الشعراء والأدباء العرب الذين يفدون على القدس عرف منهم: الشاعر خليل مطران، وأحمد زكي باشا .. ومن رواد الندوات والمجالس الأدبية التي كانت تعقد في ذلك المقهى عدد من رجالات السياسة العرب المنفيين إلى فلسطين من قبل السلطات الفرنسية أو اللاجئين إليها بعد انهيار الحكومة العربية التي أنشأها الملك فيصل بن الحسين ما بين العامين (١٩١٨-١٩٢٠)، وكان منهم المفكر والمناضل الوطني اللبناني علي ناصر الدين، وفي فترة لاحقة انضم إليهم رفيق الحسيني، وانطاس حنانيا، وايجور فراج، بالإضافة إلى عدد من المحامين والأطباء والتجار المهتمين بالأدب والثقافة.. وكانت تلك المجموعة هي النواة التي أطلق عليها خليل السكاكيني لقب «شلة الصعاليك»، وفي العام ١٩١٩ أسسوا معاً حزباً خاصاً بهم أطلقوا عليه «حزب الصعاليك»، وظهر على الملأ العام ١٩٢١ (٣)

وربما يتساءل البعض عن أسباب القفز للحديث عن مقهى الصعاليك .. إن كان هناك من يرى فيه قفزاً بالأساس، فإنه يأتي لتقديم لمحة عن أدباء ذلك الزمان المحيط بوعده بلفور المشؤوم، من خلال رواد هذا المقهى، ومن بينهم النشاشيبي، الذي قالت د. سلمى الخضراء الجيوسي إن «محاولاته في نظم الشعر كانت ضعيفة، ولكن تأثيره كان كبيراً على مواطنيه في فلسطين، بسبب اهتمامه الشديد بالأدب العربي، بما في ذلك الشعر، كما حاز على شهرة محلية وعربية بصفته خطيباً مفوهاً وكاتباً لطراز رفيع من النثر». (٤)

الشعراء الفلسطينيون الأوائل

على الرغم من عدم ذكر شعراء ذوي مكانة بارزة في فلسطين بالقرن التاسع عشر، إلا أن هذا لا ينفي ظهور بعض الشعراء في فلسطين في ذلك القرن، ومنهم: يوسف النبهاني (١٨٤٩-١٩٣٢) صاحب ديواني «النظم البديع في مولد الشفيح»، و«المدائح النبوية»، و«الرأية الكبرى»، وسعيد الكرمي (١٨٥١-١٩٣٥) الذي ترجم له أدهم الجندي في «أعلام الأدب والفن» (١٩٥٤)، وعلي الريماوي (١٨٦٠-١٩١٩)، وقيل إنه «شاعر مجيد علت شهرته قبيل الحرب العالمية الأولى»، والشيوخ محيي الدين الملاح أحد قضاة يافا في ذلك الزمان.

أما في بداية القرن العشرين، لا سيما بعد الحرب العالمية الأولى، فقد جدّت عوامل كان لها الأثر الإيجابي في تعزيز حركة الشعر بفلسطين، ومن ذلك ظهور الطباعة وازدهار الصحف، ولا سيما صحيفة «النفائس» لخليل بيدس، وانتشار التعليم الابتدائي والمتوسط، وظهور المعاهد العالية مثل المعهد الروسي في الناصرة، والكلية العربية في القدس، وتزايد الصلات الثقافية بين الغرب والشرق، واطراد البعثات الدراسية، وظهور بعض الجمعيات الأدبية، ومنها «جمعية الآداب» في القدس. وهذا كله أدى إلى تزايد العناية بالشعر قراءةً وتأليفاً.

ومن شعراء الحقبة الممتدة ما بين الحرب العالمية الأولى والنكبة: محمد إسعاف النشاشيبي (١٨٨٥ - ١٩٤٧)، وبولس شحادة (١٨٨٢ - ١٩٤٣)، وإسكندر الخوري البيتجالي صاحب المجموعات الشعرية: «زفرات» (١٩١٩)، و«مشاهد الحياة» (١٩٢٧)، و«دقات قلب»، و«الطفل المنشد»، و«المثل المنظوم»، و«آلام وآمال»، الذي يضم قصائد كبيرة عن مأساة فلسطين.

ومنهم أبو إقبال اليعقوبي (١٨٨٠ - ١٩٤٩)، وله مجموعتان شعريتان إحداهما بعنوان «حسنت اليراع»، وثانيتها بعنوان «النظرات السبع»، كما يضاف إلى الشعراء المذكورين، الشاعر إبراهيم درويش الدباغ (١٨٨٠ - ١٩٤٦) الذي صدر ديوانه الأول «الطليعة» (١٩٣٧) في مصر.

وقد شحذت روح المقاومة التي أبداهها شعب فلسطين إزاء المؤامرات التي حاكها الانتداب أو الاحتلال البريطاني والمنظمة الصهيونية العالمية ضده روح الشعر، ووجد المثقفون الفلسطينيون في القصيدة أداة للتحريض الفعال لا يجدونها في النثر. (٥)

ويوضح إبراهيم عبد الستار في كتيبه «شعراء فلسطين العربية في ثوراتها القومية» (١٩٤٤)، حجم الإقبال على نظم الشعر واتخاذها وسيلة من وسائل التحريض والتعبئة النفسية ضد الغزاة. وإيقاظ الهمم وانبعاثها والتحذير مما يخبئه المستقبل.

وفي هذه الأجواء لمع شعراء ولدوا في إبان المؤامرة ومنهم: عبد الرحيم محمود، وعبد الكريم الكرمي الملقب بأبي سلمى، وإبراهيم طوقان، وفدوى طوقان، ومطلق عبد الخالق، وحسن البحيري، ومحمد حسن علاء الدين، ومحيي الدين الحاج عيسى الصفدي.

وبعض هؤلاء الشعراء ولدوا قبل النكبة، وفي ظل المؤامرة، لكن عطاءهم الشعري تجلى بعدها من أمثال: محمود سليم الحوت، وكمال ناصر، ومعين بيسيسو، وسلمى الخضراء الجيوسي، وهارون هاشم رشيد، وبرهان الدين العبوشي، ومحمد العدناني، ويوسف الخطيب، وخليل زقطان، وخالد نصره، وأمينة شنار، ومحمد العزة، وسعيد العيسى، ورازي صدوق، وأيوب طه، وعدنان النحوي. (٦)

ووصف الشاعر ابراهيم طوقان بأمير شعراء الوطنية، وقد كان إيلاء هذا الموقع الخاص لابراهيم طوقان ذا دلالة تاريخية، فمع أن الباحث التزم بتثبيت أسماء الشعراء حسب التسلسل الأبجدي، إلا أنه توقف عند طوقان، نظرا لدوره الريادي في الشعر الوطني المبكر، فهو من مواليد سنة ١٩٠٥، واشتباكات مع الشعراء الصهاينة مشهورة، وكذلك دعوته الملحة إلى جمع الكلمة الفلسطينية، بعد أن كانت الحركة الوطنية منقسمة بين حسيني ونشاشيبي، وقد اهتم الباحث بالشاعر طوقان بوصفه مصلحا اجتماعيا، وموجها وطنيا، ذا خطاب فلسطيني صميم منبثق من وعي عربي واضح. و ابراهيم طوقان الذي تميز بالنبرة الساخرة لم يتوقف عن التهكم حتى على عمله في التدريس، وهو القائل: «يا من يريد الانتحار وجدته إن المعلم لا يعيش طويلا»

وإلى ذلك، تميز هذا الشاعر المطبوع بالغزل الرقيق، وإن ظل محافظا متحفظا، إلا في القصائد الماجنة غير المنشورة التي لم يشر إليها الباحث، فضلا عن اخوانياته ومداعباته الشعرية مع شعراء جيله من أمثال أبي سلمى وجلال زريق. (٧)

وكان طوقان في طليعة الشعراء الأوائل (١٩٠٥ - ١٩٤١)، حيث عبّر تعبيراً مؤثراً، بلغة نارية محكمة، عن أعمق مشاعر الفلسطينيين في كل مكان، فكسب بذلك شهرة عظيمة في العشرينات

والثلاثينات .. واشتهر عدة شعراء آخرون قبل نكبة العام ١٩٤٨، وكانوا كلهم، باستثناء مطلق عبد الخالق (١٩١٠ - ١٩٣٧)، وفدوى طوقان (المولودة سنة ١٩١٧) في أول عهدهما، شعراء وقفوا شعرهم على المواضيع السياسية، وجعلوا من أنفسهم متحدثين باسم بلادهم ومحتتها. (٨).

ويستحق اثنان من الشعراء أن يشار إليهما بشكل خاص، وهما عبد الرحيم محمود (١٩١٣ - ١٩٤٨)، وعبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» (١٩١١ - ١٩٨٤)، حيث تقوم شهرة عبد الرحيم محمود على مشاركته الفعلية في الحياة السياسية، فقد كانت قصائده البليغة المشحونة بالعاطفة تتنبأ، منذ أواخر الثلاثينات، بمصير الفلسطينيين، أما الشجاعة والتضحية بالنفس دفاعاً عن الشرف والوطن، وهما صفتان عبر عنها محمود في شعره كذلك، فقد كانتا صفتين متلازمتين له، وجاءت ذروة التعبير عنهما باستشهاده في ساحة المعركة العام ١٩٤٨.. وتكمن هذه المشاركة في الحياة السياسية وراء شهرة أبي سلمى كذلك، فقد بدأ الكتابة في الثلاثينات متغنياً بشجاعة الفلسطينيين ومقاومتهم، ومؤكداً على الوحدة الدينية للفلسطينيين «حين يعانق الصليب الهللاً»، هو الذي عاش بعد العام ١٩٤٨ لاجئاً في دمشق يعبر عن آلام الفلسطينيين وآمالهم في كل أنحاء العالم. (٩)

وفي كتابه حول نشوء ونهضة الأدب الفلسطيني، يشير د. سليمان جبران الى كثرة عدد الشعراء من مطلع القرن العشرين وحتى النكبة، وهي الفترة التي يرى انها كانت الحاسمة في نشوء الادب الفلسطيني وتميزه القومي والجغرافي، ويتناول اربعة شعراء يرى انهم يمثلون الشعر الفلسطيني في عهد الانتداب خير تمثيل، سواء في مضامين هذا الشعر او اساليبه الفنية، والشعراء هم: وديع البستاني، الذي يرى فيه رائداً للشعر الفلسطيني، والشاعر ابراهيم طوقان شاعر فلسطين الاول، والشاعر عبد الرحيم محمود الذي اتبع القول بالفعل، والشاعر عبد الكريم الكرمي الذي عاش نصف حياته مشرداً بعد نكبة فلسطين، وهو شاعر الغنائية في الشعر الفلسطيني، كما يصفه .

ويرى جبران ان بداية الشعر الفلسطيني الحقيقية كانت في مطلع القرن العشرين، استجابة لاحداث كبرى أهمها المشروع الصهيوني الذي أخذ يتحقق للعيان، ثم الدستور العثماني (١٩٠٨)، ونشوب الحرب العالمية الاولى والثورة العربية الكبرى (١٩١٦)، ثم وعد بلفور (١٩١٧) حتى بداية الانتداب البريطاني (١٩٢٢)، هذه هي الاحداث الكبرى التي هزت المجتمع الفلسطيني، من الاعماق وشكلت العوامل الحاسمة في بلورة الانتماء الفلسطيني بعيداً عن الانتماء الاسلامي العثماني،

ومتميزا عن الانتماء القومي العربي(١٠).

واختم هذه الإطالة السريعة على الشعراء الأوائل، بأبيات شعر لإسكندر الخوري البيتجالي من قصيدته «نحن نسل الأقوياء»، قال فيها (١١) :

نحن نسلُ الأقوياء	الغالبينَ	الفاتحينَ
نحن نسلُ الأنبياء	المرشدينَ	المرسلينَ
أيها الشعبُ المقتدى	حسبنا هذا	القعودُ
قم لكي نُحرزَ مجداً	علَّ ماضينا	يعود
لا نعيذُ المجدَ إلا	باتحادٍ	واجتهادٍ
لا ولن نحسُّ فعلاً	إنَّ فقدنا	الاتحادَ (١١)

الأوائل في السرد

الفن السردى الفلسطيني في أوائل القرن العشرين، بشقيه الروائي والقصصي استوحى في مراحل المبكرة القصة الغربية المترجمة إلى اللغة العربية بالمقاوم الأول، وكانت هذه الحالة في البلدان العربية بأسرها، وبرز منهم في بدايات هذا القرن خليل بيدس (١٨٧٥ - ١٩٤٩)، وأحمد شاعر الكرمي (١٨٩٤ - ١٩٢٧)، وجميل البحري (توفي في العام ١٩٣٠)، وبرز تأثيرهم لكون كل منهم أسس مجلة أدبية خاصة به وأشرف على تحريرها بنفسه، وغدت تلك المجلات منابر مبكرة لنشر القصص التي كان أغلبها مترجماً عن اللغات الأوروبية، كما عمل ثلاثتهم في مجال الترجمة الأدبية، فبيدس ترجم عن الروسية ولكتاب أوروبيين من أبرزهم ماري كوريلي وفكتور هوغو، في حين ترجم الكرمي عن الانكليزية أعمالاً لأوسكار وايلد ومارك توين، وتوليستوي، وجي دوموباسان، وتشخوف، وغيرهم بينما ترجم البحري قصصاً بوليسية وحول بعضها إلى أعمال مسرحية.

وينسب لخليل بيدس أول رواية فلسطينية (الوارث)، وظهرت في القدس العام ١٩٢٠، هو الذي يعد أبا القصة القصيرة الفلسطينية أيضاً بنشره أول مجموعة قصصية فلسطينية بعنوان «آفاق الفكر» في القاهرة العام ١٩٢٤. (١٢)

وكتب الروائي نصح هذا لعامة القراء، وينحاز للفضيلة ضد الرذيلة، ويراعي الجانب الفني، وينبغي

أن يكون خبيراً بالنفس الإنسانية، وعالمياً بأحوال المجتمع، وهو ما راعاه في «الوارث» .. ربما تبدو «الوارث» الآن رواية عادية في موضوعها وأسلوبها وطريقة معالجتها، لكنها ستظل رواية مهمة لدارسي الأدب وقارئيه، ذلك أنها اللبنة الأولى في عمارة الفن الروائي الفلسطيني، الذي أخذ ينمو ويزهو ويقوى، وينافس أيضاً فنوناً أخرى. (١٣)

ولا يمكن الجزم بأنّ الوارث هي «أول رواية فلسطينية»، لأنّ الباحثين في الأدب العربي، لم يتفقوا في هذا الاستنتاج، فالدكتور عبد الرحمن ياغي يرى في كتابه «حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة» أنّ رواية «أم الحكيم» للشيخ أحمد التميمي، المكتوبة في القرن التاسع عشر، هي الأولى، بينما يرى د. حسين مناصرة في كتابه «المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية»، أن رواية «الضحية» المنشورة العام ١٩١٢ باسم مستعار (ي) في مجلة النفائس لخليل بيدس، هي الأولى.

نشرت الوارث بعد ويلات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، وبعد وعد بلفور (١٩١٧)، الذي يعلن تأييد الحكومة البريطانية، في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وبعد معاهدة سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا (١٩١٦)، لتقسيم بلاد الشام بحيث تبقى فلسطين منطقة دولية، وبعد مؤتمر سان ريمو (١٩٢٠)، الذي وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين والأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني. (١٤)

تتناول الرواية قصة عزيز، الشاب اليتيم الذي تربى في بيت عمّه الغنيّ الشيخ نعمان، ووقع في حبّ ممثلة وراقصة يهودية شابة وجميلة، تدعى إستير، فاستغلت ولعه بها، وقامت بمعيتها عمّتها راحيل، بنهب أمواله، وإغراقه بالديون، عن طريق مساعدته بالاستدانة من التجار والصارفة اليهود، الذين ابتزوا منه الربا والفوائد الباهظة.. وقد نجحت إستير، في إقناع عزيز بالزواج من ابنة عمّه نجلاء، رغم رفضه وعدم حبّه لها، لضمان حقّه في ميراث عمّه، الذي هو شرط لاستمرار علاقتها به ونهبها لأمواله، وحين لم يمت عمّه، ولم يصبح عزيز الوارث تطرده إستير فيعود إلى زوجته نجلاء. (١٥)

لكن الرواية لا تتناول الخطر الحقيقي الذي كان يهدد المجتمع الفلسطيني في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين، أي مباشرة بعد أن كشف عن وعد بلفور وبدأت الهجرة اليهودية المنظمة إلى فلسطين، بل إنها تقدم نظرة تحقيرية لليهود على شاكلة «شايوك»، فتصورهم جشعين لا يتورعون

عن ارتكاب الفظائع للحصول على المال.

وإن كان المؤلف قد يقصد حقاً أن يحذر أبناء شعبه الفلسطينيين ضد خطط اليهود للإستيلاء على أجزاء من وطنه، فإنه عالج المسألة معالجة غير مباشرة، ولذا كانت عديمة التأثير، فجعل الشخصيات سورية، والمكان مصرياً، وركز على الأخلاقيات الموروثة والنظرة التقليدية، بدل أن يضع يده على الأبعاد الحقيقية للحركة الصهيونية، وما تنطوي عليه هذه الحركة بالنسبة للفلسطينيين. (١٦)

في الوارث ومضات حديثة إبداعية في الفن الروائي، منها توظيف الهذيان، الذي يعتبر دالة على توظيف تقنية تيار الوعي في الرواية الجديدة، التي تركّز على ارتياد مستويات ما قبل الكلام، من الوعي، بهدف الكشف عن الكيان النفسي للشخصيات، وقد برز هذا النوع في أدب جيمس جويس (١٨٨٢- ١٩٤٢) خاصة رواية «عوليس» (١٩٢٢)، وأعمال فرجينيا وولف (١٨٨٢-١٩٤١) بتأثير تيار عالم النفس وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠).. والملفت للانتباه أنّ خليل بيدس وظّف هذه التقنية، قبل نشر رائعة جويس «عوليس»، وقد يكون ذلك بتأثير ترجماته للأدب الأوروبي، خاصة الروسي، فنجلت زوجة عزيز، عرفت من خلال تمتمات وهذيان عزيز أثناء نومه، قصّة الديون التي ورّطته بها الممثلة اليهودية إستير. فالهذيان كشف العالم الداخلي لشخصية عزيز، أمام زوجته. (١٧)

وفي العام نفسه صدرت رواية «الحياة ما بعد الموت» لإسكندر الخوري البيتجالي، ولم تحظ بذات شهرة «الوارث» لأنه تم الانتفات إليها بعد حين، وبالتحديد عندما كتب عنها د. إبراهيم السعافين، وفق ما كتب في مقدمتها بالطبعة المنوي نشرها في العام ٢٠١٧، والتي حصلت على نسخة «درافت» من ناشرها، حيث تجري أحداثها في القدس وفي حلب وفي بعض مواقع القتال في السويس وغزة، وغيرهما، في الحرب العالمية الأولى.. والرواية تعطي تصوراً لا بأس به عن واقع بلاد الشام تحت الحكم العثماني ما بين (١٩١٥- ١٩١٨).

ولعل ما يلفت النظر في رواية «الحياة ما بعد الموت» تأثر مؤلفها بالآداب العالمية، مثل الأدب الروسي، والفرنسي، والإنكليزي، فقد قرأ مؤلفها بوشكين وتولستوي وشكسبير، وقد أشار الخوري في المقدمة التي كتبها إلى هذه الأسماء، فيما حفلت الرواية بشخصيات بائسة تذكر بفكتور هوغو.. ولم يكن الخوري يرمي التقليد الحر في قدر ما أراد الكتابة عن واقع يحفل بالبؤساء أيضاً، وهو واقع العرب تحت الحكم التركي في عقود الأخيرة. (١٨)

وهنا يمكن الحديث عن أن رواية «الحياة ما بعد الموت» عكست بدايات الوعي القومي العربي في مواجهة ما يمكن وصفه بـ«الاحتلال العثماني»، فالخوري ذكر في مقدمة الرواية التي قرأت، صراحة، أنها «تتضمن أعظم ما انتاب هذه البلاد من المصائب، على إثر إشهار أعظم حرب انتشبت في العالم، وما ارتكبته الحكومة البائدة (الإمبراطورية العثمانية) من الشطط في معاملة رعاياها، لا سيما العرب، الأمة التي يجلفها التاريخ، وتنفيذ حكم الإعدام على نخبة من رجال الأمة السورية، وما تلى ذلك من إعلان الثورة في الجزيرة العربية، وما دار من المعارك الدموية بين جيوش الحلفاء ودول الاتفاق على أبواب الدردنيل، وفي ميادين فلسطين، حتى دخول الجنرال للنبي القدس».

ومن الروايات المهمة «مذكرات دجاجة» (١٩٤٣) لإسحق موسى الحسيني المتوفي العام ١٩٩٠، وقد حازت الرواية بمقدمتها التي كتبها لها طه حسين، عميد الأدب العربي، آنذاك، على شهرة آنية في العالم العربي، حيث أعيدت طباعتها عدة مرات .. ولربما كانت هذه الرواية أول عمل سردي معاصر يستفيد استفادة مباشرة من التراث الأدبي العربي، فهي حكاية ترميزية على غرار «كليلا ودمنة» لابن المقفع، حيث تروى الأحداث على لسان الحيوانات.. والحيوان في المذكرات دجاجة تظهر قدراً كبيراً من الحكمة والميل لعمل الخير، والمقدرة على الحكم الصائب بشأن القضايا الأخلاقية والوجودية. (١٩)

وظهرت العديد من الروايات في تلك الفترة إلا أنها لم تأخذ نصيبها من الشهرة لكون الغلبة كانت للشعر وقتها، ولكونها تجارب لم ترق لانتزاع الاهتمام من قبل القراء، وفي سنوات لاحقة الباحثين، وهنا كان على كتاب السرد بشقيه القصصي والروائي ليس فقط اتقان أدوات هذه الأماط الكتابية الجديدة، آنذاك، بل أن يتخذوا في كتاباتهم موقفاً فكرياً من المأزق السياسي الذي فرضته على شعبهم الاستراتيجية الصهيونية العالمية. (٢٠)

الترجمة بدأت مبكراً

وتشير الدراسات التاريخية الى أن الشعب الفلسطيني أسهم بنصيب لا بأس به في حركة الترجمة عن لغات مختلفة، حيث بدأت حركة الترجمة في فلسطين منذ العام ١٨٦٠. ومن بين الترجمات المهمة في ذلك التاريخ ما قام به يوسف دباس اليافي لكتاب «مرشد الأولاد» لفرنسيسكو سوافيوس.

وأخذ هذا النشاط يتقدم بتقدم المجتمع الفلسطيني في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على رغم المعوقات الاستعمارية وغيرها.

ونشأ مناخ ملائم لجهة تطور حركة الترجمة، حيث أخذت الصحف والمجلات بالظهور هناك .. ولعل من بين تلك المجلات، مجلة «النفائس العصرية» لخليل بيدس الذي بذل جهداً كبيراً في الترجمة عن اللغة الروسية التي نقل عنها أربعة كتب في العامين ١٨٩٨ و١٨٩٩، فضلاً عن ستة كتب ما بين العامين ١٩٠٨ و١٩١٩، هذا الى جانب كثير من الروايات القصيرة التي كان ينشرها في اعداد مجلته.

وبرزت اسماء جديدة في اطار حركة الترجمة عن الروسية جنباً الى جنب مع خليل بيدس، مثل أنطوان بلان أحد مدرسي المدرسة الروسية في الناصرة الذي ترجم رواية «سبيل الحب» عن الروسية العام ١٩١٢، وحكايات قصيرة منها «سياحة في عالم الخيال»، و«خواطر من طريق الخيال» لتولستوي وغيرها، فيما برزت أسماء أخرى مثل لطف الله الخوري الصراف، وكلثوم العودة، وفارس نقولا مدور، وعبد الكريم سمعان. (٢١)

وكما كانت مجلة «النفائس العصرية» بيئة منشطة لحركة الترجمة عن اللغة الروسية في فلسطين بسبب ثقافة مؤسسها وصاحبها وبعض رفاقه، كانت مدرسة «سيمنار» الروسية للطلاب في الناصرة ومدرسة «سيمنار» الروسية للطالبات في بيت جالا في الضفة الغربية بيئتين منشطتين في ميدان الترجمة عن اللغة الروسية أيضاً، إذ ترجم بعض الطلاب في المدرستين المذكورتين حكايات عن الروسية ونشروها في مجلة النفائس.

ومن الذين ترجموا بكثرة عن الروسية سليم قبعين، ونجاتي صدقي، فقد كان لقبعين نشاط خصب في الصحافة المصرية وشارك في إنشاء بعض الصحف في مصر، وعرف القارئ العربي بكتاب روس مثل ترغينيف وبوشكين ومكسيم غوركي وتولستوي وغيرهم، ومن أهم ترجماته للصحف المصرية عن الروسية «أنشودة الحكم» لترغينيف اضافة الى كتب متنوعة اخرى.

ومن جهته ترجم صدقي أمهات الكتب الروسية الى العربية، فنشر في سلسلة «إقرأ» في العام ١٩٤٥ أعمالاً عدة للشاعر الروسي بوشكين.

ولم تنحصر آثار مجلة «النفائس العصرية» في إتاحة الترجمة عن اللغة الروسية فقط، بل تعدت آثارها ذلك، إذ نقل العديد من الحكايات والقصص الألمانية الى العربية ونشرها على صفحات المجلة المذكورة، فقد ترجم جبران مطر عدداً لا بأس به من القصص والحكايات الألمانية الى العربية، وشارك في النقل عن الألمانية بندلي الجوزي، والياس نصر الله الذي ترجم رواية «ناتان الحكيم» للكاتب الألماني لسنخ وطبعها في مطبعة الايتام في القدس.

وفي اتجاه اللغة اليونانية، أتاحت الظروف للطائفة الارثوذكسية في القدس الاتصال باللغة اليونانية، وكان لجرجي زيدان حنا السكسك جهد في هذا الميدان. وترجم توفيق اليازجي من مدينة يافا قصيدة مهمة للشاعر اليوناني يوانس بوليتي، فضلاً عن ذلك كان من الطبيعي اتصال فلسطين باللغة التركية، فترجم عبدالله مخلص كتاب نامق كمال «سيرة الفاتح السلطان محمد الثاني» بعربية صافية، وترجم حسن صدقي الدجاني رواية «حذار» الاجتماعية عن التركية، في حين نقل عارف العزوفي الى العربية «تراننا بابو، من رسائل شاب حبشي الى زوجته» وهي للشاعر التركي الشهير ناظم حكمت.

ولم تقتصر حركة الترجمة في فلسطين على الألمانية والروسية واليونانية والتركية، بل عرفت فلسطين نشاط ترجمة عن اللغة الفرنسية أيضاً، فترجم عادل زعيتر بحثاً مطولاً لماكس نوردو بعنوان «روح القومية»، ونقل اسحاق موسى الحسيني والأب اسطفان سالم الفرنسي كتاب «فن إنشاء الشعر العربي» وطبعاه في مطبعة الآباء الفرنسيين في القدس عام ١٩٤٥.

ولعل من طليعة المترجمين الأصلاء عن اللغة الفرنسية عادل زعيتر الذي يعتبر من أعلام النهضة العربية في شكل عام، إذ ترجم عن الفرنسية ما يزيد على سبعة وثلاثين كتاباً من أمهات الكتب في الثقافة الفرنسية، وذلك بلغة عربية صافية جداً وناصعة. أما حركة الترجمة عن الانكليزية، فكان لها النصيب الأكبر، بسبب الاستعمار البريطاني المباشر لفلسطين، وبرزت أسماء كثيرة في مجال الترجمة عن الانكليزية في فلسطين تجاوز عددها المئة.

ومن المبكرين في الترجمة عن الانكليزية في فلسطين ابراهيم حنا، وروز حسون، وبولس صدقي من مدينة القدس، كما عرفت أسماء وأعلام فلسطينية كثيرة في مجال الترجمة عن الانكليزية، وفي المقدمة منهم خيرى حماد، الذي ترجم أكثر من خمسين كتاباً عن الانكليزية والفرنسية تراوحت

بين الأدب والفلسفة والاستشراق والاقتصاد. (٢٢)

وكان أحمد سامح الخالدي (١٨٩٨ - ١٩٥١) أشهر الذين ترجموا عن الإنكليزية في ميدان التربية والتعليم وعلم النفس وإدارة الصفوف، وقد اشتهرت كتبه في هذا المجال في فلسطين والأقطار العربية، ومن مترجماته «الطريقة المنتسورية في التربية والتعليم» (١٩٢٥)، و«الحياة العقلية أو دروس في علم النفس» (١٩٢٩)، و«طرق التدريس المثلى» (١٩٣٧).

وقد أسهم في الترجمة عن الإنكليزية عدد من أبناء البلاد العربية الذين عاشوا في فلسطين شطراً من حياتهم، ومنهم وديع البستاني (١٨٨٦ - ١٩٥٤)، ومما ترجمه أشعار طاغور (١٩٤٧)، وعجاج نويهض الذي ترجم «حاضر العالم الإسلامي» (١٩٢٤)، و«بروتوكولات حكماء صهيون» (١٩٦٧). وعنبرة سلام الخالدي التي ترجمت عن الإنكليزية «الليادة» و«الأوديسة» لهوميروس، و«الإنيادة» لفيرجل.

ومن الذين ترجموا عن الإنكليزية في مرحلة الانتداب البريطاني محمد يونس الحسيني الذي ترجم «تحليل وعد بلفور» (١٩٢٩)، ونجيب نصار الذي ترجم «الزراعة الجافة» (١٩٢٧)، وترجم نصح الطاهر ثلاثة كتب في الزراعة، فيما ترجم عبد الرحمن بشناق رواية «في سبيل المجد أو المهماز الذهبي» (١٩٣٩)، وأسمى طوي رواية «الابن الضال أو على مذبح الحرية» (١٩٤٦). ومن الذين أسهموا في الترجمة في هذه المرحلة فوزي محيي الدين النشاشيبي، وموسى سالم سلامة، وسعيد الدباغ، ووصفي عنتاوي، وخليل السكاكيني، وأحمد خليفة. (٢٣)

وترجم الفلسطينيون عن العبرية، وكان أول من ترجم عنها فايز يونس الحسيني كتاب «مرشد الأمهات للعناية بالأطفال» (١٩٤١) .. وأسهم الفلسطينيون الذين صمدوا في أرضهم بعد النكبة وتعلموا العبرية، في الترجمة عنها، وقد تنوعت مجالات الكتب المترجمة. ومن ذلك كتاب «القطن وزراعته في الحقل العربي» الذي ترجمه عبد الرحمن محمد (١٩٥٧)، وترجم أنطوان شلحت «المناطق المحتلة: عرض ممارسات التشريد ونهب الأراضي» للانغر، وترجم أحمد جراد «القضية الفلسطينية»، و«سلاح الاستخبارات العسكرية».. وممن أسهموا في هذا المجال: حبيب زيدان شوبري، ورسمي بيادسي، ومحمود عباس، وأنطوان شماس، وزكي درويش، وجواد الجعبري وغيرهم. (٢٤)

روحي الخالدي

ولا يمكن في دراسة كهذه إغفال الدور الريادي لروحي الخالدي (١٨٦٤ - ١٩١٣)، وهو من مواليد القدس، فهو علاوة على دوره السياسي والوطني البارز، يعتبر من أوائل النقاد الفلسطينيين والعرب، خاصة ممن كتبوا في النقد المقارن، فقد كان كتابه «دراسات في فكتور هوغو والأدب عند الأوروبيين وعند العرب صدر بالفرنسية أثناء إقامة المؤلف في مدينة بوردو، وتضمنت موضوعاته دراسات تعريفية للتراث الأدبي العربي («كليلا ودمنة»، وكتاب «الباهر» لابن المنجم، و«يتيمة الدهر» للثعالبي، و«دمية القصر» للباخرزي، و«وشاح الدمية» للبيهقي، و«خريدة العصر» لابن العماد، و«زينة الدهر» للوزّاق، وأشعار البحترى والمتنبي والمعري، والأدب الأندلسي).

وله في الأدب الأوروبي (الشعر اليوناني والروماني، الدراما، فكتور هوغو، شكسبير، تأثير الأدب العربي على الآداب الغربية)، وموضوعات تفصيلية كثيرة أخرى، فضلاً عن صياغة تعريفات دقيقة لطائفة واسعة من المصطلحات الأدبية.

وفي العام ١٩٠٤ صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب عن دار الهلال في القاهرة، تحت عنوان «فيكتور هوغو وعلم الأدب عند الإفرنج والعرب»، وحملت مفاجأتين: الأولى إغفال اسم المؤلف الحقيقي واختيار اسم مستعار هو «المقدسي» (والسبب المرجح هو الخشية من بطش السلطات العثمانية بالمؤلف، بسبب تركيز الكتاب على أفكار فكتور هوغو التحررية)، وأما المفاجأة الثانية فقد كانت إصرار المؤلف على استخدام تعبير «علم الأدب» الذي لا يرد في الأصل الفرنسي، وكأنه أراد الإيحاء لقرائه العرب بأن دراسة الأدب هي علم مثل سائر العلوم. (٢٥)

وفي دراسة للناقد الدكتور فيصل درّاج بعنوان «المثقف الفلسطيني وقراءة الصهيونية»، يذكر الخالدي في أكثر من موضع، قائلاً: يعدُّ الخالدي أحد المثقفين الذين صاغوا بكلماتهم ذاكرة وطنية فلسطينية، قرأت ولادة المشروع الصهيوني بقلق كبير واقتربت سبل مواجهته. وقد كان روعي، الأنيق في ثقافته وسلوكه، يسجل ملاحظاته في مستوطنات يهودية يعمل فيها «مهاجر» حسن الإدارة والتنظيم، ويكتب كلمات غاضبة عن عربي تداعي يبدد أمواله ماجناً على تخوم الصحراء.. وقد تأثر الخالدي بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم من رجالات الفكر التنويري

العربي، ودعاة إصلاح المجتمع وتجديد الفكر والانفتاح على الثقافة الكونية.. وقدم الخالدي خطاباً عقلانياً محسوباً، تباطنه دعوة هامسة إلى حداثة اجتماعية ضرورية، بلغة أنيقة وبعيدة عن التعقيد. (٢٦)

خاتمة لابد منها

ويمكن الحديث عن غلبة المشكلات الاجتماعية على المشكلات السياسية فيما كتب من سرد، على عكس الشعر، من فلسطينيين قبل النكبة.

ويرى د. سليمان جبران أن الشعر الفلسطيني، بمعناه الوطني الدقيق، لم يكتب قبل مطلع القرن العشرين.. أما شعر القرن التاسع عشر، فلا يعكس مجتمعا فلسطينيا وانتماء فلسطينيا، إنما هو شعر اسلامي في معظمه، لم يجدد شيئا في مفاهيم الشعر، او مضامينه او اساليبه. (٢٧)

«وإذا شئنا الكلام عن سمة عامة تجمع بين أحمد فارس الشدياق، والمعلم بطرس البستاني، وإبراهيم اليازجي، ويعقوب صروف، وجرجي زيدان، وشبلي الشميل، وفرح أنطون، ومارون نقاش، الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في القاهرة، وبيروت، فإن السمة العامة هي حرصهم على تجديد اللغة العربية وتحديثها من ناحية، وعلاقتهم الثقافية بالآداب والعلوم الغربية من ناحية أخرى، فقد كانوا على دراية واسعة بلغات أجنبية مختلفة، نقلوا منها إلى العربية ما رأوا فيه نوعا من تحرير الأذهان، وتنوير القلوب.. سنعثر على الصفة نفسها لدى الجيل الأول من المثقفين الفلسطينيين منذ أواخر القرن التاسع عشر، وعلى امتداد النصف الأول من القرن العشرين. فهي التي تجمع بين خليل بيدس، واسكندر الخوري، ونجاتي صدقي، وبندي الجوزي، واسعاف النشاشيبي، و خليل السكاكيني، وعادل زعيتر، ومحمد روجي الخالدي، وأحمد سامح الخالدي، وعجاج نويهض، وأحمد شاكر الكرمي، وعنبرة سلام الخالدي، واسحق موسى الحسيني.

فقد ترجم هؤلاء عن اللغات الروسية، والإنكليزية، والفرنسية، وفي الوقت نفسه كان تحديث العربية همهم الأول والكبير، ومن حسن الحظ أن أحدهم، أي خليل السكاكيني، نجح في تحقيق ثورة صغيرة، بابتكار طريقة جديدة في تعليم اللغة العربية، عاشت بعده، واستفاد منها ملايين من العرب، في بلدان عربية مختلفة. (٢٨)

لم يكن ما سيعرف في وقت لاحق في الكتابات الأيديولوجية العربية باسم «الغزو الفكري»، و«التغريب» جزءاً من عالم المنوّرين الفلسطينيين، الذين كانوا، على غرار سابقهم، وأقرانهم العرب، نتاجاً طبيعياً لمفهوم المدنية، الذي ساد عالم الإمبراطورية العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان أهم الذرائع الأيديولوجية في يد المثقفين الأتراك والعرب حتى أواسط القرن العشرين.

كانت المدنية في عرف هؤلاء، تعني الاعتراف بالقصور الذاتي من ناحية، والبحث في ثقافة الآخر الأوروبي عن المفيد والناجع من ناحية أخرى، ولم تكن قضايا الأصالة والمعاصرة الوهمية قد ظهرت بعد. ومن اللافت للنظر أن العنوان الفرعي لكتاب الدكتور ياغي هو «من أوّل النهضة حتى النكبة»، وليس في استخدام كلمة النهضة في هذا السياق ما يدل على مغايرة للواقع، فتلك هي الكلمة التي نظر إليها الجيل الأوّل من المثقفين الفلسطينيين، على غرار أقرانهم العرب، باعتبارها العنوان الصحيح لرسالتهم في الحياة. (٢٩)

ويبقى أن نشير إلى أن الحديث بالتفصيل عن كل مبدع على حدة، والإلمام بكافة المبدعين، يحتاج إلى دراسات أكثر تخصصية في أدب وإبداعات كل منهم، ولا يمكن في أقل من خمسة آلاف كلمة، إلا أن يسقط اسم سهواً من هنا، أو أن لا يحصل عمل ما، أو مبدع بعينه على حقه من تسليط الضوء، ما يجعل من هذه الدراسة مجرد رحلة بانورامية في الإبداع الفلسطيني منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى النكبة، تؤكد على أن المبدع الفلسطيني كان له حضوره المبكر في الترجمة والشعر والرواية والقصة القصيرة والنقد أيضاً، وليس كما يروج المؤرخون الصهاينة، بأنه لم يكن ثمة «أدب فلسطيني» قبل النكبة التي يسمونها زوراً «قيام دولة إسرائيل».

الهوامش

١. أوس داوود يعقوب، دراسة بعنوان "أديب العربية العلامة إسعاف عثمان الناشبي"، موقع مؤسسة القدس للثقافة والتراث.
٢. محمد باسل سليمان: مقال بعنوان "مقهى الصعاليك بيت المثقفين الفلسطينيين"، موقع الحوار المتمدن، ١٨ شباط (فبراير) ٢٠٠٨.
٣. بشار منافخي، مقال بعنوان «مقهى الصعاليك في القدس»، موقع «صوت البلد»، ٢٢ نيسان (أبريل) ٢٠٠٩.
٤. د. سلمى الخضراء الجيوسي، «موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٧.
٥. عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، بيروت ١٩٦٨.
٦. الشعر، موقع الموسوعة الفلسطينية، ٣ آب (أغسطس) ٢٠١٤.
٧. أحمد دحبور، مقال بعنوان «شعراء فلسطين كما سجلهم محمد محمد شراب»، جريدة «الحياة الجديدة» الفلسطينية، ٢٠١٥.
٨. د. سلمى الخضراء الجيوسي، مصدر سبق ذكره.
٩. المصدر نفسه.
١٠. نبيل عودة، مقال بعنوان «نظرة جديدة على الشعر الفلسطيني في عهد الانتداب»، موقع بيتنا، ١٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٦.
١١. د. مشهور عبد الرحمن الحبازي، اتجاهات شعر الطفل في الشعر الفلسطيني المعاصر، موقع جامعة القدس.
١٢. د. سلمى الخضراء الجيوسي، مصدر سبق ذكره.
١٣. د. عادل الأسطة، من مقدمة طبعة سلسلة إعادة التراث الأدبي الفلسطيني، رواية «الوارث» لخليل بيدس (أول رواية فلسطينية)، الرقمية للنشر والتوزيع، رام الله، ٢٠١١.
١٤. سمير الحاج، مقال بعنوان «الوارث لخليل بيدس»، موقع الجبهة، ٢٣ نيسان (أبريل) ٢٠١١.
١٥. المصدر نفسه.
١٦. الجيوسي، مصدر سبق ذكره.
١٧. سمير الحاج، مصدر سبق ذكره.
١٨. من مقدمة الطبعة الجديدة المنوي نشرها عن دار الرقمية في رام الله، العام ٢٠١٧، لرواية «الحياة ما بعد الموت».
١٩. الجيوسي، مصدر سبق ذكره.

٢٠. المصدر نفسه.
٢١. نبيل محمود السهلي، مقال بعنوان «تاريخ حركة الترجمة في فلسطين»، جريدة «الحياة» الدولية، ١٩ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٧.
٢٢. المصدر نفسه.
٢٣. الترجمة والمترجمون، موقع الموسوعة الفلسطينية، ٢٦ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٣.
٢٤. المصدر نفسه.
٢٥. صبحي حديدي، مقال بعنوان «روحي الخالدي مناضل سياسي ومؤرخ رائد»، الموقع الإلكتروني لقناة «الجزيرة» الإخبارية، ٣ آب (أغسطس) ٢٠٠٤.
٢٦. أوس داود يعقوب، مقال بعنوان «روحي ياسين الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين»، موقع مؤسسة القدس للثقافة والتراث.
٢٧. نبيل عودة، مصدر سبق ذكره.
٢٨. حسن خضر، مقال بعنوان «ثلاثة أجيال من المثقفين الفلسطينيين»، جريدة «الأيام» الفلسطينية، ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٥.
٢٩. المصدر نفسه.

سينما صهيونية ممنهجة في مواجهة سينما فلسطينية هزيلة ومرتبكة

يوسف الشايب

مع بداية العام ١٨٩٦، أرسل «الأخوان لوميير» طاقماً متدرّباً من المصورين إلى مدن مختلفة من العالم بهدف عرض أفلام، أو تصوير مواد جديدة، ومن ضمنهم ألكسندر بروميو (١٨٦٨-١٩٢٦)، المنحدر من عائلة ذات أصولٍ إيطالية.

ارتحل بروميو إلى مصر، ثم إلى فلسطين، حيث قام بتصوير عشرة أفلام في هيئة مشاهد قصيرة في يافا والقدس.. هذه الأفلام العشرة النادرة والثرينة التي تتراوح مدّة كل منها ما بين ٤٥ و٥٥ ثانية، توثق القدس سينمائياً في تلك الفترة، وتضمّن هذا التوثيق مشاهد وصوراً للطريق من يافا إلى القدس، محطة القطار، مشاهد لبعض المناظر الطبيعية، مشاهد لتلال قاحلة وصحراوية، وباب الخليل، من الجهة الشرقية والجهة الغربية، حركة المشاة في بعض الشوارع وكنيسة القيامة، دخول وخروج المارة والحجاج من وإلى كنيسة القيامة، طريق الآلام، دخول وخروج الناس من وإلى كنيسة القيامة عبر باب كنيسة القيامة الصغير. حركة المارة أمام الأكشاك في احد شوارع القدس. مشهد لقافلة جمال تسير، مغادرة القدس عبر محطة القطار، ومشهد للحشد على رصيف محطة القطار. وتعددت وتنوعت التجارب السينمائية على أرض فلسطين بعد ذلك حيث قام أف أورميستون سميث بتصوير عدة أفلام في الأراضي المقدسة بداية من العام ١٩٠٥، في حين أخرج المصور ليو ليفيفر في العام ١٩٠٨ فيلم «القدس» لصالح شركة باتيه الفرنسية.

وفي العام ١٩١٠ قامت مجموعة إكلير الفرنسية بتصوير فيلمين في فلسطين، ويعتبر أحدهما هو أول فيلم روائي يتم تصويره في الأراضي المقدسة يحمل اسم «عودة التماسح للحياة» من إخراج سيدنى أولسكوت.

ويعد أولسكوت أول مخرج أميركي تحتوى أفلامه على مشاهد تصوير خارجي، حيث أحتوى فيلمه «بن هور» على مشاهد صورت في القدس.. وصور أولسكوت في العام ١٩١٢ فيلما عن حياة السيد المسيح على الأراضي الفلسطينية، واكتسب الفيلم شهرة كبيرة وظل يعرض في الولايات المتحدة الأميركية حتى العام ١٩٤٠، بالرغم من أنه فيلم صامت، كما أستمر عرضه في الكنائس على المصلين حتى العام ١٩٦٠.

وقامت مجموعة إديسون في الشرق الأوسط بتصوير فيلمين في فلسطين خلال العام ١٩١٤ هما «القدس والأراضي المقدسة وعكا»، و«الميناء البحرى والقدس وزراعة البرتقال»، وهما من الأفلام التسجيلية السياحية التي تروج لصورة فلسطين كموقع تاريخي، واقتصادي صالح للتوطن، وإقامة وطن جديد يليق بيهود العالم.

وحازت تلك الأفلام على إعجاب الجمهور اليهودي في كافة أنحاء العالم خاصة وانها تحمل العديد من الصور والمشاهد عن القدس ومعالمها التاريخية، وكانت الصور والمشاهد مطلوبة لمداعبة المخيلة الصهيونية التي كانت تؤسس في الخفاء مشروعها لتحويل هذه المدينة الى عاصمة أبدية للدولة المنتظرة.

في فلسطين

وكان موري روزنبرج، الانكليزي الأصل، اشترى كاميرا في العام ١٩١١، وذهب إلى فلسطين حاملا رسالة توصية من ديفيد ويلفسون رئيس المؤتمر الصهيوني، قام على إثرها بتصوير فيلم «فلسطين، عودة اليهودي من المنفى»، الذي خصص جزءاً منه عن مدرسة الفنون بالقدس، مع بعض المشاهد التي تظهر المصور والسينمائي الصهيوني ياكوف بن دوف، وهو يقوم بالتقاط بعض الصور الفوتوغرافية.

وحقق الفيلم نجاحا كبيرا بعد توزيعه تجاريا في كافة أنحاء العالم، فيما أهدى روزنبرج نسخة من

الفيلم للمكتبة اليهودية القومية في إسرائيل، والموجودة في الجامعة العبرية في القدس. واشرف روزنبرج بنفسه على تجديد نسخة الفيلم التي حملت اسم «أول فيلم في فلسطين»، وأعيدت التجربة في العام ١٩١٣ بعد فيلم موري روزنبرج حين قدم نوح سوكلوفسكي طلباً للمؤتمر الصهيوني بعمل فيلم ضخم في فلسطين.

قدمت الطلب مؤسسة مزارتش الروسية ليتم الموافقة عليه، وتم انجاز فيلم «حياة اليهود في فلسطين»، وقد صورت اغلب مشاهدته في القدس، وهو من الأفلام الشهيرة في تاريخ السينما الصهيونية، وقد تم فقده، ولكن عثر عليه في فرنسا وتم تجديده وإهداء نسخة منه للسينماتيك الإسرائيلي في العام ١٩٩٨.

وبدأ تصوير الفيلم في أيار ١٩١٣، وتم عرضه في كل أوروبا في العام ١٩١٤، وتحول اسم المخرج على العنوانين من سوكلوفسكي إلى المخرج الأميركي سوكلوفسكي، حتى يقدم الجمهور على مشاهدة الفيلم، وهو نفس الوضع الذي كان عليه الممثلون الأميركيون من أصل يهودي عند لجوئهم لاستعارة أسماء أوروبية حتى يخفوا أصولهم اليهودية، وكانت الغالبية العظمى من الأفلام المنتجة عن اليهود في فلسطين حتى تلك اللحظة من إنتاج أفراد غير مقيمين في فلسطين.

المنتج الأول

ويعتبر كيفيه أريه ويز أول منتج سينمائي يهودي مقيم في فلسطين، هو الذي وصل إلى فلسطين التي كان يسميها بـ«أرض إسرائيل» في العام ١٩٠٦ ليؤسس في العام ١٩١٤ شركة «أورا هداشا»، والتي تعنى «النور الجديد»، من أجل عمل أفلام عن اليهود في فلسطين باللغة العبرية.

وينسب إلى ويز مبادرة صنع أول أفلام بالعبرية عن يهود فلسطين، وفي الفيلم، وفق بعض المراجع، بعض اللقطات عن القدس القديمة، التي يروج لها الصهاينة عبر أعمالهم السينمائية الأولى.

ويعتبر جوزيف جال أوزير من الشخصيات المهمة في تاريخ السينما التي صورت القدس قبل النكبة، أو ما يصطلح على تسميته ظلاماً بـ«قيام دولة إسرائيل».

ولد جوزيف جال أوزير في فيينا في العام ١٨٩٠، وذهب لفلسطين كعضو من أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية، وقرر البقاء ليصبح أستاذاً في الآداب بالجامعة العبرية، وكان أوزير يطمح لإقامة

صناعة سينما كبرى على أرض فلسطين لما تتمتع به من مناخ مشمس، وأماكن تاريخية حقيقية يسعى الكثيرون لرؤيتها على الطبيعة، وبالذات كانت تلك الفترة في تاريخ السينما هي فترة الأفلام الدينية والتاريخية.

سعى أوزير للترويج لفكرته لدى شركات السينما الأميركية من أجل الحصول على تمويل، ونجح في جذب انتباه شركة «جولدين بيكتشر كوربوريشن»، والتي أرسلت فريق عمل لفلسطين من أجل تصوير لقطات اختبارية لتصوير فيلم ديني كبير مستمدة أحداثه من الإنجيل، وكانت توجهات أوزير الرئيسية تسعى لعدم حصر النشاط السينمائي الصهيوني في السينما الدعائية فقط، ويذكر أن الصندوق القومي لليهود لعب دورا كبيرا في دعم النشاط السينمائي الصهيوني على أرض فلسطين، وقد مول الصندوق إنتاج واحد من أهم الأعمال السينمائية المعروفة في تلك الفترة وهو فيلم «الربيع في فلسطين»، وحفل بالكثير من المناظر التي صورت في القدس وشارك في صنعه جال أوزير.

وبدأ الجيل الثاني من السينمائيين اليهود المهاجرين لفلسطين العمل بالتعاون مع الجيل الأول، ومن أهم رموز هذا الجيل يوروشاليم سيجال الذي تركزت إسهاماته في مجال الإنتاج والتوزيع، حيث أسس شركة سينمائية لإنتاج الأفلام الوثائقية في الفترة من ١٩٢٧ حتى ١٩٣٤. وعرضت الأفلام في صالات العرض في فلسطين، وتم بيعها بعد ذلك للصندوق القومي لليهود وصورت أغلب تلك الأفلام في القدس.

ويعتبر ناتان أكسيلرود من شخصيات الجيل الثاني أيضا وقد بدأ نشاطه السينمائي في فلسطين من خلال شركة يوروشاليم سيجال. وعمل على إنتاج العديد من الأفلام الدعائية للأفراد والشركات، وكذلك الأفلام الدعائية لحركة توطين اليهود في القدس وفي عموم فلسطين، وتعد أفلام ناتان أكسيلرود شاهدا على تلك الفترة التاريخية التي تمتد من ١٩٢٠ حتى ١٩٥٠.

أما باروخ أجاداتي فقد تخصص في الأفلام التسجيلية التي تصور الفنون الشعبية في فلسطين بما فيها الفنون الفلسطينية، وبالذات الرقص الشرقي. سافر باروخ للعديد من الدول الأوروبية لعرض أفلامه، والتي كانت تعتبر افلاما طليعية بالنسبة لجمهور اليهود في فلسطين حيث ينسب إليه أول فيلم تحريك يهودي على أرض فلسطين.

وجاءت محاولات صنع فيلم صهيوني روائي صامت على يد حايم هالاشمي تحت عنوان «أوديد التائه»، و يعتبر الكثير من النقاد أن الفيلم هو أول فيلم يهودي روائي طويل صور على أرض فلسطين. وفي الفيلم .سعى هالاشمي إلى تقديم علاقات التفاعل بين اليهودي (المهاجر - الغريب - الضال) وعناصر الطبيعة والسكان العرب في القدس وفي بقية المدن الفلسطينية.. ودشن خروج هذا الفيلم عصرا جديدا للسينما الصهيونية في فلسطين.

ومن الأفلام الدرامية الأولى لليهود فلسطين أيضا فيلم «استيقاظ فلسطين»، الذي يحكي عن قدوم سائح يهودي أميركي إلى فلسطين يفاجأ بالتنوع العرقي لليهود المهاجرين لفلسطين (من اليمن - أوكرانيا - روسيا - العراق... الخ)، ولكنه يقرر مع ذلك البقاء في فلسطين والتبرع بمبلغ ١٠٠ الف دولار للصندوق القومي لليهود في فلسطين.. ينال الفيلم الكثير من النقد لوجهة النظر السياحية التي يعكسها دون أن يتعمق في أحوال يهود فلسطين.

وإذا كان قدوم الصوت للسينما المنتجة في فلسطين لم يبدأ، إلا في العام ١٩٣٥ فإن الأفلام الصامتة ظلت تعرض في الصالات حتى إعلان دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨، ومنذ ذلك الوقت بدأ ظهور أفلام تمثل السينما الإسرائيلية لأول مرة.

الأفلام في خدمة التضليل

كان هدف الحركة الصهيونية قبل إنشاء دولة إسرائيل إثبات أن لليهود حقا تاريخيا في عموم فلسطين خاصة القدس باعتبارها العاصمة الابدية، ودعوة يهود العالم للهجرة إليها، حتى يستقروا في أرضها، ويتم إنقاذهم من الشتات الذي يلاقونه في معظم أنحاء العالم.

وقد استمر هذا الهدف أيضا بعد إنشاء إسرائيل، ولذا بدأت الحركة الصهيونية في التخطيط العملي للدور الذي يمكن أن تقوم به السينما سواء التسجيلية أو الدعائية، لخدمة أغراض الحركة الصهيونية، وذلك عقب مؤتمر «بال» الصهيوني الذي عقد في سويسرا العام ١٨٩٧، وقد كان التخطيط عند إنتاج الأفلام يتم طبقا لمتطلبات المراحل الزمنية التي تمر بها الحركة الصهيونية، وذلك لخدمة أهداف كل مرحلة من مراحل الصراع العربي الصهيوني، وتنقسم السينما الصهيونية قبل إنشاء إسرائيل (احتلال فلسطين) إلى قسمين

الأول: الأفلام التي تم إنتاجها على أرض فلسطين عقب مؤتمر (بال) الصهيوني وحتى العام ١٩١٧ حين إعلان «وعد بلفور».

الثاني: الأفلام التي تم إنتاجها على أرض فلسطين منذ إعلان «وعد بلفور» حتى العام ١٩٤٨. في القسم الأول كانت الأفلام تتضمن تعبيراً صريحاً عن محاولات الفكر الصهيوني في غزو الفكر العالمي، وصبغ الفكر الصهيوني بالطابع الانساني، مع شرح الجذور والصلات التاريخية والدينية التي تربط اليهود بفلسطين، وخصوصاً مدينة القدس، باستخدام التوراة كمصدر رئيسي في محاولاتهم لتزييف الدين والحق باعتبار «التوراة اليهودية» كتب «سيدنا موسى» التي تحتوي على شريعته وتعاليمه، وقد كان أبرز هذه الأفلام، الفيلم الروائي الطويل «حياة اليهود في أرض الميعاد» إخراج يعقوب بن دوف العام ١٩٢٢.. وصور هذا الفيلم مجموعة من الآراء الصهيونية عن صلة اليهود بفلسطين، من خلال قصته التي تدور عن حياة التجمع العبري في أرض الميعاد، والاحتفال باستقبال المهاجرين.

ترويج للوطن القومي اليهودي

في القسم الثاني اتخذت الأفلام الطابع الدعائي لفكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ومحاولة تثبيت الوعي القومي بالحق الديني والتاريخي من خلال المنظور الديني، واستخدام التوراة كمصدر رئيسي للعقيدة اليهودية، لتخدم أغراضاً سياسية أنية ومستقبلية في آن واحد، مع ترديد قصص «الهولوكست» بالتأكيد على الآلام اليهودية وما لاقوه من تعذيب واضطهاد وخصوصاً في سنوات الحرب العالمية الثانية على أيدي جيش الغازي، بهدف إثارة حالات الشفقة والتعاطف الانساني لدى الشعوب، حول القضايا اليهودية من جهة، وإبراز عقدة الاضطهاد إذا خرجوا عن النهج الصهيوني من جهة ثانية، والترويج فنياً وإعلامياً وثقافياً لحق اليهود في أرض فلسطين من جهة ثالثة فبرزت الأفلام تؤكد تلك المفاهيم الصهيونية فأخرج يعقوب بن دوف عدة أفلام لتكرس تلك المزاعم منها: «يهودا محررة» (١٩١٨)، و«أرض إسرائيل المحررة» (١٩١٩)، و«عودة صهيون» (١٩٢١)، و«الأبناء بينون» (١٩٢٤)، و«شباب في أرض إسرائيل» (١٩٢٦)، و«عشر سنوات من تاريخ إحياء شعب إسرائيل في أرضه» (١٩٢٧)، و«الربيع في أرض إسرائيل» (١٩٢٨).

ثم توالى كذلك الأفلام الوثائقية القصيرة التي كانت عبارة عن دعاية صهيونية مباشرة، تصف الاستيطان الزراعي ومن هذه الأفلام: «صابرا» (١٩٣٣) إخراج ألكسندر فورد، و«هذه هي البلاد» (١٩٣٥) إخراج باروخ أجداتي، و«إلى حياة جديدة» (١٩٣٥) إخراج يهودا ليمان، و«نبوءة وواقع» (١٩٣٧) إخراج ناتان أكسيلرود، و«فوق الخرائب» (١٩٣٨) إخراج ناتان أكسيلرود، و«صوت من قريب» (١٩٣٩) إخراج ناتان أكسيلرود، و«بيت في الصحراء» (١٩٤٧) إخراج بن عويزرمان، و«الأرض» (١٩٤٧) إخراج هيرمل لارسكي، ونلاحظ أن الصورة التي خلقتها وروجت لها تلك الأفلام للعربي الفلسطيني حتى العام ١٩٤٨، تتناقض تماما مع الصورة التي روجت لها نفس الوسائل لليهودي الصهيوني، فضلا عن ذلك كان أحد الأهداف الأساسية للصهيونية، أن تجعل العالم يرى الفلسطيني صاحب الأرض، بالطريقة التي تريدها، وعندما نرى الفلسطينيين في فيلم «الأرض» على سبيل المثال نراهم قوما من الكسالى، البلهاء، الطاعنين في السن الذين يستخدمون الوسائل البدائية في الزراعة، ويتم توجيه اللوم إليهم، وانتقادهم بشدة بسبب إهمالهم لـ«الأرض المقدسة» لقرون عدة، ولكونهم يعيشون حياة متخلفة، فقد جاء اليهودي المتحضر، المتواكب مع ركب الحضارة، وأحضر معه علوم وثقافات الحضارات الأوروبية والأميركية المتقدمة، فنرى في مقابل الشخصية الفلسطينية الضعيفة، الصهاينة شابانا ممتلئين حيوية ونشاطاً يسرون معا نحو الحقول حيث يعملون في الزراعة.

ما بين السينما الصهيونية واليهودية

ويسعى العديد من المؤرخين والمنظرين والنقاد الإسرائيليين، عن قصد في بعض الأحيان للربط المتحايل ما بين السينما الصهيونية والسينما اليهودية، للإيهام بأن اليهود قومية، في حين أن هناك بون شاسع بينهما، فالسينما الصهيونية، هي السينما التي روجت ولا تزال من أرض فلسطين وخارجها للصهيونية وأفكارها الإقصائية العنصرية، بينما السينما اليهودية، هي السينما الناطقة باللغة اليديشية، وفق تصنيفات البعض، وهي سينما انطلقت من أوروبا، كما اللغة، وبالتحديد من ألمانيا، فاللغة اليديشية وتسمى باليديشية، هي وحسبما جاء في الموسوعة العربية العالمية لغة يهود أوروبا، وقد نمت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من لغات عدة منها الآرامية والألمانيّة والإيطالية والفرنسية والعبرية، ويتحدثها ما يقارب ثلاثة ملايين شخص حول العالم، أغلبهم يهود

أشكناز .. الاسم يديش هو يديشية لكلمة «يهودية» وقد تكون تقصير لـ«يديش-تايتش» أو ألمانية يهودية.

كانت في البداية لهجة ألمانية خاصة باليهود في أوروبا منذ القرن العاشر الميلادي، وهي مستخدمة الآن في الولايات المتحدة، وبخاصة في مدينة نيويورك بسبب هجرة اليهود الأشكناز إليها، وهناك ٨٠ بالمائة من كلمات اللغة ألمانية الأصل بالإضافة إلى بعض الكلمات من اللغتين العبرية والسلافية، وخاصة البولندية بعد هروب اليهود إلى بولندا وشرق أوروبا بسبب الحروب الصليبية، وعادة ما تكتب اللغة اليديشية بالحروف العبرية.

وهي لغة يتكلم بها في الولايات المتحدة، وإسرائيل، وبريطانيا، وبولندا، والأرجنتين، والبرازيل، وروسيا، وأوكرانيا، وكندا، وبيلاروسيا (روسيا البيضاء)، والمجر (هنغاريا)، والمكسيك، ومولدافيا، وليتوانيا، وبلجيكا، وأستراليا، وفرنسا، وبطبيعة الحال ألمانيا.

ويصل عدد المتكلمين بهذه اللغة إلى ١٧٦٢٣٢٠ شخصا، بينما نظام كتابتها مستمد من الحروف العبرية، وتعتبر اللغة الرسمية للأقلية اليهودية المعترف بها في السويد.

ليس لها أي جهاز أو مؤسسة رسمية تنظمها، ولغة اليديش هي لغة ألمانية ليهود الإشكناز يتكلم بها عبر العالم، وهي خليط من اللهجات الألمانية والعبرية والأرمنية واللغات السلافية وآثار من اللغة الرومانية، وتكتب بالحروف العبرية.

وأصل هذه اللغة هو الثقافة الإشكنازية الممتدة جذورها إلى القرن العاشر الميلادي في غاينلاند .. انتشرت بعد ذلك في أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى، وربما في قارات أخرى، وفي المراجع القديمة الباقية، يشار إليها بلغة الإشكناز، ولم يصبح مصطلح يديش أكثر استعمالا وانتشاراً إلا في حدود القرن الثامن عشر.

والسينما التي نستطيع أن نُطلق عليها، أكثر من غيرها، تعبير «السينما اليهودية»، إن كان ثمة سينما يهودية، هي تلك السينما الناطقة باليديشية، فهي سينما لا تعبر عن ثقافة اليهود بشكل عام وإنما تعبر عن ثقافة يهود شرق أوروبا وعمما يمكن تسميته «القومية اليديشية».

وقد بدأت السينما اليديشية، في الولايات المتحدة، في أواخر عصر السينما الصامتة حيث كان الحوار

يُطَبَع على الأفلام في كادرات منفصلة، وأهم أفلام هذه الفترة، هي: «مازل طوف» (١٩٢٤)، و«القلوب المحطمة» (١٩٢٥)، و«الجانب الشرقي لساري» (١٩٢٩)، وكلها من إخراج سيدني جولدوين. ومع بداية ظهور الأفلام الناطقة في العام ١٩٢٧، بدأ عصر ازدهار السينما اليديشية الذي وصل إلى ذروته في النصف الثاني من الثلاثينات، حيث بلغ عدد الأفلام الناطقة باليديشية حوالي مائة فيلم أغلبها أمريكي، وبعضها بولندي أو من بلاد أوروبية أخرى، إلى جانب ٣٥ فيلماً تسجيلياً قصيراً. ومن أهم الأفلام الأميركية اليديشية: «الأب أبراهام صوت إسرائيل» إخراج جوزيف سيدني (١٩٣١)، و«قوة الحياة» إخراج هنري لين (١٩٣٨)، و«يوسف في مصر» (١٩٣٢)، و«اليهودي التائه» (١٩٣٢) إخراج جوزيف رولاند، و«أضواء القمة» إخراج إدجار أولمير (١٩٣٩)، أما في بولندا، فكان جوزيف غرين أهم مخرجي الأفلام اليديشية، ومن أفلامه: «مهرج عيد النصب» (١٩٣٧)، و«خطاب إلى أم» (١٩٣٨).

محاولات فلسطينية خجولة

خلال هذه الفترة، أي مطلع القرن العشرين حتى النكبة، كانت السينما الفلسطينية قد بدأت أولى خطواتها مع الرائد السينمائي الأول إبراهيم سرحان في العام ١٩٣٥، عبر فيلم تسجيلي قصير مدته ٢٠ دقيقة عن زيارة الملك سعود بن عبد العزيز لفلسطين، وتنقله بين عدة مدن فلسطينية منها القدس ويافا برفقة الحاج أمين الحسيني، مُفتي الديار الفلسطينية. بدأ بعد ذلك عدد من هواة فن السينما بإنتاج الأفلام والجرائد السينمائية كان من أبرزهم جمال الأصفر، خميس شبلاق وأحمد الكيلاني الذي درس السينما في القاهرة وتخرج منها عام ١٩٤٥، ليُعدّ بذلك أحد السينمائيين الفلسطينيين الأوائل الذين درسوا فن السينما أكاديمياً.

وقام إبراهيم سرحان بإنتاج فيلم روائي بعنوان «عاصفة في بيت» وأنتج بعض الأفلام الإعلانية القصيرة، وحسب ما تقول الروايات إنه هاجر بعد نكبة العام ١٩٤٨ إلى الأردن، ليخرج أول فيلم روائي أردني طويل «معركة في جرش»، قبل أن ينتقل إلى لبنان ويقول الباحث السينمائي محمود روقة إن إبراهيم سرحان قد عمل في مجال السمكرة (مواسرجي) في مخيم شاتيلا للاجئين في العاصمة اللبنانية بيروت.

وممن لم يذكروا كثيراً في المراجع العربية، عبد اللطيف الحاج هاشم، وتعاون مع مخرجين آخرين وهما: أحمد حلمي الكيلاني و جمال الأصفر في إنشاء «الشركة العربية لاتنتاج الأفلام السينمائية» في فلسطين، ولجأ إلى الأردن بعد نكبة ١٩٤٨، أما محمد صالح الكيلاني، فأسس ستوديو للتصوير الفوتوغرافي في يافا العام ١٩٤٠ ودرس السينما في إيطاليا، وبعد عودته إلى فلسطين حاول إنجاز فيلم عن القضية الفلسطينية بالتعاون مع المكتب العربي لجامعة الدول العربية في العام ١٩٤٥ ولكنه لم ينجح بسبب الأحداث في فلسطين ونكبة ١٩٤٨ وغادر إلى القاهرة، وعمل هناك في حقل الانتاج السينمائي الوثائقي والتسجيلي، وتمكن الكيلاني من إنتاج فيلم روائي طويل العام ١٩٦٩ في سوريا يدعى «ثلاث عمليات في فلسطين».

بعض الأفلام الفلسطينية التي أنتجت في هذه الفترة كان «أحلام تحققت» وهو فيلم مدته ٤٥ دقيقة كان بمثابة دعاية لدار رعاية أيتام، وفيلم عن «ستوديو فلسطين» الذي أُسس عام ١٩٤٥ وتظهر فيه الراقصتان شمس وقمر والمطرب الفلسطيني سيد هارون، وفيلم عن أحمد حلمي باشا عضو الهيئة العربية العليا، وفيلم بعنوان «في ليلة العيد» أنتجته شركة الأفلام العربية، مثل فيه كل من حسن أبو قبيع وأحمد الصلاح.

في حين استمرت الأفلام اليهودية الدعائية المؤسسة على الأيديولوجيا الصهيونية لضرورات جلب المزيد من اليهود وتلقي مزيد من الدعم من الأغنياء اليهود في الخارج، وجاءت فترة انقطاع عند اندلاع الحرب العالمية الثانية توقف خلالها إنتاج الأفلام بسبب صعوبة وصول مواد الفيلم الخام من أوروبا، وبعد انتهاء الحرب عادت شركات الإنتاج اليهودية لتصوير التقارير الإخبارية كما في السابق، بقيت السينما الفلسطينية والعربية في تلك الفترة دون ملامح، فهي سينما هزيلة ومرتبكة وفردانية، وإن بقيت إلى يومنا هذا تقوم على المبادرة الفردية، لكنها كانت في تلك الفترة بعيدة في غالبيتها العظمى إن لم تكن جميعها عن التصدي للرواية الصهيونية سينمائياً، ربما لقلّة الإمكانيات، وأستبعد ذلك، فكثير من الأفلام الصهيونية الأولى صنعت بإمكانيات متواضعة للغاية، وربما لاعتقادهم (صناع السينما الفلسطينيين والعرب) بأن السينما وسيلة ترفيه أكثر منها وسيلة لنشر الوعي القومي، وأحد صنوف مقاومة المشروع الصهيوني، فكانت الأفلام الفلسطينية والعربية المصنوعة في فلسطين، في جلها ترفيهية كوميدية وتعالج في بعضها قضايا مجتمعية في أفضل الأحوال.

المصادر

١. حسان أبو غنيمة، دراسة «فلسطين والعين السينمائية»، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨١.
٢. عماد النويري، مقال بعنوان «القدس قديماً في السينما الصهيونية والهوية المفقودة»، موقع «سينماتوغراف» الإلكتروني، ١٧ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٦.
٣. سعد عبد السادة، مقال بعنوان «السينما اليهودية والصهيونية واليديشية»، موقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، ٢ آب (أغسطس) ٢٠١٠.
٤. سليم أبو جبل، مقال بعنوان «أفلام الأيديولوجيا والحرب في السينما الإسرائيلية»، موقع «ذاكرات» الإلكتروني، ٢٧ نيسان (أبريل) ٢٠١٤.

في مئوية فدوى طوقان؛ من الحرْمَلِكُ إلى العبارة

المتوكل طه

تعترف فدوى بكل جرأة وصراحة انها تعرضت لمحاولات التدمير والتشويه والقمع لهفوة ممارستها وتمارسها كل مراهقة في حياتها . كانت «غلطتها» غلطة عادية، وكان يمكن لهذه الغلطة ان تعالج بطريقة اخرى لو لم تكن فدوى في نابلس المحافظة وفي الثلاثينات من القرن الماضي، ولو لم تكن تنتمي الى عائلة ارسقراطية تنتمي سياسياً الى وطنها وثقافياً الى خارجه -باعتراف فدوى نفسها- . كان يمكن لهذه الغلطة ان تُسوَّى لو لم تكن الطبقة التي تنتمي الى نفسها منقسمة على ذاتها، تعاني خلافاً في توجهاتها وتحديد مرجعياتها، وتعلق فدوى على تلك الغلطة بقولها إنها لو عوملت بطريقة لينة آنذاك لما خرجت منها الشاعرة التي حطمت القمم . ولكن ذلك لم يكن، فقد قُفعت الصبية الصغيرة، وأُخرجت من المدرسة، وفُرضت عليها الخدمة في المنزل الشبيه بالقلعة، وقُطعت علاقاتها بكل الخارج الذي كان يضج بأحداث جسام . وكان يمكن لهذه الصبية العليلة «الصفراء» أن تظل حبيسة الجدران وأن لا يسمع بها احد حتى تموت، ولكن الصبية الصغيرة تمترست خلف الرفض السلبي و«الكراهية» الصامتة لما يجري والصمت المطبق ايماناً منها بعالمها الداخلي الفني، كانت تشعر بشكل ما انها «مختلفة» . يعجبها طنين النحل حول سدر الكنافة، وألوان زهر النارج في باحة الدار، يخيفها الموت ويستوقفها، تكتشف الفروق في المعاملة بين البنات والاولاد، وتفقد الحنان واللمسة اللطيفة، كانت تعتقد في قرارة نفسها أنها حقاً تستحق حياة اخرى، وتؤمن ايماناً مبهماً، ولكنه عميق وراسخ بأن حياتها تبحث عن محور تدور حوله، وفي قراءتنا لسير ذاتية لمبدعين آخرين نرى مثل هذا الايمان المبهم المبكر الذي يدعوهم الى تغيير وجهة حياتهم او اكتشاف

مواهبهم والاصرار عليها .

تقول فدوى إنها اخذت تقوم برحلات وعي داخلية وذلك بالنظر الى ورقة شجرة ما والتركيز عليها بحيث تخرج من مكانها وزمانها، ثم تعود الى واقعها عندما تُنادى لشأن ما، ان مثل هذه التدريبات الروحية ومحاولات كسر الشروط وقيود البيئة كانت الخميرة الاولى الابداعية لابنتدار الشعر واجتراحه، وهو دليل حقيقي وحيي على أن الموهبة الكبيرة تجد دائماً متنفساً لها .

وكان رد فعل فدوى مختلفاً، أيضاً، على محاولات القمع والتشويه والتدمير، لم تصرخ ولم تبك ولم تدافع ولم تبرر - لصفة اصلية فيها كما تقول - وانما ردّت على ذلك بالصمت المطبق والتجاهل التام لمن حولها . وبالإضافة الى هذا، كتاب نحوٍ أو أدب تقرأ فيه كلما اتاحت لها الفرصة - وبهذا فإنها تقدم لنا قصة نموذجية عن اصرار المبدعين على حماية ارواحهم من الانهيار، وتسييج دواخلهم من الهجوم الخارجي عليهم، وهي في هذا مثل كل اولئك العظام الذين قرأنا عنهم وكيف صانوا انفسهم من الدمار والتشويه - .

ان هذه الرغبة العميقة في حماية روحها من الالغاء والتشويه والاعدام والتقزيم والتهميش جعلها تتشبث بكل قوة بما يبرر لها كينونتها وسبب وجودها ومعنى حياتها، ووجدت كل ذلك في حفظ الشعر اولاً ثم قوله، وبقول الشعر، شعرت فدوى انها تستطيع كسر كل الاطواق المتراكمة حولها، ومن عجب ان فدوى ومن خلال سيرتها لم تصف لنا احتفالها بأول قصيدة أو بأول بيت قالته قدر وصفها للسعادة التي كانت تحققها قصيدتها، بمعنى أن فدوى لم تتحدث عما يصاحب القصيدة الأولى من انفعالات بقدر حديثها عن اثر قصيدتها عليها اجتماعياً، ومعنى هذا ان الشعر لدى فدوى كان ردها العنيف والاقوى على القمع المتعدد المستويات الذي واجهته في صدر شبابها . وأكثر من هذا، فقد امتنعت فدوى عن كتابة الشعر الذي كان والدها يطالبها به وكأنها تريد معاقبته به، وكأن حال لسانها يقول: هذا ما كنت تحرمني منه . أو هذا ما حرمتني منه!!

الشعر منح فدوى شرعية اخرى او قل شرعية أولى، شرعية للعيش والوجود ومن ثم تبريراً لهذا العيش وهذا الوجود، والشعر أيضاً منحها توكيداً لذاتها واحتراماً لها، كان الشعر اكتشافها الذي عرفتته منذ البداية بشكل عصي على الفهم، حتى اضاءت لها العلاقة الفريدة المميزة مع شقيقها

الشاعر الكبير المبدع ابراهيم، هذا الكنز بين جنبيها .

وبادئ ذي بدء يجب ان نسجل اننا لا نكاد نرى علاقة فريدة ومميزة مثل العلاقة التي كانت بين ابراهيم وفدوى، شاعراً وشاعرة، شقيقاً وشقيقة، هذه العلاقة التي تراوحت ما بين أخوية مُحَبَّة وشفوقة، وبين زمالة نديَّة فيها احترام واعتراف، وهي علاقة مميزة في شرطها الزماني والمكاني، ومميزة في شرطها الانساني كذلك .

شاعر كبير منشغل بقضايا كبيرة ويعيش في مدينة كبيرة تختلف كلياً عن مدينته، يكتب لشقيقته «الصفراء»، يصحح اخطاءها مرة، ويدلها على مواقع البديع مرة، يشجعها على الكتابة حيناً ويمدح ما تكتب حيناً آخر، باختصار انه يكتشف الشاعرة في اخته، ولا يكتفي بذلك، ولكنه يشجعها على الكتابة والنشر، رغم ما يعرف من قساوة الظروف وشدة القمع، وإذا كان هذا دليل على عظمة ابراهيم الشعرية والروحية، فإنه دليلٌ، ايضاً، على تصدع الطبقة واختلاف مرجعياتها، ففي اللحظة التي يطلب ابراهيم من فدوى أن تشتري اسطوانة «موريس شفالبيه» من الاسواق، يطلب إليها بذات الوقت ان تقرأ القرآن الكريم، وواضح ان ابراهيم يعكس ثقافة الطبقة التي ينتمي إليها، يطرب للجديد ويستسيغه ولكنه لا يريد ان يتخلى عن «القديم» ايضاً، تماماً كالطبقة التي ينتمي إليها، تلك الطبقة التي كانت تواجه عوامل تفكك وتحول، تُوجت بانفجار ثورة ١٩٣٦ التي قادها الفلاحون الفلسطينيون، ولم تستطع البرجوازية الفلسطينية في ذلك الوقت إلا أن تنخرط في الثورة متخلفة عن الطروحات السياسية التي تمسكت بها منذ بداية العشرينات .

ان العلاقة الفريدة والمميزة التي جمعت بين شقيقين شاعرين من بيت واحد، بهذا الشكل، منح الشعب الفلسطيني تجربتين روحيتين طرحتا ثمراً طيباً، وكما يقول المثل الفلسطيني ان «البطن بستان» فإن هذا المثل ينطبق على تلك التجربتين انطباقاً كاملاً، فابراهيم اكتشف المفارقة في الواقع ووقفت فدوى عند حدود الذات الوالهة المتألمة، الصابرة المتألمة، وعلى عكس شقيقها، فإنها لم تُصَبْ منه بعدوى السخرية او الفكاهة، وكأن العالم تخلى عما فيه من فكاهاة . ولا عجب، فإبراهيم خرج الى الشارع، رأى وانغمس عميقاً في الهم العام، فيما بقيت فدوى حبيسة نفسها وجدرانها واطواقها وقيودها، ولم تحاور غير نفسها، ولم تلمس غير قيودها، ولم تعش غير آلامها .

وإذا تميز ابراهيم بحدة الشعور وحدة التعبير، فإن فدوى، ايضاً، تعترف انها ذات «أحاسيس مشتعلة»

ساعدتها ليس في كتابة الشعر فقط وإنما جندتها لكسر حواجز كثيرة.

ويمكن اعتبار كلاً من حياة الشقيقتين وشعرهما تعبيراً أو انعكاساً للتاريخ السياسي والاجتماعي للشعب الفلسطيني؛ ففي اللحظة التي نجد فيها ابراهيم انعكاساً لهوية قومية وليدة تتجسد على الارض بفعل الواقع السياسي السائد، كانت فدوى تعبيراً عن تلك القوى التي تتصارع داخل المجتمع الفلسطيني للتعبير عن نفسها بشكل مختلف . بمعنى آخر، كان ابراهيم تعبيراً عن الخارج الشكلي أما فدوى فكانت تعبيراً عن الداخل الفعلي، وبما ان العلاقة لم تكن قوية ولا منسجمة بين الطموح السياسي بتأكيد هوية ملموسة وبين القوى الاجتماعية القادرة على تجسيد ذلك الطموح، كان الانهيار الكبير عام ١٩٤٨، وفي هذا العام استطاعت عدة عصابات صهيونية مسلحة أن تهزم «جيوشاً كثيرة» ارسلتها انظمة فاسدة . بالاضافة الى هزيمة شعبنا الذي لم تقم جهة ما بإعداده اعداداً كاملاً او ملائماً لمواجهة الخطر الذي كان تحت الانف مباشرة ولا يحتاج الى كبير ذكاء لمعرفته او تحديد مصدره .

مات ابراهيم تعبيراً عن موت القدرة على تحقيق الطموح السياسي بدولة فلسطينية، فيما تواصلت فدوى تعبيراً عن قوى اجتماعية مجهضة تناضل من اجل التعبير عن نفسها، واخذ مواقعها الحقيقية في سياق بناء مجتمع افضل، ومن هذا المنطلق تبدو العلاقة بين الشقيقتين رمزية الى ابعد حد، وحقيقية الى ابعد حد ايضاً. ومع الانهيار الكبير عام ١٩٤٨، انهارت ايضاً القوى السائدة وقوانينها واطواقها، وبدأت قوى اخرى بالظهور والتعبير عن نفسها بكل جلاء، وفدوى كانت جزءاً من هذا السياق، وجدت نفسها تحمل قضيتها الذاتية التي اندغمت فيها بذات الدرجة قضية عامة هي الخسران والشكوى والألم .. وكأنها والتاريخ كانا على موعد.

حمل صوتها الشعري، معاناتها، ولم تكن تدري أنها تحمل بذلك صوت المحرومين والمقموعين مثلها . وانجيل صوتها بالخسران والفقد والشكوى، وما علمت أنها بذلك تعبر عن شرائح واسعة ذبحهم الواقع وقيدتهم الظروف.

وبخروجها من «القمقم الحريري» كما دعت، فكأما كان ذلك شرطاً تاريخياً لخروج الجميع من قمقم الكذب والدجل والتغيب والتهميش السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وهكذا، التقى صوت فدوى الشعري مع ظرفه التاريخي، فالتحما، وإذا بالصبية العليلة التي قمعت وحوصرت، شاعرة

مشهورة يشار إليها بالبنان.

ورغم ذلك، ظلت شاعرة متوجسة، تنتظر الكارثة وتبكي لمنظر جميل، ونفسٌ شفافة مثل هذه لا تحتمل الحياة، فعاشت دون وظيفة أو عمل رسمي ودون زوج يرهقها وترهقه، ودون مَنْ يصدع رأسها بميراث أو مال، بقيت تعبت بين أشعارها وأزهارها، وكلاهما ينبتان بالخيال والقليل من الماء والهواء.

فدوى طوقان

بين الإشارة والعبارة

I

ولدت الشاعرة فدوى طوقان في نابلس العام ١٩١٧ لأسرة عريقة وغنية ذات نفوذ اقتصادي وسياسي، الأمر الذي فرض على الأسرة قيماً وسلوكات اعتبرت فيها مشاركة المرأة في الحياة العامة أمراً غير مستحب. وانعكس هذا على الحياة الشخصية لشاعرتنا التي لم تستطع إكمال دراستها فأخرجت من المدرسة في وقت مبكر جداً، اضطرت فيه إلى الاعتماد على نفسها في تثقيف ذاتها وكسر الشرنقة التي حيكت حولها باسم التقاليد والقوانين غير المكتوبة.

لم تتميز فدوى طوقان بالانقلابات الكبيرة والمناصب المهمة، بل يمكن القول إنها لم تمارس شيئاً غير الشعر، هذا الشعر الذي تغذى على الفجائع والحرمان والموت والفراق والغضب المكبوت والثورة الصامتة. وقد شكّلت علاقتها بشقيقها الشاعر إبراهيم علامة فارقة في حياتها، إذ استطاع هذا النبيل الساخر أن يدفع شقيقته إلى فضاء الشعر، وحررها من ظلام حياة عادية كان يمكن أن تعيشها. كان عالم فدوى طوقان ضيقاً صغيراً ومحصوراً، لم تخرج فيه إلى الحياة العامة، ولم تشارك فيها سوى بنشر قصائدها في الصحف المصرية والعراقية واللبنانية، وهو ما لفت الأنظار إليها بقوة، وأهلها لتدخل الحياة الأدبية الناشطة في نهاية ثلاثينات القرن الماضي ومطلع الأربعينات.

موت شقيقها إبراهيم ثم والدها ثم نكبة العام ١٩٤٨ شكّلت ظروفًا مساعدة لخروج الشاعرة من قضايتها الحديدية، وجعلتها تشارك من بعيد في خضمّ الحياة السياسية في الخمسينات، ولكن

هذا النشاط السياسي لم يتعدَّ الاهتمام العاطفي، ولم يصل إلى درجة الالتزام والانتماء الحزبي، وقد استهوتها الأفكار الليبرالية والتحررية كتعبير عن رفض استحقاقات نكبة العام ١٩٤٨، وهي مسألة غاية في الأهمية إذ إن شاعرنا الكبيرة - وبسبب من اعتمادها على نفسها في تثقيف ذاتها - غرقت في الفلسفة الوجودية بشكل خاص والمدارس الفلسفية الغربية بشكل عام.

النقلة المهمة في حياة فدوى هي تلك الظروف التي دفعتها إلى أحضان لندن في بداية الستينات من القرن الماضي، ذلك أن رحلتها التي دامت سنتين فتحت أمامها آفاقاً معرفية وجمالية وإنسانية رحبة وواسعة، وجعلتها على تماسٍ مع منجزات الحضارة الأوروبية فنّاً ومعماراً وأناساً وقيماً أخرى. وتعتزف الشاعرة بأن تلك المرحلة أثّرت عليها تأثيراً عميقاً على المستوى الشعري وعلى المستوى الشخصي. ويأبى القدر إلا أن يلاحق الشاعرة، فيموت شقيقها نمر أثناء وجودها في لندن.

ولكن فدوى حافظت على وتيرة حياتها الهادئة في بيتها الصغير على إحدى هضاب جرزيم، تكتب الشعر وتنشره، تزرع الأزهار وتنتظر نموها.

وشكّلت نكسة العام ١٩٦٧ أحد الدوافع المهمة لأن تكسر الشاعرة مرة أخرى إيقاع حياتها الريب، فتخرج من جديد للخوض في تفاصيل الحياة اليومية الصاخبة، فتشارك فيما عرف في حينه بوساطة بين وزير الحرب الإسرائيلي «موشيه ديان» والرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وتشارك أيضاً في الحياة العامة لأهالي مدينة نابلس تحت الاحتلال، وتبدأ عدّة مساجلات شعرية وصحافية مع المحتل وثقافته.

هذا وقد أصدرت الشاعرة ثمانية دواوين شعرية هي على التوالي: «وحدني مع الأيام»، «وجدتها»، «أعطنا حباً»، «أمام الباب المغلق»، «الليل والفرسان»، «على قمة الدنيا وحيداً»، «تموز والشيء الآخر»، «اللحن الأخير»، عدا كتابي سيرتها الذاتية «رحلة جبلية، رحلة صعبة» و«الرحلة الأصعب». وقد حصلت على جوائز دولية وعربية وفلسطينية عديدة وحازت على تكريم العديد من المحافل الثقافية في بلدان وأقطار متعددة.

تعتبر فدوى طوقان من الشاعرات العربيات القلائل اللواتي وصلن الشعر القديم بحركة الحدائثة والتجديد، فخرجت من الأساليب الكلاسيكية للقصيدة العربية القديمة خروجاً سهلاً غير مفتعل،

ويمكن القول في هذا الصدد إنها جعلت من هذا الخروج أحد أهم نقاط قوتها، محافظة في ذلك على الوزن الموسيقي القديم والإيقاع الداخلي الحديث، وصاغت من ذلك قصيدة غنائية ناسبت ولاءمت نفسيته التي تميل إلى التفجّع.

يتّصف شعر فدوى طوقان بالمتانة اللغوية والسبك الجيّد، مع ميل شديد للسردية والمباشرة. وهي في تمركزها حول أسئلتها الوجودية، فإنها تنكشف انكشافاً سافراً للأفكار المجردة، وتتكئ في ذلك على مقولات جاهزة، تجعل من بعض قصائدها وكأنها حوارات مع الأفكار، أكثر مما هي تصوير للمشاعر.

جرأتها في مضامينها، جعلتها تتقدّم في دروب المشهد الثقافي الشعري العربي، كما أن طرّفها موضوع مكانة المرأة وعلاقتها بذواتها وعلاقتها بذوات الآخرين جعلها تتبوأ مكانة مرموقة بين الشاعرات العربيات، خاصة وأنها كسرت الصور التقليدية لمشاعر المرأة الشرقية، وابتعدت بها عن كونها مجرد متلق لتدفعها إلى ممارسة الفعل وأخذ المبادرة، انطلاقاً من داخل مهشم ومهزوم.

فالحبّ عند فدوى طوقان أقصى قوة للمرأة، من خلاله تمارس كل ما حُرمت منه تحت كل مسمى. الحبّ ليس قوة سلبية ولكنه يصدر عن سلبية، ولهذا فهو طوق النجاة.. وعلى الرغم من التباس المفهوم في شعر الشاعرة واضطرابه ما بين حسية عالية وشفافية أخاذة، إلا أن طرّفه والتركيز عليه جعل الشاعرة في مصاف الشاعرات اللواتي محضن هذا المعنى جل إبداعهنّ. بالإضافة إلى كل هذا، فإن شعر فدوى طوقان يتميز بطاقة عاطفية مذهلة، وهي لا تتأقّق في عرض هذه الطاقة التي تشدنا إليها شدّاً، ويمكن القول إن فدوى تجيد هذا اللون من القول، الذي تختلط فيه الشكوى بالمرارة والتفجّع وغياب الآخرين.

شعر فدوى طوقان شعر غنائي متمركز حول ذاته، شديد العاطفة، سردي العرض، يقدم ذاته مباشرة دون وساطة، وشاعرة كهذه لا بد لها - لتأكيد شكواها - أن تفلسفها ولو قليلاً.

II

الآن، وبعد رحيل شاعرتنا الكبيرة فدوى طوقان، أشهر شاعرة فلسطينية في القرن الماضي، وأعلى قمة إبداعية نسوية في تاريخ الفلسطينيين الحديث، وإحدى مشاهير الشاعرات العربيات، حيث

ساهمت في معمار القصيدة العربية الحديثة وأصلت لها وقعدتها ودفعت بها إلى بقاع أخرى وولجت بها مناطق معتمة ووعرة، آن لنا أن نؤرخ لها وبها، وأن نحفر في إبداعها، وأن نقدمها للأجيال، ذاتاً قوية صلبة، حمت نفسها من الموت والاندثار والصمت، ومبدعة شاركت في صنع الهوية وتأصيل الثقافة، وأسهمت في بلورة الموقف الوجداني لشعب تعرض وما يزال لأبشع حالات الاستهداف والتغيب.

الشاعرة الكبيرة الراحلة، وعلى مدى سنوات عمرها الست والثمانين، شاهدت ورافقت وعبرت فيهن عن هذا الشعب، فيما تعرض إليه من قمع ومن مؤامرة، ومن خديعة وهزيمة وذل، وما تصاعد من مقاومة، وما تشرذم من مواقف، وما تآكل من مبادئ، وما حدث من تاريخ ومن فانتازيا، كانت شاعرتنا في كل ذلك على حد السكين، تخلط ما بين هزائمها الشخصية وهزائمها البرّانية، وما بين تشوقها للحب والحياة الهائلة وبين ما تشاهد من فظاظة وقسوة عصية على الفهم. بكت كالثكالي، وغنت للمسحوقين والمهجرين والفقراء، كأنها أحدهم، وغضبت من أعمق أعماقها، إلى درجة أسمتها الصحافة الإسرائيلية ذات يوم «أنها آكلة أكباد الجنود» أو «الشاعرة التي تخلق قصيدتها عشرة فدايين»، قمعت إلى درجة أنها شارفت على الموت، وانطلقت إلى العالم حتى سمع باسمها الجميع، أحبت حتى الثمالة، وتجرعت الخيبة حتى الثمالة أيضاً، غنت للعطاء وعاشت في أضيّق الحدود، عرفت الزعماء الكبار ولم تجد سعادتها إلا بصحبة الأطفال والأزهار. وعندما كشفت عن أسرارها لم تستطع أو لم تجسر على قول كل شيء.

هذه هي فدوى طوقان، شاعرة محكومة بسقوف لم تستطع تجاوزها، ولم تستطع اختراقها حتى عندما كتبت سيرتها الذاتية، إذ أنها لم تفعل أكثر من إعلانها أنها حققت ذاتها شاعرة مبدعة، ولكنها صمتت عن كل ما عدا ذلك. كانت سيرتها التي عنونتها برحلة جبلية رحلة صعبة، سيرة متحفظة، غامضة، ناقصة، المحذوف منها أهم من المكتوب والمعلن فيها.

ظلت فدوى حتى وهي تعترف، متحفظة، أرسقراطية، لا تستطيع البوح ولا الكلام، ظلت شاعرتنا محفوفة بشفرتين قاسيتين لا ترحمان، فهي شاعرة ذات أحاسيس قوية وعنيفة وعميقة، ولكنها في الوقت ذاته تنتمي لعالم لا تستطيع تحطيمه بالكامل، وإذا استطاعت، فإنها لا تستطيع أن تبوح بذلك.

وعليه، فإنني أدعي أن فدوى طوقان، أحاطت نفسها بنوع من الغموض على المستوى الحياتي وعلى المستوى الإبداعي، أما الحياتي، فهي لم تذكر شيئاً في سيرتها عن تفاصيل حياتها، وعلاقاتها، وأفكارها، وأولوياتها، ودوافعها، وعن النقاشات والجدل الذي خاضته، لم نر شيئاً في سيرتها سوى صمودها وإصرارها على الحياة، دون أن نلاحظ أثر الآخرين عليها، وقد وضعت فدوى ستاراً حديدياً بيننا وبين أعماقها، إذ أنها لم تضح شيئاً من دواخلها ومشاعرها ونوازعها. ظلت أرسنقراطية، تجيد الابتسام وتبث الهدوء، دون أن تفصح عما بداخلها. وأدعي أن ذلك انعكس على إبداعها الشعري أيضاً، فقصيدتها ناعمة، رخوة، طويلة، هادئة، وتميل إلى النثرية، رغم أن أعماقها تمور بالغضب والرفض والتمرد.

الأصل الأرسنقراطي الذي تنتمي إليه فدوى، جعلها اقرب للتكتم والغموض والتحفظ، ودفعها إلى السكوت الكثير عن كثير.

والأصل الأرسنقراطي الذي دفعها لأن تتعرف على زعماء كبار أوقعها في دائرة تأثيرهم على الرغم من أنها ترفض مسالكهم وتوجهاتهم، والأصل الأرسنقراطي دفعها لأن تعيش حياتين مختلفتين؛ حياة شاعرة لشعب مسحوق ومُذل ومُهان، وحياة إنسانة تستفيد مما تمنحه تلك الطبقة من مزايا وانطلاق.

فدوى طوقان لم تقل كثيراً، ولم تنشغل بالقضايا الفكرية الكبرى، قدر انشغالها بعالمها الصغير الذي كبر رغماً عنها، إذ أن العالم خارجها كان من الظلم والفظاظة إلى الدرجة التي اقتحم عليها عزلتها وأجبرها على التعامل معه، ولهذا، حولها من شاعرة تريد إثبات نفسها على المستوى العائلي والشخصي، إلى شاعرة مضطرة إلى إثبات هوية شعبها ووضعها على الخريطة، كان عليها هي بالذات أن تعبر عن هزيمة شعب كامل، وقمع بلد بحاله، وكان أن رأت ما تعرضت له من تهمة وإهمال يشابه تماماً ما يتعرض له شعبها كله، ولكنها، ومن منطلق ما تعرضت له من تربية وقوانين وثوابت لم تر في تلك الهزيمة سوى البكاء والتفجع، وهو سلوك أقرب إلى روحها وإلى ما تعودت عليه منذ صغرها، والبكاء سلوك سلبي ولو كان شفقة ورحمة، والبكاء موقف فردي ولو كان من دوافع نبيلة، وقد وقفت فدوى طويلاً في هذه الحالة ليدل ذلك على انعدام رؤية سياسية عميقة وشاملة لديها، على الرغم من مشاركتها الهامشية في الحياة السياسية التي شهدتها فلسطين في الخمسينات

من القرن الماضي.

وهي على عكس شقيقها الراحل الكبير إبراهيم، لم تستطع أن ترى الصورة كاملة ولا المشهد شاملاً، فظلت عند حدود معينة لا تتعداها. وفي الوقت الذي استطاع فيه إبراهيم أن يتجاوز حدود طبقته وأن يتعدى قوانينها وأن يعتمد على نفسه، وأن يذهب بعيداً في الحياة والإبداع، نجد أن فدوى خشيت كل ذلك، أو أبقته طي الكتمان. وربما كان لذلك أسبابه الوجيهة والمفهومة، فهي في نهاية الأمر امرأة في مجتمع محافظ لا يرضى ولا يقبل ولا يهضم التمرد عليه، وفدوى - وعلى الرغم من كل ثورتها الهادئة على وضع المرأة في المجتمع الفلسطيني - إلا أنها حافظت على كل ما لا يسيء لهذا المجتمع.

انصياع شاعرتنا الكبيرة للسقوف والجدران التي حولها والتي بنتها لنفسها، أيضاً، دفعتها لأن تصمت كثيراً وأن تُجامل كثيراً وأن تحذف كثيراً، أيضاً..

ميلها الواضح للمجاملة والمصالحة والمهادنة جعلها تميل إلى الغموض حتى في عرضها لمسائل ذات جدل كبير في الشارع الفلسطيني والعربي أيضاً، وربما كان ذلك يعود إلى أن الشاعرة نفسها لم تُرد لنفسها أن تُشغل موقفاً غير الموقع الذي ترغب به، بمعنى أنها كانت تميل إلى العزلة والوحدة والاقتصار على صديق أو صديقين، وربما أنها لم تكن مؤهلة لذلك؛ الجدل القاسي والصعب خاصة مثل الذي كان يدور في الشارع الفلسطيني.

هل كانت تريد أن تثبت لنفسها إطاراً واحداً تضع فيه صورة واحدة في أذهان الناس؟! صورة الشاعرة المتأمل، المنعزلة، المترفعة، التي لا تدخل في التفاصيل؟! هل كانت تتجنب الخوض في حياتها الخاصة باعتبارها كنزاً تستدفي به في وحدتها الطويلة؟!.

هل كانت ذات طبيعتين تخفي إحداهما لأن ليس من حق أحد أن يطلع عليها سواها؟!.

هل كانت مثل شقيقها الراحل الكبير إبراهيم طوقان الذي ملأ الدنيا وشغل الناس!!

كائنةً ما كانت الأجوبة، إلا أنه يمكن القول إن تربية فدوى وبيئتها الأولى والقوانين التي تشربتها والجرح العميق الغائر في قلبها، علمتها الكتمان والسكوت والمجاملة، وعلمتها أن لا تُخيب الظن، وأن لا (ترتكب) ما من شأنه أن يشين العائلة أو الطبقة أو المستوى.

وأعتقد في هذا الصدد أنه في الوقت الذي تعرضت فيه الشاعرة للقمع والاضطهاد فإنها - وفي الوقت ذاته والقوة ذاتها - عمدت إلى قمع ذاتها هي أيضاً، من خلال ذلك الاستسلام الهادئ للتقلبات والظروف والشخصيات التي أحاطت بها.

نخلص من هذا كله إلى أننا أمام شاعرة انتصرت على ظروفها ولكنها لم تنتصر على «تابوهات» تلك الظروف، شاعرة حققت إبداعاً ولكنها لم تحقق مواقف، عبّرت عن وجدانها ولكنها لم تعبر حدوداً أو تخترق سقوفاً. وهي لم تكن ولم تشبه شقيقها، حيث لم تنسلخ عن طبقتها ولم تخترقها ولم تخنّها أيضاً.

ومن هنا، لم تتخذ مواقف واضحة أو حتى ثابتة من قضايا كبيرة ومنعطفات حادة مرت بها المنطقة. ونحن هنا لا نطالب بما لا تطيق وبما لا تريد وبما لا ترغب، ولكننا بصدد سيرة شاعرة كبيرة لم تعد سيرتها شخصية إلى حد كبير.

ولهذا أيضاً، فإننا إذا حاولنا رسم صورة اجتماعية ثقافية للروافد الأولى لشاعرتنا فيمكن القول إن فدوى التي تفتحت على قديم يتداعى وجديد يتناهض، وطبقة تنهار وطبقة تقوم، ودولة تذهب ودولة محتلة تستبد، ومجتمع يتهدد، وآخر ينبت بشكل مفاجئ، قد تشربت مبادئ الثقافة الواردة الحديثة الليبرالية، وهي الثقافة الأقرب لطبقتها، ما يعني أن شاعرة مثقفة ومتقدمة الإحساس مثلها، لا بد لها أن تنغمس إلى أذنيها في ذلك السياق الفكري الاجتماعي، ولكن هذا لم يحوّلها إلى ثائرة ومتمردة كتقليد شباب تلك المرحلة، حيث شهد ذلك الزمان تعدد الحركات والثورات والجماعات والجمعيات. إن حماسة تلك الأيام ووجهها، أيضاً، لم يورطها في الالتحاق بإحدى القوى أو الجبهات، بل ظلت على الهامش، كما تحب هي أن تعيش.. شاعرة فقط.. شاعرة تستمتع بتأوهاتنا وتفجعها وبكائها.

هذا الاستمتاع بالألم، والاستمتاع بالانتصار الشخصي، جعلها تتورط في علاقات عاطفية لم تكن موفقة في معظمها، الأمر الذي زاد من مرارتها وخيبات أملها، ويمكن فهم هذا الشعور في قصيدتها المشهورة بعد العام (١٩٦٧) عندما زارت حيفا، وقالت قصيدتها تلك، حيث لم تجد في قلبها سوى التفجع والبكاء ولم تر ملامح القوة وإشارات الصمود.

إن شاعرة بهذه الخلفية النفسية والاجتماعية، وتعيش هذا الواقع الصعب والمعقد، كان عليها أن تكون بمستويين ولغتين وحياتين وسيرتين أيضاً. وحتى لا نظلم شاعرتنا الكبيرة، نقول إن الشاعر لا يمكن له أن يتخطى واقعه وزمانه أيضاً، فسنوات الخمسينات والستينات كانت سنوات الأفكار والروى والثورة، سنوات الشباب والهيجان وثورات الجسد وثورات الشعوب، وانقسام العالم إلى أبيض وأسود، أو إن شئت طيب وشرير، كان «الطيب» يقدم نفسه فقيراً، ولكنه إنساني، فيما يقدم الشرير نفسه على أنه غني ومتعدد، أما منطقتنا فقد وقعت تحت تأثير الطيب والشرير على السواء، وكان على مثقفنا العربي أن يناقش ويجادل، وأن يفعل وان يكتب.

وكانت الوجودية إحدى نتاجات الشرير المتعدد والغني، وربما كانت توفر للمثقف العربي حينذاك ما يحتاجه من حرية وانطلاق وما يحتاجه من شعور بالالتزام والمسؤولية، وبالتالي يجمع ما بين أفضل ما في الماركسية وأفضل ما تتمتع به الليبرالية الغربية، وربما - وهذا محض ادعاء - يعود ذلك إلى انتشار تأثير الوجودية في منطقتنا العربية في سنوات الخمسينات والستينات من القرن العشرين.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الوجودية كتيار فلسفي وجد دعماً له في صورة مؤلفات عظيمة لأسماء كبيرة وهامة، فإن ذلك كله شكل بريقاً لا يمكن أن يقاوم، نقول ذلك كله للوصول إلى تأثير هذا التيار على معظم نتاجات تلك العقود، ومنها شاعرتنا العظيمة، التي تجد في دواوينها الأولى أثر الفكر الفلسفي الوجودي وتلك «الثيمات» التي تتردد في أدبيات ذلك التيار.

إن الاحتماء بـ«الذات» وتعظيمها وتضخيمها مع ميل ما للترفع أو الانزواء من منطلق الإحساس بالعظمة وليس الدونية أو قلة الحيلة، كان ما يميز شعر تلك المرحلة، حيث لا نجد سوى ذلك الاستمتاع بالوحدة والعزلة وتقليب الأفكار والذكريات، مع ملاحظة هامة هي الإحساس بالقوة والمنعة والتمركز حول الذات، بمعنى آخر، هناك استمتاع بالوحدة، ولكنه استمتاع القوة، هو أشبه بمصادقة الذات والاستمتاع بكون الشخص هو نفسه.

أتى لشاعرتنا أن تقرأ للوجوديين؟! ومن أين لها أن تتأثر بأفكارهم!! تقول شاعرتنا إن مجموعات المثقفين في نابلس والقدس - وبينهم الثوريين والأكاديميين - كانوا يتناقشون بكل شيء ويتبادلون الكتب المترجمة وغيرها، وهذا ما قالته الشاعرة في مذكراتها، وقالت، أيضاً، إنها كانت تنخرط في الجدل الفلسفي بشكل لافت، وقد كانت شاعرتنا متحفظة في الإشارة إلى طبيعة تلك المناقشات،

فإذا عرفنا أن فدوى لم تحصل على تعليم أكاديمي منتظم وكاف، فإننا سندرك مدى «الانبهار» الذي ستشعر به أمام كل أفكار جديدة تدعو إلى الالتفات إلى الذات من منطلق الحرية المسؤولة - ونجد أنفسنا مدفوعين حقاً إلى اقتراح هذا المدخل لفهم سيرة الشاعرة ونتائجها الإبداعي كله - فالذات الحرة المسؤولة هي التي أنتجت ذلك الإبداع القائم في منطقة الوسط من كل شيء، شكل القصيدة القديم والجديد، والصورة الشعرية الكلاسيكية والحديثة، والذات والآخر، وعبادة القديم ومقاربة الجديد. أما حياتها، فهي، أيضاً، في الوسط من كل شيء، الثقافة والطبقة، أولوا الأمر والحياة العادية المتقشفة، الوضوح والغموض، المجاملة والصراحة، الحب والزواج، العزلة والعائلة.

نحن أمام شخصية إرباها يصدر عن تلك الحياة الرتيبة في ظاهرها، والغائرة في باطنها، ويصدر عن ذلك الشاعر الهادئ الرخو في جملته، المضطرب في معانيه ومراميه.

ولكن متى لم يكن الشاعر مربكاً أصلاً؟!

الشاعر مربك حقاً، إنه يفاجئنا دائماً، وهو بحق مفاجأة واقعة، و«خبر» أهله.

وما كان لنا أن نعرف شيئاً يمتلك كل هذا القدر من الصدق والحساسية والتصوير لولا فدوى طوقان؛ المرأة الفلسطينية التي عانت في العشرينات، وتعلمت في الخمسينات، وشعرت وكتبت وتفاعلت، لتعطينا كل هذه الحياة وكل هذا الشعر.

هل يمكن القول إن الشاعر «زلزال» عصره؟!

بمعنى من المعاني.. الجواب نعم !!

ذلك أن الشعر هو الجماعة (رغم أن ذلك قد يزعج كثيراً من المنظرين والنقاد).

حتى عندما يكتب الشاعر عن ذاته، فإن ذاته هذه هي مجموع أوامر ونواهي وذائقة الجماعة التي ينتمي إليها، ناهيك عن اللغة التي يكتب بها وهي ما تعلمه من جماعته، حتى التركيب والصورة والموسيقى، كل ذلك قواسم مشتركة مع الجماعة، وبهذا فالشعر هو الجماعة، وهو أكثر الأدوات إغراءً بالجماعية والإحساس بها.

ومن هنا بكت فدوى طوقان مع الباكين، وناحت مع الثكالي واللاجئين، كانوا صورتها الخارجية، وكانوا صوتها الذي فقدته في الواقع، وكانوا مشاعرها الأقوى، تلك المشاعر التي تعوّدت على قمعها.

ومن هنا كان غناؤها للحب بشكله الأصفى والأنقى والأكثر رقة وعضوبة، أو لنقل الحب بصورته الأكثر صمتاً وحياءً وعفة.

الكلام عن الحب، محرج وثقيل في واقع لم يتعوّد أفراده الكلام عن الحب، باعتباره «العيب» أو «الخيار» الذي لا يمكن الكلام عليه، فهو سبب المهالك أو الفضائح أو مقارفة الذنب.

شاعرتنا الكبيرة، تكلمت عن الحب، بالكلمة الأنعم والألطف والأكثر صمتاً، كان تلويحاً بالحب لا مقارنة له، كان استشرافاً للمشاعر وسبرها واستطعامها، كان شيئاً شبيهاً بالكلام عن الأم والعذاب. (تستعذب شاعرتنا الكلام عن الأم).

كان الحب مفاجأتها الأخرى، كان ذاتها الأخرى أيضاً، ومن عجب أن شاعرتنا الكبيرة ظلت متحفظة طيلة الوقت، كانت لا تصرح ولا تلمح، تكتمت على حبها وجعلته كنزها الذي لا تبوح به أبداً.

هل هي غريزة العاشقة التي تعمد إلى إخفاء اسم معشوقها خوفاً عليه من الأخريات؟! هل هي التريبة والطبقة؟!

هل هي نزعة أصيلة في الشاعرة التي تميل عادة إلى «الصمت والبكاء»؟!

ولكن حبها كان مثلها، أيضاً، بكاءً صامتاً، ينفعل ولا يفعل، يتهياً ولا يغوص، يكتفي بالإشارة عن العبارة. وكان ذلك جديداً في تاريخ القصيدة الفلسطينية؛ جديداً ومفاجئاً وجميلاً، وقد تقبلته الأوساط الأدبية العربية بالترحاب والقبول.

ولكن قصيدة الحب التي كتبتها فدوى كانت قصيدة مترفعة، كتومة، مغلقة، صامتة، ليس فيها من الألوان والروائح الشعبية شيء، وليس فيها من الحس الشيء الكثير، وكان ذلك من الأسباب التي جعلت من تلك القصائد أقل انتشاراً بين الناس، ظلت قصائد خاصة تعبر عن حالة خاصة لشاعرة خاصة، لا تبوح وتحذف أكثر مما تقول.

نعم، هي تحذف أكثر مما تقول!!

هي تقف وسط كل شيء، بين الإشارة والعبارة!!

قصيدة الحب التي كتبتها فدوى طوقان لا تشبه قصائد أخيها إبراهيم (الذي لم يكتب في الحب وإنما

في الغزل، والغزل فيه شهوة والحب فيه عفة، الغزل فيه شبق والحب فيه عبادة).

قصيدة فدوى - ولا نبالغ إذا قلنا - تتحدث عن حب معقد، فيه إشارات وفيه أُلغاز وفيه أعماق لا يتشاطر القارئ العادي معها، فإذا أضفنا إلى ذلك ما تتميز به قصائد الشاعرة من الهدوء وتلك «الرخاوة» أو ذلك «الفتور»، فإن تلك القصيدة - قصيدة الحب - لم تتحول إلى ما يمكن اعتباره شعر لافتة في الحب، فهي قصيدة الصوت الخفيض والهامس والحيي، وهي قصيدة المعنى وليس الصورة التي تزدهم باللون والحركة والصوت، وهي قصيدة الشهوات المهذبة والرغبات المقموعة والتربية الخاصة.

ثورة الحب هذه، أو مفاجأته، كانت مقدمة لثورة أخرى في نفس وإبداع الشاعرة، تمثلت في الغناء للثورة والمقاومة ولرموزها ورجالها، كانت سنة (١٩٦٧) انقلاباً كبيراً في حياة الفرد العربي والأمة العربية. في ذلك العام سقطت كل الأشياء والمعاني والمقدسات، كان سقوط القدس العام (١٩٦٧) يشبهه، إن لم نقل إنه كان أخطر من سقوط بغداد أمام المغول أو سقوط بغداد أمام المغول الجدد، مرة أخرى! في ذلك العام، استيقظ الحاملون والافتراضيون والشعاريون والمغتربون والمستعربون والسلفيون والحداثيون.. استيقظ الجميع على هزيمة لا تشبه الهزائم، وعلى انكسار لا يشبه الانكسارات.

كانت هزيمة مخجلة بكل المعاني وبكل المقاييس، لأنها لم تكن متوقعة، وانبرى البعض للتجميل وانبرى البعض الآخر للتبرير، ولكن الهزيمة هزيمة.. سوءة قبيحة لا يسترها شيء!!

وفي تلك السنة، أيضاً، عرفت شاعرتنا الكبيرة أن الظلم والطغيان حقيقة واقعة في الكون، حقيقة ممضة وفظة، وهي التي اكتوت به داخل جدران بيتها وداخل جدران وعيها، هذه المرة، كان الطغيان يشمل الكون كله، كان البكاء لا يكفي وكان النواح والندب لا يكفي، أيضاً.

هذا طغيان مختلف، هذا ظلم يطال كل شيء، الفرد والجماعة، الماضي والحاضر والمستقبل. هذا ظلم يصادر كل شيء، ومُيِّت كل شيء، هذا ظلم لا يطاق ولا تمكن الحياة معه أو تحت ظله.

وكعادتها، فقد أحست شاعرتنا بهذا الظلم من زاويتها الخاصة، ومن ذائقها الخاصة أيضاً، ولكنها هذه المرة، تقدمت أكثر، كانت واضحة وصريحة ومباشرة، وربما يمكن القول إنها كانت حادة في

التعبير عن نفسها، ربما لأول مرة يكون ذلك.

الاحتلال اعتدى على حياتها بالكامل، وهدد خصوصيتها وهدوءها ورتابة حياتها وتنقلاتها ورحلاتها وصادقاتها وبريدها وأزهارها.

فغنت للمقاومة وغنت لجبل النار، وغنت لنابلس التي كانت وما تزال تقدم النموذج الساطع في المقاومة والتصدي. غنت للرجال والسواعد والدماء الزكية، غنت للوطن ولأهل الوطن، وأفرغت الشاعرة حبا ووجدها لما يحدث أمامها من أعمال مقاومة مجيدة.

ومرة أخرى، تتربع الشاعرة على قمة السبق والاتقاط والتصوير والمعاشية، لم تكن شاعرة مقاومة، ولكنها غنت للمقاومة، لم تكن شاعرة موقف ولكنها كانت شاعرة الوجدان. كانت بشعرها أشبه بالأم التي تدعو لأولادها أن لا يصابوا وأن يحفظهم الله من كل شر أو سوء.

شعرها، في تلك المرحلة، لم يكن يحمل ذلك الغضب ولم يتميز بتلك المراحل القوية التي تبث القوة في العروق والأوردة، ولكنه كان أشبه بالتميمة التي تُعلّق في العنق.

كان شعراً يصدر عن أم وسع حبا كل شيء حتى عدوها، لولا غباؤه وحقدته وعنصريته، ومن هنا لم يفهم العدو قصائدها بل اتهمها بأنها آكلة أكباد الجنود، وما درى هذا العدو أنه غير بعيد عن حب تلك الشاعرة لولا كراهيته لكل شيء. وفي هذا، تقف الشاعرة موقفاً إنسانياً فريداً من نوعه، ذلك أنها لم تتميز بالتطرف أو التعصب أو الانغلاق، بل تميزت بنظرة إنسانية عميقة وسعت كل الاتجاهات والأعراق والأجناس. ولا نكاد نلمس في شعرها كله أي نوع من أنواع الاتهامات أو التعصب لفكرة أو لشخص أو لعقيدة.

شاعرتنا الكبيرة فدوى طوقان، ظلت طيلة حياتها تمسك العصا من الوسط، قادرة على القول وقادرة على الحذف، قادرة على التلميح دون التصريح، قادرة على الابتسام الجميل رغم اضطرام داخلها بالنيران. هل يمكن القول إنها لم تستنفذ طاقتها كلها بسبب الظرف!! أم إن الإنسان بعامة والمبدع بخاصة يُجهّض حين كان يجب أن ينهض!!

كم منا يحمل في داخله «نابليون» ينتظر اللحظة المناسبة للخروج!!

وكم منا يحمل في وجدانه المتنبئ وينتظر الظرف ليخرج كالعملاق!!

الإنسان الطارئُ أبدأً على الأرض

أسماء الغول

ولدتُ لاجئة، لم أعرف بيتاً أو أرضاً سوى منزل العائلة في مخيم رفح، كان بيتي الأول، ولن يكون الأخير كما كنت دوماً أعتقد، ففي كل أسفاري وتنقلاتي كان ما يهدئ غربتي أن هذا البيت موجود. هذا البيت حيث مشيت أولى خطواتي في «قاع الدار»، فدُور المخيم مفتوحة السطح على السماء، وسقوف غرفه من الاسبست، قبل أن تصبح الآن مجموعة من البنايات المصمتة.

في هذا البيت، سمعت قصص جدتي «غزالة» عن الأرض، أو كما تسميها «البلاد»؛ كانت متزوجة حديثاً وعلى يدها عمي الكبير خليل الذي كان وقتها لا يزال رضيعاً، تقول لي جدتي «كنت اعتقد أنني سأعود لأطعم دجاجاتي وأسقي الوردات».

أنا من هناك، قرية صرفند، لم أزرها يوماً ولا أعتقد أنني سأفعل، فهي لا تزال مع الاحتلال الإسرائيلي، وقد بنى فيها واحداً من أكبر المعتقلات للفلسطينيين.

تركت جدتي الأرض ومشيت مع جدي، حاملة ابنها خليل، يتعثران في الطريق، يملأهما الرعب من ملاحقة المجموعات الصهيونية المسلحة، حتى وصلا إلى جنوب قطاع غزة، لتصبح هذه البقعة من الأرض لهما، وبينني جدي ووالدي وأعمامي الثمانية هذا البيت، الذي لم يتغير به شيء منذ تلك اللحظة حتى قصفه في حرب ٢٠١٤، لحظتها فقدت البيت الوحيد الذي اعرفه والأرض الوحيدة التي كانت لنا.

لا أدرك شعوري نحو صرفند التي عاش بها أجدادي، ولن تكون ردة فعلي حين أعود كما جدتي

إذا ما رأَت ورداتها ودجاجاتها، بيد أن ٦٩ عاماً مرت منذ هجرتها عام ١٩٤٨، فلم يبقَ شيء سوى الحكايات.

وكم أتمنى لو أن في ذاكرتي ما يربطني بتلك الأرض، كما يوجد ما يربطني بأرض اللجوء والبيت الذي أصبح ركاماً في القصف، ولن يعود حتى لو رأيت منزلاً جديداً بعد إعادة الإعمار على الأرض ذاتها.

إن الحرب تغير جغرافيا الأماكن إلى الأبد، كأنك غبت عنها سنين طويلة ثم عدت لتجد أن لا شيء بمكانه، ومدينتي غزة لم تحتفظ منذ زمن بالجغرافيا ذاتها؛ فقد تغيرت الشوارع والأراضي والمنازل، وتلك العلامات التي تحفظ بها المناطق، وكانت ثلاثة حروب كافية لفعل ذلك.

أحلم لو أنني يوماً أمشي مع جدتي في صرفند وتشير لي إلى الأماكن الأولى، والحب الأول، وكيف تعرفت بجدتي، ومكان ورداتها، كم أتمنى لو نجتمع سوياً، نسحب المستقبل إلى الماضي لنصنع حاضراً مليئاً بادراك الأرض الأولى.

يقولون أن «الأرض لله وليست ملكاً لأحد»، وكل البشر يحملون دوماً بامتلاكها؛ كعائلة أو كفرد أو كأمة. لدينا جميعاً ذلك الهوس بامتلاك أرض ما، ولو بضعة أمتار، فنزرعها أو نبني عليها، تكون كإبنة نرعها ونراقب تغيرها بحب.

نريد أن نعتقد أنها تنتمي لنا، إنها أنانيتنا المتتابعة عبر الأجيال لإرضاء غرورنا كبشر اعتقدوا أنهم أعلى من الطبيعة، ما سماها كارل ساجان في كتابه «كوكب الأرض» المركزية العرقية^١.

وتابع «الإنسان إذا ما نظر إلى حياته كحياة وموت النمل الذي يجري داخل الثقوب وخارجها بحثاً عن الطعام وضوء الشمس سيشعر أنه لا توجد أهمية كافية تتلائم وواجبات الحياة البشرية، كما أن الجبرية العميقة واليأس وليس الأمل سيلازمان الجهود البشرية»، ومن هنا احتاج الإنسان أن يشعر أنه مركز الأرض، كما اعتقد أن كوكب الأرض مركز الكون أيضاً.

وفي خضم التسابق والحروب ورسم الحدود ومحاولة امتلاك ما هو مشاعي من أرض الله، نسينا أن الأرض تتحكم بنا، ولسنا نحن من يتحكم بها، فالأراضي النائية تجعلنا سكاناً أصليين، بينما التجمعات البشرية الغريبة والبعيدة عن المكان تلتقي في الخصب.

وانطلاقاً من هذه الفكرة يضرب الفيلسوف جان جاك روسو في كتابه «محاولة في أصل اللغات» مثلاً دولة اليونان التي لطالما كانت جاذبة للغرباء بخصوصيتها، في حين أن الشعب الأتيكي كان فخوراً على الدوام انه أصيل وابن نفسه في أرض أقل ما يقال عنها بأنها قفر^٣.

تحكمت الطبيعة بالبشر، فالكوارث المناخية، وعدم استقرار الأرض في الزمان البعيد دفعت البشر إلى النجاة بالتقارب، وزادت من تجمعاتهم البشرية، وتحكمت في سلوكهم الاجتماعي مع بعضهم البعض، فالدفء يجعلهم يتألفون، في حين أن البرد يفرقهم ويعزلهم.

واليوم في العصر الحديث غدت هذه التجمعات البشرية تقوم مقام كوارث الطبيعة والمناخ، لتحافظ بشكل أو آخر على التوازن، فهي تملك وسائل لوقف زحف المياه، أو الحد من أن تغطينا الأعشاب الضارة والعشوائية^٤، وتبعاً لذلك فهي تفرق الجماعات، وتجمع المتفرقين، بما يسمى هجرة الريف إلى المدن.

إن كل هذا الحراك البشري يجعل الإنسان يعتقد أنه يملك الأرض والطبيعة على الرغم من كونه غرائزياً، يقول روسو «إن العلاقة التي بين حاجات الإنسان وما تنبته الأرض لهي من الوثاقبة بحيث يكفي أن تكون الأرض أهلة حتى يستمر كل شيء»^٥.

ولكن لا يزال تفسير روسو للعلاقة بين البشر والأرض قائماً على كثير من المصالح، وكأننا نسينا أن هذه الأرض والطبيعة منذ البداية كانت قوامه علينا ولم تكن القوامين عليها.

حين درستُ في كوريا الجنوبية بجامعة هانجوج، كنت أمشي بين الناس وأشعر باختلافي كل لحظة بسبب نظرات المحيطين، وهو بالضبط الأمر ذاته لو رأيت كورية في مدينتي، إن هذا العرق الثقيل المرتبط بالأرض، فنصبح شبهها، من الصعب عليه هضم الآخر، كما أن الآخر من الصعب عليه هضم البيئة الجديدة.

لم أفهم على الإطلاق الأمطار المستمرة والرطوبة الشديدة في طقس سيؤول صيفاً، والتي تجعل شعر رأسي يقف، في حين أن شعورهم كقطعة حرير لا تتأثر إطلاقاً بتلك الرطوبة.

وحين جاء الشتاء وانخفضت درجات الحرارة إلى ما بعد التجمد بكثير، لم أتجرأ على الخروج من السكن الجامعي، في حين كانت عيونهم بجفونها المبطنة وأنوفهم الصغيرة ملامهة كي يألفوا هذا البرد

القارص، إذن الإنسان فيزيائياً ونفسياً تماهى مع البيئة بل أصبح أحد عوارضها.

إن كوننا نتبع قاراتنا، لا يعني سوى أننا كنا على الدوام مُلحقين بالأرض، وطارئين عليها، فلم تكن ملكاً لأحد على سطحها، بل نحن ملكاً لها، حتى إن الآلهة في أساطير الحضارات القديمة لم تكن أي منهم قبل الأرض، كما لا توجد آلهة الأرض بل آلهة الخصب في حين أن هناك آلهة السماء، تقول إحدى الأساطير:

بعد أن أبعدت السماء عن الأرض

وفصلت الأرض عن السماء

وتم خلق الإنسان

وأخذ «آن» السماء

وانفرد «انليل» بالأرض

أخذ الإله «كور» الآلهة «ارشيكيجال» غنيمة¹.

لأرضي الأولى أنا الأخرى أساطير وحكايات سمعتها من جدتي غزالة، كانت «تخرفني» عن سبب إطلاق اسم الغول على عائلتنا، فتقول «كان جدي الأول يركب عربة حماره، ذاهباً ليفلح الأرض حين أوقفته امرأة تعب، وطلبت منه أن يوصلها معه، وبالفعل أخذها، لكنه سرعان ما لاحظ أن حركة العربة ثقيلة، وحين نظر إلى الراكبة، وجد أن ساقها تطولان إلى أن أصبحتا تنجران على الأرض، فقد أخذ جدي الغول ليوصله دون أن يعرف، وهكذا سُمينا بالغول».

أما جدتي الأخرى، فكانت تحكي لي حكايات صباها هناك، والتي تنتهي هي الأخرى بالحسرة، فجدتي هذه فقدت الرؤية بإحدى عينيها، وحين سألتها قالت لي «فرع شجرة من أيام البلاد دخل فيها وإحنا بنجري»، مضيئة «مسكوا سلحفاة وركضوا خلفنا في بيارات البلاد، لم نكن نعرف السلاحف، وماتت أختي الصغيرة رعباً».

من هذه الحكايات كونتُ صورة عن أرضي، أرض الأمهات والجندات، لم أشعر يوماً أنها «أرض الآباء»، فنحن نتداول هاتين الكلمتين بشكل روتيني، دون قصد أو ربط حقيقي بوجودنا، على

عكس موروث شعوب الجرمان الذي يفخر بأرض الآباء.

إن الحياة بدأت كأم، كان المكون الرئيسي للكون هو المياه، ففكرة الميلاد المائي تتكرر في الأساطير البابلية، تقول إحداهما «في تلك الأزمان الأولى، لم تكن سوى المياه»، كما نجد في الكتب السماوية الشيء ذاته، فتقول التوراة العبرانية «وكانت الأرض خربة وخالية، وروح الرب ترف فوق وجه الماء».

وهناك الآية القرآنية في خاتمة الوحي «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^٧.

إن بداية الحياة بالميلاد المائي لتشبه الجنين في رحم أمه، ولقد استقر الإنسان مع أمه الأرض حين تطور شكل الكون إلى ما هو عليه الآن.

وتسرد أسطورة عند شعب تاهيتي أن التصاق السماء بالأرض جعلهم ينجبون عددا من الآلهة الصغار الذين عاشوا في ظلمة وضيق لشدة الالتصاق، فقرروا التمرد على الوضع بزعامة الإله «تاني» الذي رفع السماء بقوة ذراعيه حتى استقرت مكانها، ثم قال لتبق السماء بعيدة عنا، أما الأرض، فلتبق قريبة هنا أما رؤوماً.

إن الحضارة الذكرية التي نعيشها اليوم، هي حضارة نزاع دائم مستمر، تشكلت على أنقاض النظام الأمومي الذي أعطى العالم بدايته، لكنه اختلف كلياً الآن كأننا لم نعد نحن.

لقد تباعد البشر، وأصبحوا أصحاب قوميات وأعراف وملامح تنتمي لأسمائهم وأماكنهم، قد يجذبهم الرخاء وتطردهم الحروب، لتتكرر صورة اللاجئ بملايين النسخ والقصص المختلفة، لكننا جميعاً فقدنا نزعنا الأولى نحو التجول، والتوق للبعيد والانتماء إلى كل الأرض، وضافت الأماكن على أجسادنا وأرواحنا، وزاد تنظيرنا للجذور والانتماء الإثني ونسينا أننا طارئ زمني كما غيرنا من الكائنات، وأن الأرض سيدتنا أجمعين.

الهوامش

- ساجان، كارل، ٢٠٠٠، كوكب الأرض «نقطة زرقاء باهتة - رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ٥٥
- ٢ ساجان، المرجع السابق، ص ٥٧
- ٣ روسو، جان جاك، ١٩٨٤، محاولة في أصل اللغات، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، العراق، بغداد، ص ٦١
- ٤ روسو، المرجع السابق، ص ٦٤
- ٥ روسو، المرجع السابق، ص ٦٣
- ٦ السواح، فراس، ١٩٩٦، مغامرة العقل الأولى « دراسة في الأسطورة- سورية وبلاد الرافدين، ط ١١، دار علاء الدين، دمشق، سوريا، ص ٣٤
- ٧ السواح، مرجع سابق، ص ٣٥-٣٦
- ٨ السواح، مرجع سابق، ص ٣٧
- ٩ الأيوبي، يسري، المرأة عبر الزمن، ج ١، ص ١٦، <http://albizri.com/yusra/Women/WOMEN.pdf>

شعر كردي بألحان فلسطينية: من مكان بيكه س الى زمان درويش

شعر: شيركوبيكه س، ترجمة: هيوا محمود عثمان، تقديم: علي عبد الأمير

حين قرأت ترجمة الصحافي والكاتب الكردي، هيوا عثمان، لقصيدة الشاعر الراحل (توفي صريعا بسرطان الرئة في غربته السويدية ٢٠١٣) شيركوبيكه س، عن رفيق فكرته الإنسانية وجوهرها، فكرة الحرية، الشاعر الراحل محمود درويش، غمرني إحساس عميق، أجده مشابها لذلك الذي كان ينتظم فيه شعراء وكتاب أجيال الحرية والرفض في مناطق العالم، وتحديدا في مواجهة أنظمة القمع والطغيان والحروب، وكيف تغدوقصائدهم ومقالاتهم شفرات سريعة التأثير وعميقة الحضور في أشكال الإحتجاج على الظلم وقيمه وانظمته.

في النص الذي حرص الاستاذ هيوا عثمان على وضع عنوان تأويلي له «رسالة من المكان الكردي إلى الزمان الفلسطيني»، يستعيد الشاعر بيكه س، سيرة صاحب «كزهر اللوز أوأبعد»، بوصفها محطات فكرية وانشغالات جوهرية بقضية الحرية التي تبدأ من بلاد الزيتون والزعر ولا تنتهي بوطن بابلونيرودا، مرورا بكردستان وفكرتها التي خبرها درويش عن قرب عبر رفقته الطويلة مع الشاعر- الروائي سليم بركات، وعلى مدى جهد ثقافي رائد اسمه «الكرمل».

وإذا كان بيكه س قد برع في تضمين قصيدته بمراحل ميزت تجربة صاحب «أحد عشر كوكبا»، فضلا عن ملاحقة عناصر التجربة الإنسانية والفكرية للشاعر الفلسطيني ورفاق الكلمة والنغم والمعنى، فإن لهيوا عثمان فضله اللافت في ملاحقة ذلك الدفع بلغة أنيقة، بدت حانية على «كردية» النص،

مثلما جعلته نابضا بشعرية لافتة في النسخة العربية.

وبكلمته الموحزة، يقول عثمان «عندما غيَّب الموت الشاعر الكبير محمود درويش يوم السبت ٩ آب ٢٠٠٨، كتب الشاعر الكردي الكبير شيركوبيكه س هذه القصيدة له. وكقارئ متابع للشاعرين الكبيرين، قررتُ أن أترجم القصيدة للغة العربية وكانت هذه النتيجة»، وهي حقا نتيجة هامة باذخة الجمال، فيها تلتقي أناشيد الحرية وآمال الغد، مثلت جهدا كريما لصحافي وكاتب انتظم لعقود بين لندن وأربيل وبغداد في ورشة الأمل دائما، فكان هيويا عثمان في بؤرة المعنى المشترك الذي يعنيه لقاء قامتين كبيرتين في الشعر المعاصر: درويش وبيكه س، وما يمثله ذلك اللقاء من ثناء فذ للحرية وأناشيدها.

مات قمر وندبته جميع أشعار الدنيا

إلى محمود درويش

شيركوبيكه س

استعار أيلول

أنفاس أيامه القصيرة

من عالم الفراشات

وآلام ليلاليه الطويلة من الكورد.

أنا الليلة، بواب حجر عدميتي الأسود

أنتظر قدوم قصيدة

متشحة بالسواد.

قد تأتي القصيدة على

شكل غراب

أجش الصوت عريض الجناح،

أوقد تشبه هدوء عجوز أحذب.

قد تصلني

على شكل طفلٍ

مشرّدٍ مبتسم زنجي

من جنوب أفريقيا!

من هنا

وعلى هذه الأرض المنكوبة لكوردستان

من هنا

ومع تبرعم وتساقط أوراق شعرنا

من هنا

وفي هذه الأمسية من شهر أيلول

تذكرتُ محمود درويش.

ترى!

لماذا مات هذا النهر فجأة؟

لماذا أسودّ تل الزعتر هذا في طرفة عين؟

لماذا سقطت قصيدة البدر المتلألئ

من سماء حيفا وغرقت في البحر وتلاشت؟

ترى!

لماذا ذهب من هنا كالورود وبراعم الربيع

وعاد من هناك كسنابل قمح صفراء؟

ذهب من هنا ماءً صافياً عذباً،

وعاد من هناك ماءً عكرا؟
ذهب من هنا عموديا كالمطر،
وعاد من هناك أفقيا كشجرة نائمة؟
أغنية حزينة زرقاء
تبحث عن الشعراء
تقطر منها الغربة والمساء
يمر من فوقها «أحد عشر كوكبا»
تتحول إلى حلم إحدى عشرة مرة
إلى غيمة إحدى عشرة مرة
إلى سؤالٍ إحدى عشرة مرة
وتحنني
وتحمل سلة ورود الدمع
ومزهريّة الشمس المهشمة؟
إحدى عشرة مرة

أخي!
كيف حالك؟
أنا «سرحان»
ألا تشرب معي قهوة
في منتصف هذه الليلة
وفي كافيتيريا الغربة هذه؟

حمامة بيضاء منهكة كقلبه،
تحمل في منقارها عود شعير أخضر،
أنت محلقة من "مروج بني عامر"
وتريد أن تحط على تابوت في «رام الله»
هذه هي المرة الأولى التي لا ينهض فيها من أجل حب الحمام
إنها المرة الأولى التي لا تستطيع ابتسامتها الشعر أن تحول وجهه إلى بحيرة المساء
إنها المرة الأولى التي يستلقي فيها بلا مبالاة
ولا ينهض فيها بطول قامته من أجل العشق المجنون للوطن
إنها المرة الأولى التي لا يتحدث فيها عندما تتكلم الحرية
إنها المرة الأولى التي لا يمد فيها يده إلى نظارته
والمرة الأولى التي لا يمسك فيها القلم!

كانت سبع سنوات عندما انهار الوطن عليه
وأمسى تحت ركام تاريخ حزين
كانت سبع سنوات عندما أصبح الرحيل رفيق دربه
بعد عدة أيام من ولادته
نبتت له أجنحة نسرٍ هرم
كانت سبع سنوات، ودّع فيها الطمأنينة،
ودّع البيت واستقر في التشرذم!
طفولة من كرة ممزقة
طفولة من حلم مبتور

طفولة من دموع خشنة

طفولة من شجرة ليمون وحيدة

طفولة من قمر مسروق!

يا بني!

أنا أمك

لم لا تنهض وتأخذ مني هذا الخبز الحار؟!

كان الوطن امرأة منكوبة مضطربة

ذات شعرٍ ترابي

تنتظر جالسة أمام خيمة.

كانت دائماً تنتظر مجيء شيء

لا تعلم ما هو؟

في كل يوم كانت تأكل الخبز والحزن ثلاث مرات

وفي كل ليلة كانوا يُضرجون حلما فتيا لها بالدم

ويجعلون شجرة زيتونٍ تابوتا له.

محمود أتى من هنا.

أخرج رأسه من بين هذا الدخان.

في هذا الخريف تبرعم شعره.

وجد هوية لونه في ألوان أوراق الأشجار المجتثة.

كان في كل يوم يموت ولا يموت!

يا بني!

أنا أبوك!

لم لا تستيقظ؟

قصيدتان شابتان

جاءتا من يافا

تريدان أن تعرفا

هل أصبحتا مطراً أم لا؟!

عندما كبرت الهموم، أصبحت لبلاباً

والبلاب تسلق على نوافذ «عاشق من فلسطين».

الغيوم إمتزجت

وقرون الأيائل إختلطت

والجراح تداخلت

والشعر أصبح عصابة رأس النساء

أصبح خبزاً

أصبح كرسيّ الغرف.

لم يكن هناك أي مفر

كان على الكلمة أن تصبح رصاصة

كان على الجملة أن تصبح خندقاً

كان على النص أن يصبح درعاً.

لم يكن هناك أي مفر

كان على الشعر أن يعطي

نصف جماله

نصف صوته
نصف لونه
نصف بريقه
الى المحاربين.
لم يكن هناك أي مفر،
عندما كان يداهمك الموت
كان الموت يصبح عسكرياً
كان الموت يصبح حديداً
وكان عليك ان تصبح إعصاراً.
كان عليك ان تصبح تلك اللغة المباشرة
التي لا تضع أي قفل على اللسان.
في تلك اللحظات،
الشعر لم يكن أقدس من عيون الأطفال
لم يكن أكبر من صراخ الأمهات
ولم يكن أعظم من جسد الشهيد.
يا أخي!
أنا رفيقك «سميح»
ماذا دهاك؟
لم لا تنهض؟
كي نعود سوياً الى غزة

وكي نملأ الميكروفون بغزارة الشعر
ونحوه الى خبز الصباح الحزين
والي مزهرية
والي سحر الغروب الأصفر
لم لا تنهض؟

يا درويش الشعر الجميل!
كلما تدفق شعرك،
تسلق على قامة الجمال.
وفي كل مرة،
ومع كل ديوان جديد
من علياء وحدتك ووحدة وطنك،
كنت تصبح نور شمسٍ أمام الله
كنت تصبح لغة الماء الصافية
لغة الأعشاب الخضراء
لغة الحجر
لغة السهول والجبال.
عندما ذهبت إلى بيروت
الأمواج أتت لاستقبالك
البحر أصبح دفترك
والأرز أصبح قلمك

وصوت فيروز أنيسك

وفي الليالي الظلماء

كان شعرك يصبح قنديلاً

ويضيء المكان

أخي!

أنا رفيقك «مارسيل خليفة»

أتيتك بعودي

لم لا تنهض؟

وتعطيني واحة من الشعر

فتية فتية

كي أحوّلها إلى هدير

وإلى شلال حديث

للصوت والموسيقى

كيف لا تنهض وتقبل عودي؟

في «الكرمل»

كنت رجباً

كالمحيط وكالسماء

في الأعالي

كنت ليلة الصيف القمراء المليئة بالخيال

وكنت مدى لون القصيدة الفضي الجميل.

وفي الأسفل

أصبحت بستان شجر الزيتون،

كنت تطعمُ الأشجار بشعرك

وعندما تثمر الأشجار،

لم تثمر الزيتون فقط،

كانت تثمر شعراً وزيتونا،

زيتوناً وأعين أطفال

قصائد وأوشام خدود النساء الواقفات أمام المخيم

أسوداً وبيض

حلوً ومر

في «الكرمل»

حولتم انت وبركات

المجلة الى بحيرة

حولتم الشعر الى سفينة

والنثر ظل الساحل

تلك الأيام

تركت شعر القنبلة

تركت الصيحة الدموية للكلمة

عدت الى نفسك

عدت الى البيوت السرية للقصيدة

أخي!

لمّ لا تنهض

أنا رفيقك «سليم»

أنا الكردي الذي ليس له إلا الريح

لقد أمتطيتها كي أصل إليك

أتيتك كي نزور معاً «لوركا»

ونسلم على «ريتسوس»

كلاهما ينتظرانك.

عجباً لا ترد علي!

ما هذا النوم العميق؟

متى كنت كذلك؟

في صباح «أرغوني»

وكان ورود الرمان هطلت على باريس،

وصلت وحقبيتك اليها

حقبيتك كانت ملاًى

بفتافيت همومك وهموم وطنك.

وضعت رحالك

في مدينة «بودلير» وزمهير «السين».

في المساء،

اتت الأشجار اللاجئة اليك،

غطوا بيتك بأوراق الخريف.

أتت الفراشات وطافت حول قصائدك.

باريس كانت دائماً أم الشعر

باريس كانت امرأة تثمر نجوم الكلمة من

شعرها حتى أصعب قدميها

أيتها القصيدة الجميلة

لمَ لا تنهضين؟

أنا أخوك «أدونيس»

أخوك في الشعر

ولكن بروحين مختلفتين

بلون عينيّن مختلفتين

لم أرَ في حياتي شعرك مستلقياً

لم أرَ في حياتي أغنية لك أغمضت عينها

أعذرني

أريد الآن

أن أبكي قليلاً

في عمّان،

وعندما كنت تدخل خلوة شعرك السحرية
وتعلق نفسك بخيوط الكلمات ولآلئ الخيال الفضية
كنت تنسى الخبز والماء
مراتٍ
كان الشارع لا يرى قدميك
الهواء واللون والشمس والمطر
لم يكونوا يرونك
الوحيدة التي كانت تراك
هي أعين الشعر.

في «حالة حصار»
كان زادك
هو الكلمة.
كنت طائر الشمس المحلق ما بعد الحصار.

في «لماذا تركت الحصان وحيداً»
كنت كاميرا عين القدس
كنت رائحة التبغ في جلاب جديك
كنت خبز أمك الحار
كنت أوراق التاريخ المتساقطة.

في «جدارية» كلماتك

كنت النجوم المحفورة في السماء

كنت لغة جديدةً لله

وفي «سرير الغريبة»

كنت حلمًا مطاردًا

كنت سرير الوحدة

كنت وطنًا بلا مكان

كنت زمانا بلا زمان

كنت ألمًا لجرح قديم جديد في جسدك

أخي!

لم لا تنهض؟!

أنا ضيفك

أنا أسمي «شيركوييكة س»

كردي لا املك إلا الريح

وحفنة من الشعر

بالرغم من اننا لم نلتق

ولكن الشعر كان قمرنا

لذا أتيت

أخي!

كيف لا تنهض للضيف؟

أيتك من «هلكورد»*

وجلبت معي بدر هذه الجبال

وراونها**

وكلمات اللوز من شعري

لم لا تنهض؟!

ولكن أنت «لماذا تركت الحصان وحيداً»؟

لماذا سلمتنا ليد القدر؟

لماذا رميتنا في ورد البكاء

والمأتم المبكر

ورحلت وحيداً؟

وسلمت أشعارنا

الى ليالي الالاجدوى والى الضباب؟

في تلك الليلة المشؤومة

ليس نحن فقط،

الكل تذكر محمود درويش.

الأحصنة روت حكايته للمُهر،

الطيور للأشجار،

والأشجار للسهول،

والسهول للجبال.

في فلسطين،

كل الألوان بكت على أكتاف بعضها

ومن البكاء خلق لون جديد

أسموه اللون الدرويشي.

في الضفة الأخرى من محيط مجنون،

في مدينة لا قلب لها،

توقف قلب قمر عن الخفقان.

في مدينة لا دموع لها،

لم تكن هناك أي عين تذرِف الدمع،

سوى عدة عيون.

لم يعرف أحد في هذه المدينة

الى أين يرحل هذا القمر الغريب.

في غابة كونكريت،

أمام نافذة في الطابق الثالث،

فتاة فلسطينية لاجئة،

ذات عشرة أعوام.

كانت تنظر الى مشهد حزين في الأسفل،

وكأنها تحلم

إرتعش قلبها،
وكأنها تحلم
وكأن قلبها أخبرها،
بقت قطرتا دمع عصيتين في غمد عينيها.
في الضفة الأخرى من محيط لا رحمة له،
وطن في شكل شاعر،
كان يحتضر.
وطن في شكل قصيدة،
تهاوى.
انقطعت أنفاس نسمة.
أي عيني!
أنتِ لا تنهضين لأحد،
ولكن يجب أن تنهضي لأجلي.
أنا الشعر، أنا الشعر.
أتيت أمنحك هذه الروح،
لم لا تنهضين وتأخذيه مني؟!
أنا الشعر، أنا الشعر.
من بقي معك كما بقيت؟
من أحبك بالقدر الذي أحبتك؟
في رواق أبيض طويل،
ممرضة بيضاء،

تدفع ببطءٍ عربية بيضاء،
قمر أبيضٍ مستلقٍ على ظهره،
عيناه مغمضتان،
وردتا يديه على صدره.
في الضفة الأخرى من محيط لامبالٍ،
في بلدٍ باردٍ الدم،
في زمنٍ باردٍ الدم،
في مشفى ذي أعين واسعة ولا دموع له.
مات قمر
وسقط في العدم
انطفئ الخيال
وكل أشعار الدنيا بكت عليه.

* هلكورد: جبل مشهور في كردستان العراق

** الراوند: عشبة ربيعية تشتهر بها الجبال الكردية

أوراق الذاكرة

ليس ضربا من الحنين إنه «ضد النسيان»

أحمد يعقوب

«ضد النسيان»، كتاب في غاية الأهمية الفنية والتاريخية... «ضد النسيان» تاريخ بلد بين ضفتي كتاب..يعتمد التوثيق البصري للحياة في فلسطين من ١٨٨٩ وحتى ١٩٤٨ عام النكبة..فالصورة هي الوسيلة الوحيدة التي توقف الزمان رغم حركة التاريخ والحياة.

المصورة والصحافية «ساندرا بارريلارو» إحدى الصديقات المخلصات لفلسطين..وكذلك الصحافية تيريسا أرنگورين، تحملتا أتعابا جمة على طريق إنجاز الكتاب.. من مدريد الى القدس، الى فندق الأميركان كولوني حيث يوجد أرشيف صوري لفلسطين...ثم بحثتا في الأرشيف البريطاني عن حقائق مصورة في فترة الإنتداب..وأخيرا ذهبتا الى حيفا للقاء المؤرخ والأديب جوني منصور ابن حيفا الذي يمتلك مكتبة ضخمة من الصور، ليست فقط صورا جمعها بنفسه، إنما صور تبرعت بها عائلات فلسطينية من جميع أنحاء البلاد، كانت توثق حياتهم بأدق تفاصيلها...

وعن الفكرة الأساسية لـ«ضد النسيان» تقول تيريزا أرنگورين: «إنكار وجود الشعب الفلسطيني هو المنطلق الأساس للحركة الصهيونية، التي تعمدت إخفاء، ليس الوجود فقط، إنما الذاكرة الفلسطينية.

ولكن ما كان موجودا يترك أثراً، مهما حاولوا محوه. فأثار فلسطين، التي كانت، وأثار أولئك الناس، الذين سيتم طردهم من أرضهم، ومن حياتهم في عام ١٩٤٨، تلك الآثار بقيت في الحفرة التي

أحدثها التغييب . وتطل على أنقاض قرية لم يعد اسمها موجوداً على الخرائط، وتطل من رسم مشهدٍ لطفولةٍ ضائعة... أو من كلمات أغنية... أو من صورٍ في ألبوم عائلة.

هذا الكتاب يظهر صوراً، هي آثار ذلك الوجود، الذي أرادوا أن يحوه . هذه الصور ليست ضرباً من الحنين إلى الماضي، ولكنها تأكيدية، لأنها صور ضد النسيان..».

فالدعاية القائلة « إن فلسطين بلاد بلا شعب لشعب بلا بلاد».. تلك الفكرة التي أطلقها مؤسسو الحركة الصهيونية أدت الى صدور وعد بلفور.. وإلى تشريد الشعب الفلسطيني عن أرضه وبناءه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ورغم ذلك فالكتاب يقدم صوراً توثيقية لجميع طبقات وشرائح وفئات المجتمع الفلسطيني.. وكذلك يقدم صوراً لعجلة الحياة في جميع مجالاتها، في المدن والأرياف والصحراء والبحر.. كما يظهر العلاقات الحضارية بخصوص الأديان الثلاث.. حيث تم اختيار صورة غلاف ضد النسيان.. لمجموعة من النساء متنوعات الديانة يطالبن بدولة علمانية.. كما نرى صوراً كثيرة تظهر مكانة المرأة الفلسطينية في مجتمعا.. ومدى اهتمامها بحضورها الشخصي والاجتماعي.. وثمة صور عن الحركة الصناعية والزراعية والثقافية وصناعة الصيد وعن الموانئ والمطارات حيث شركة الطيران الفلسطينية وشركة النقل البحري وكذلك النقل البري..

ومما يلفت الانتباه الى وجود سينما في مدينة حلحول قبل النكبة.. حيث يتم عرض الفيلم على حائط المسجد وحيث الحضور مشترك ومتنوع بين النساء والرجال والأطفال.

صدر الكتاب باللغتين الاسبانية والعربية.. وتتم ترجمته الى الانكليزية والسويدية.. كما يتم تحضير نسخة ثانية مدققة ومنقحة لتلافي بعض الأخطاء الطباعية التي وردت في الكتاب..

من المهم الاشارة الى أن الرئيس محمود عباس كان قد استقبل المؤلفتين في آب ٢٠١٦، وعبر عن اعجابه بالكتاب وتم تكريمهما.. كما احتفت مؤسسة ياسر عرفات بالكتاب وبالمؤلفتين حيث أقيم احتفال خاص في مقر المؤسسة ترأسه الدكتور أحمد صبح حيث جرى تكريم تيريزا وساندرنا.

ضد النسيان

بِدرِو مارتينث مونتابث* *

تاريخ المسألة الفلسطينية موبوء بالنسيان، بالخداع والتزييف، و بالنفاق والتحريف . مليء بالخوف والتباينات والتناقضات والمفاجآت، عدا عن المآسي والفجائع المستمرة التي تهزّها.

ساهم هذا لزمَنٍ طويل. في جوانبٍ وأبعاد كثيرة جدًّا ، حيث جعل الأمر أقرب إلى «معادة التاريخ». كحكايةٍ ساخرة له. تاريخٍ مزوّر لا يكاد يُشبهه في شيء ما يحدث في الواقع. تاريخٍ شبه احتياليّ. هذه الحالة ، امتدّت عقوداً ، وكلف البدء للخروج منها جهوداً هائلة.

هكذا بدأ الحدث منذ أكثر من نصف قرنٍ بقليل. وقبل أن نتابع، سأسمح لنفسي بتوضيحٍ ومعتزّة: فلقد استخدمتُ في بداية هذا النص كلمة «موبوء» بكلّ قصدية وبمعناها الأول والخاص، لأنّ ما كان يحدث عند كتابة تاريخ المسألة الفلسطينية كان - وشكّل هذا - بالضبط: وباءاً حقيقياً ، بل فاجعة عامّة، و مصيبة، مع أنه حافظ بذلك ، وبأعلى درجة ، على المفهوم التاريخي الأصيل لـ «القرحة»¹.

ربّما كان يتعدّر تفسير هذا العمل في إسبانيا أكثر منه في بلدان أخرى، ولكي نعطي مثلاً، سوف ألجأ إلى الأقرب لي ولمعرفتي الأكثر مباشرة ، إلى تجربتي الشخصية ذاتها. حيث في كليّة الفلسفة والآداب في مدريد، خلال النصف الأوّل من العقد الخامس من القرن الماضي، كنت قد درستُ - اختصاصيّ، و حصلتُ على إجازة من قسم التاريخ (١٩٥٥) ، وعلى أخرى من قسم فقه اللغات السامية (١٩٥٦).

وخلال دراستي ، لم يقيم أحد - بحسب ما أذكر- بأدنى إشارة إلى القضية الفلسطينية، وهنا أشير بالتحديد إلى هيئة المدرسين الأكفاء. مع أنه ، في مساقات دروس التاريخ، كانت هناك مواد تهتمّ

* أستاذ فخري، جامعة أوتونوما، مدريد.

بالمرحلة المعاصرة ، وكذلك في قسم الدراسات السامية ، كانت هناك مادة تحمل بالضبط عنواناً هو : تاريخ الإسلام المعاصر .

حسناً، لم يكن هناك أي ذكر للموضوع الفلسطيني. علماً أن برنامج دراسات ذلك القسم يضم مادة أخرى، ذات مضمون عام، اسمها تاريخ شعب إسرائيل. لا أذكر أن أحداً قام بأية إشارة إلى الحدث الفريد الذي وقع في عام ١٩٤٨: وهو تأسيس دولة بالأسم ذاته؛ على أرض فلسطين، كما هو معروف.

كلّ هذا حدث في أولى وأهمّ الجامعات الإسبانية، في بلدٍ كان يردّد فيه الخطاب الممجوج عن « العلاقات الإسبانية العربية الأخوية». وكان نظامه يتباهى «بسياساتٍ -عملية- مناصرة للعرب»، وحكومته تأخرت لسنوات كثيرة في إقامة علاقاتٍ دبلوماسية مع تلك الدولة بطابعها الجديد، والمؤسّسة في ١٩٤٨. ومع ذلك فكّل ما أحكيه لا يكشف عن جديد، بل هو بالنتيجة واحدة من المعلومات الكثيرة التي تبرهن على شيء نعرفه جيّداً، ونعاني من نتائجه وتأثيراته الخطيرة منذ القدم. في هذا البلد، الخاص جداً. فمن العادة في إسبانيا أن لا تتبع السياسة والمجتمع والثقافة مساراتٍ مُتقاربة. ولكن ، كم تعرض ذلك إلى الملاحظة والانتقاد !

بدأت أسمع الحديث عن فلسطين والفلسطينيين خلال وجودي في مصر بين بداية ١٩٥٧ وأواسط ١٩٦٢ على امتداد وكثافة تجربتي القاهرية. وكان أيضاً أن سافرنا أنا وزوجتي «مرسيدس» إلى الأراضي الفلسطينية، التي كانت تُشكّل وقتذاك جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية. وكان الحدث الفلسطيني واحداً من المستجدات الكثيرة الكاشفة ، التي راحت تفتّح أمامي ، وساهمت بشكل حاسم في توجيه حياتي ذاتها، وليس فقط نشاطي المهني كمستشرق ، نحو أبعادٍ كانت حتى ذلك الوقت مجهولة تماماً بالنسبة لي، وتسلك طرقاتاً كانت حتى هذه اللحظة مستغلقة..

الآن وبعد سنوات كثيرة أستطيع، وعلي أن أعترف – بصفاٍ مطلق وبموضوعيةٍ واعتزاز – أن ذلك استحقّ المُعانة. وهكذا فإنّ ارتباطي بالقضية الفلسطينية بالتالي قد بدأ آنذاك ولم يفعل شيئاً آخر سوى أنه راح ينمو ويتطوّر ويتنوّع حتى الساعة، محافظاً دائماً ومؤكداً على التزامي الفكري والإنساني بهذا الشعب ، وبال دفاع عن حقوقه وتطلعاته المشروعة.

لا أريد أن أستمرّ في طريق الاستذكار الشخصي، لكنني أيضاً لا أتصلّ من تقديم معلوماتٍ توثيقية

ذات صلة، لما فيها من دلالة عظيمة على علاقة بكل ما أثرته حتى هذه الساعة. ففي عام ١٩٦٧ بدأت التعاون الرائع مع صديقي الطيب الشاعر الفلسطيني محمود صبح، الذي وصل إلى مدريد من دمشق كي يتوسّع في دراساته ويحصل على الدكتوراة، عن مختاراتٍ مستفيضة من الشعر الفلسطيني الحديث جداً والمسمى بشعر «المقاومة». والذي كان قد ظهر آنذاك في كتاب لغسان كنفاني باللغة العربية حول الموضوع. وما إن انتهينا من عملنا الجديد حتى شرعنا بمهمة البحث عمّن ينشره. وكان الموضوع، كما أقول، قد شكّل تحدياً مطلقاً للمشهد الأدبي الغربي وليس الإسباني فقط. إذ شكلت مختاراتنا أوّل كتابٍ بلغة أوروبية حول الموضوع. وهنا أريدُ أن أضيف معلومة واحدة فقط: «لقد أضعوا» لنا في عددٍ من دور النشر - بعضها معروف بنزعتة وتوجّهه «التقدميتين»- أضعوا النسخة التي تركناها لهم. وفي النتيجة: استطعنا نشر الكتاب في عام ١٩٦٩، وذلك بفضل المساعدة التي قدّمها لنا معهدٌ أنشئ في ذلك الوقت، واستمرّ بفضل راعي آدابٍ من أصل تونسيّ، كان يُسمى « البيت الإسباني-العربي ». وهكذا بقيت هذه الأشياء تحدث في هذا البلد «المحبّ جداً للعرب».

إن كنتُ قد بدأتُ كما فعلت، فهذا لم يكن فقط لأنّ الأمور التي عرضتها تمثل تماماً الظاهرة التي كنتُ أُنّددُ بها وهي: قطع الرأس المُتعمّد-«فصد الرأس»- والاجتثاث-الاقتراع من الجذر- وذلك ما عانت منه القضية الفلسطينية بالتحديد، وكل ما له علاقة بفلسطين بشكل عام، ولزمن طويل، طويل جداً. فلقد قصدوا وعمدوا أن تكون القضية الفلسطينية بلا أصل، بلا سوابق، بلا بدايات، أو أنّ يُعتبروا زائدين عن الوجود وتافهين يمكن الاستغناء عنهم، لأنّهم كانوا يريدون سطحيين، لا يوضّحون ولا يساهمون في توضيح ما حدث بعد ذلك. وهكذا فإن تاريخ القضية الفلسطينية مليء بإهانات الحقيقة، وبالجرائم ضدّ الذاكرة. أي أنّه مليء -موبوء- بالجرائم ضدّ الإنسانية.

بدأتُ كما فعلتُ، لأنّ ذلك يسمح لي بتأكيد وإبراز إحدى القيم الأساسية للكتاب الذي أقدم له، الإبراز وفق ما تستحقه حقيقة إحدى أهم خصائصه. بهذا المعنى، يواجه هذا الكتاب بشكل جذري وبجسارة واقتدار وصلابة و اعتدال كلّ تلك الكتابات التاريخية المشوّهة عن عمدٍ، والمضلّلة أو، ببساطة، الجاهلة في جزء كبير منها، والتي راحت تتراكم حول الموضوع. فهذا الكتاب يُركّز بالضبط على إنقاذ، وإبراز الكثير من بدايات وأصول، وسوابق المسألة الفلسطينية. إذ يعود

مضمونه إلى «الزمن السابق» الطويل، إلى الزمن الحاسم، الذي عادة ما يُبقى عليه مخفياً ومجهولاً، كمُبعدٍ ومُقتلَعٍ من أرضه .

بلى، هكذا هو مقصى عن أرضه، لأنهم انتزعوها منه على امتداد المرحلة المنقضية من العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين. تُشكّل التناقض القاسي وغير المعهود للزمن الذي لم يمرّ، بالمحصلة «اللازمن». هل هناك ما هو أقسى وغير إنساني من إنكار الزمن؟.

أسمح لنفسي أن أنصح كلّ شخص بقراءة هذا الكتاب وأتمنى عليه - أن يتأمل محتواه، لأنها كتابة «تدخل أيضاً عبر العيون»، وأن يرافق القراءة، أو التأمل بهذه الفكرة الكامنة والأساسية: «إنه يستعيد زمناً، ماضياً أريد له ألا يكون قد مرّ، ألا يكون قد وُجِد...».. هكذا سيُقدم له التوضيح الرئيسي، الذي بقي مخفياً لزمّنٍ طويلٍ، عن القضية الفلسطينية المأساوية، وعن تاريخ هذا الشعب المعاصر، المأساويّ، الذي لم يعتق بعد.

هذا الكتاب واسع في جوهره، ويضم كمية كبيرة من الصور، ألّبوم صورٍ استثنائيّ، محمّلٍ بمعنى عميق جدّاً وأصيل (من أصل). ونظراً لكونه مجموعة من الصور فهو أيضاً شهادة صامتة بقدر ما هي توضيحية لشيءٍ متخيّل. بحيث يستطيع القارئ أن يتصوّر، كالمشاهد لفيلمٍ سينمائيّ وثائقيّ، تتالي الصور والأطر ولحظاتٍ وحالاتٍ، هي بالنسبة إليه جُذابة بقدر ما هي مجهولة، وجديدة بقدر ما هي غير متوقّعة. لهذا بالضبط هي مُظهِرة قبل كلّ شيء، أي أنها تكشف له شيئاً كان يجهره جهلاً شبه تامّ، «تُظهره».

يُقال عادة إنّ الصورة تساوي أكثر من ألف كلمة، وهذه واحدة من جمل كثيرة سعيدة، تُوضح الكثير وتُقدم طرقاً للمعرفة، لكنّها أيضاً حين تُفهم ويُتمادى في تطبيقها فإنّها تنتقص جزئياً من قيمة الأحداث، إنّها صائبة، بلى، لكن أيضاً يمكن أن تتم المبالغة والتغطية. فللصور وللکلمات قيمتها في ذاتها، وليس عليها أن تتبادل التناوب. وبالتالي إذا جاءتا معاً ومجمّعة فهذا أفضل.

الصورة هي دائماً بحدّ ذاتها شيء ذو قيمة، لكنّ قيمتها تزداد عندما يُرافقُ نشاطَ المشاهدة المادّية شيئان آخران: «الرؤية» العقلية والرؤية «الحسّية». بهذه النظرة الثلاثية، بهذا السبيل الثلاثي للنفوذ، يحقّق الشيء المتأمل مداه كاملاً، قيمته العليا ومعناه الكامل. أسمح لنفسي أن أرجو

عبرَ هذه السطور أن نُخصَّ هذه المجموعة من الصور الرائعة بهذه الطريقة من الرؤية الثلاثية والواحدة في آن معاً: أن تُرَكِّزَ العينُ والعقلُ والشعورُ وتتوحَّدَ في النظرة، أن تكون النظرة متكاملة. هذا التمرين على النفوذ الثلاثي والمجدول يقودنا لأن نستحضر مثلاً، بين أشياء كثيرة أخرى، أن هؤلاء الكائنات البشرية التي تتأملنا بثبات -تأملنا بثبات أكبر حتى من ثباتنا في تأملهم- كانت تقطنُ بلدًا ليس واسعاً -أكثر من ٢٠٠٠٠ كم٢ بقليل- حيث كان يعيش-بلى «يعيش» بكل ما في الكلمة من معنى- قرابة المليون نسمة. لا أذكر هذه الأرقام التقريبية بهدف الكَمِّ والمقارنة، بل بالضبط بهدف معاكس: نوعيٍّ وأساسيٍّ. ونتساءل: كيف كان أن هؤلاء السكان، المحدودين عدداً ومكاناً، كانوا متنوعين ومختلفين وأغنياء ومتعددين في مظاهرهم وسلوكهم وعاداتهم وحياتهم ولباسهم، في عاداتهم، في طرقهم المتعددة في الحياة والمعاناة والاستمتاع؟ كيف يمكن لفلسطين أن تكون في الوقت ذاته فريدة ومتعددة، وخاصةً ومتنوعة وبسيطة، بساطات كثيرة مختلفة؟ هل كان ضرورياً كسر كل هذا، تبديله، تدميره كي يُعاد لاحقاً بناؤه بعد أن شوّه، حوّل، طردا واستبدل؟ ألم يكن هؤلاء الناس يستحقون أن يستمرّوا بالعيش -نعم، هذا هو «بالعيش» كما تبين هذه الصور أنهم كانوا يعيشون؟. ربّما كان هذا هو السؤال الرئيس، الأقسى والأعمق الذي تسألنا إياه تلك العيون التي تنظر إلينا بثبات، ولا تتوقّف عن النظر إلينا وستبقى تنظر إلينا حتى نكون قد مررنا على كلّ صفحات هذا الكتاب.

تنهض هذه المجموعة العظيمة من الصور، المجموعة هنا ضامة نصوصاً كتبها ثلاثة عارفون رائعون بالقضية الفلسطينية، ويتميزون إضافة إلى ذلك بصرامتهم الفكرية وبوجدانهم الأخلاقي العالي. هي بالنتيجة نصوص متكاملة فيما بينها فكل واحد من مؤلفيها يطرح ويحلّل الموضوعَ انطلاقاً من تجربته الشخصية الخاصة وقدرته المهنية. كذلك تمثل ثلاث طرق لعيش الحالة الفلسطينية والإحساس بها متميزة خارجياً -لكنها متلاحمة ومتراپطة بشكل حميم أيضاً- وبشارة خضر، فلسطيني «من الخارج»، من المنفى، جوني منصور، فلسطيني «من الداخل» ولذلك هو من منفيي الداخل وترسا أرنغورن، إسبانية صارت فلسطينية بعمق في حياتها وعملها. حافظتُ معها ومع بشارة منذ سنوات كثيرة ليس على صداقة راسخة وحسب، بل وعلى ارتباط طويل وأيضاً راسخ بالقضية الفلسطينية وأهلها. بالنسبة لي كتابة هذه الصفحات تمنحني فرصة جديدة لأؤكد لهما صداقتي وإعجابي. أيضاً تسمح لي بأن أكتشف حساسية وتجربة ساندرنا بازِيلارو المهنية اللتين كانتا أساسيتين في اختيار المادّة التصويرية.

كثيراً ما أذكر حين أكتبُ أو أتحدّثُ عن فلسطين ما أكّده منذ سنواتٍ أحدُ أكثرِ الكتابِ الفلسطينيين المعاصرين تمثيلاً للقضية : «القضية الفلسطينية أكثر من مسألة حدود، إنها مسألة وجود» هنا المفتاح: المسألة لا تتعلّق بشعبٍ فلسطيني موجود، بل وُجِدَ، وسيبقى موجوداً. وهذا الوجود لا يتطلّب مسكناً، بلداً فقط، بل يتطلّب وطناً، دولة اسمها هكذا: فلسطين.

إنّ اللعب السياسي القذر لا يستطيع أن يهزم الواقع النظيف للوجود، كما لا يمكنه الاستمرار بنسيانه، وبتهميشه، وإخفائه. الوجودُ ليس قناعاً ولا يمكن أن يُقنّع. إنكارُ الوجود إنكارٌ للحياة: أي أنه نوع من الجريمة. جريمة بُدئ باقترافها منذ أكثر من قرن وما زالت تُقترف حتى الآن- بطرق أخرى وأقنعة أخرى-. جريمة تستمرّ دون محاكمة ودون حكم بحقّها. هذا ما تُدكّرُ به وتؤكّده هذه الصور.

فلسطين القضية المغيبة

ساندرا بارريلارو*

فلسطين : القضية المغيبة

فلسطين بلد كأي بلد في العالم، مثل إيطاليا أو البرتغال أو العراق، على الرغم مما قد يبدو للبعض في الوهلة الأولى بأن هذا الاسم قد فقد جوهره، وأصبحت كلمة فلسطين مجرد تعبير عن مشكلة قديمة وحديثة . وعلى الأكثر تبدو للبعض مجرد اسم لنِدِّ مزعجٍ لإسرائيل. لكن فلسطين كانت على مر العصور هي نفس فلسطين قبل أن تتحول إلى معضلة، قد تكون هذه العبارة بديهية، ولكنها حقيقة تغيب، في الكثير من الأحيان، عن بال البعض عن قصد أو غير قصد، أو ربما بسبب التعقيم المتعمد. لم يكن هذا التعقيم أبداً محض صدفة، بل ثمرة خطة مدبرة.

كلمة فلسطين وجدت في مخطوطات مصرية يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وهو الاسم الذي ظل يشير طوال قرون إلى بقعة من الأرض، لها حدودها الجغرافية وهويتها الثقافية، والاجتماعية، وجغرافيتها البشرية، ونظامها الإداري والسياسي. وتمتد حدودها بين البحر الأبيض المتوسط غرباً ونهر الأردن شرقاً، وبين جبال الجليل شمالاً وصحراء سيناء جنوباً. أرض اكتسبت هويتها المميزة إبان العهد الروماني وأطلق عليها اسم فلسطين، وظلت هذه التسمية سارية بدون انقطاع حتى القرن التاسع عشر، عندما شكلت جزءاً من المقاطعة السورية التابعة للإمبراطورية العثمانية، ومع ذلك احتفظت باسمها . فتاريخ هذا البلد العريق هو تاريخ البشرية ككل، مهد الأديان وبداية التأريخ للعالمين الشرقي والغربي، والأهم من ذلك كله هو أن فلسطين هي الأرض

* صورة وصحافية اسبانية. ناشطة في الدفاع عن القضية الفلسطينية.

التي يقطنها الفلسطينيون.

يمكن القول بأن المشكلة العربية الإسرائيلية قديمة، لكنها ليست أزلية أو غابرة في أعماق التاريخ، وهي ليست مطبوعة في الجينات الوراثية لأهلها بل، إنها مشكلة لها بداية وتاريخ ميلاد وأبوان معترف بهما. ولقد بدأت القضية مع نهاية القرن التاسع عشر، وفي غفلة من سكانها بدأت حياتهم ومصيرهم المشترك يكتب بعداً جديداً، وتحولت فلسطين إلى "قضية"، بفعل دسائس كانت تحاك مع بداية المشروع الصهيوني في مكاتب وزارات الخارجية الأوروبية. في تلك المحافل لم يقتصر الأمر على رسم مستقبل غير متوقع لسكان البلد من العرب، بل كانت الخطة تشمل وضع أسس وآليات لتزوير وتحوير التاريخ الماضي لهذه المنطقة، ليصبح مجرد مقدمة للدولة اليهودية القادمة .

بدأ المستوطنون من الحركة الصهيونية بالتوافد على فلسطين في العقد الثامن من القرن التاسع عشر بالتحديد اعتباراً من سنة (١٨٨٠). في ذلك الوقت كانت المنطقة تخضع للحكم العثماني، ولقد استوطن أولئك المهاجرون في السهل الخصب المحاذي للشاطئ إلى الشمال من يافا. في أراضٍ اشتراها البارون إدموند روتشلد - الذي لعب دوراً مركزياً في تمويل وتشجيع الهجرة اليهودية - مستغلاً قوانين ملكية الأرض التي كانت قد سنتها الإدارة العثمانية سنة ١٨٧٦، والتي مكنت بعض الاقطاعيين المقيمين في اسطنبول وبيروت من استغلال فرص المتاجرة العقارية المربحة، من خلال شراء أراضي لوجهاء فلسطينيين من أولئك الذين عجزوا عن تسديد الضرائب المفترطة، التي كانت تفرضاها الإمبراطورية العثمانية عليهم، لبيعها فيما بعد بأسعار مغرية لعملاء لروتشلد وجمعية الاستعمار اليهودية (PICA).

في تلك الفترة لم يكن توافد الأوربيين للعيش في الديار المقدسة أمراً مستغرباً. فمنذ منتصف القرن هاجرت جماعات من المتدينين المسيحيين واليهود إلى فلسطين بدوافع دينية. كما وصلت جاليات من جمعية فرسان يوحنا الألمانية إلى البلاد واستقر أفرادها في حيفا ويافا والقدس ومدن أخرى في المنطقة، وكذلك وفدت عائلات من السويد وأميركا، وشيدوا بناية جميلة للغاية في القدس هي فندق اميريكان كولوني الحالي . هذه مجرد مثال على البصمات التي خلفتها موجة المهاجرين المتدينين في المنطقة .

فلسطين لم تكن مغلقة أو معزولة، بل كانت تتواصل مع الأجانب. والمجتمع الفلسطيني لم يكن مجتمعاً عدوانياً ولا متعصباً دينياً، في تلك الفترة التي وصل فيها الرعيل الأول من المستوطنين من

الحركة الصهيونية. لم تكن تلك الأرض خالية من السكان أو صحراء قاحلة كما كانت ولا تزال تروج بعض أبواق الدعاية من أكاذيب.

نورد فيما يلي ما رواه اثنان من الرحالة الأسبان، هما (خوسي ماري فرناندث سانثث، و فرانشيسكو فريري فيريرو) بعد زيارة منطقة يافا:

رأينا غابات كثيفة من أشجار الرمان، ومزارع قصب السكر والنخيل. شاهدنا البساتين الجميلة، وفيها أنواع كثيرة من النباتات. والمزارع في المنطقة تحتوي على العديد من المحاصيل المروية بواسطة الكثير من الآبار الارتوازية. الطبيعة هنا خلابة، حيث تنتشر الحدائق الخلابة، والتي ربما تعطي أفضل ثمار البرتقال في العالم. ٢

وفي سنة ١٨٩١ نشر الكاتب الروسي اليهودي الشهير "اثور جينسبرغ" مقالاً على إثر زيارة قام بها إلى فلسطين :

اعتدنا على الاعتقاد، نحن الذين نعيش خارج "إسرائيل" بأن تلك الأرض ليست سوى صحراء قاحلة، وجافة بدون زرع أو حرث، وأن بوسع من يشاء أن يمتلك أرضاً بدون عناء. ولكن الواقع غير ذلك. فمن الصعب أن تجد أرضاً زراعية بوراً، فالمناطق الوحيدة التي تخلو من الزرع هي تلك التي لا تصلح للزراعة كالصحراء الرملية والجبال الصخرية "٣.

لم تكن فلسطين أبداً أرضاً قاحلة بانتظار وصول المستوطنين لإصلاحها وتخصيبها، بل كانت أسوأ بغيرها من المناطق الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط، تحتوي على مناطق صحراوية ومناطق خضراء زراعية، بعضها خصبة للغاية يفلحها مزارعون مستقرون فيها منذ أجيال. أما الصحراء فما زالت كما كانت مجرد صحراء.

لم تكن المستعمرات الصهيونية مشروعاً مربحاً من الناحية المادية، فبقاؤها على قيد الحياة كان مرهوناً برؤوس الأموال، التي كان يغدق بها روتشلد والمسؤولون عن الصندوق القومي اليهودي فيما بعد. كان المستعمرون اليهود يتلقون الدعم السخي والقروض غير المستردة بعكس المزارعين الفلسطينيين الذين أغرقتهم وأثقلت كاهلهم الديون.

هذا ما أوضحه التقرير المتعلق بتوزيع الأراضي الفلسطينية، والذي كلفت الحكومة البريطانية السيد جون هوب سيمسون باعداه سنة ١٩٣٠:

الجزء الأكبر من رؤوس الأموال اليهودية التي استثمرت في فلسطين كانت عبارة عن هبات لا تترتب عليها أية فوائد أو مستلزمات مالية مردودة ... وبالنسبة للمستوطنات الزراعية يمكن القول أنه ليس هناك مستوطنة واحدة قادرة على الاكتفاء الذاتي، بمعنى أن هذه المستوطنات لم تكن قادرة على العيش والبقاء بدون دعم خارجي ٤.

كانت ملكية الأراضي على مر العصور تنتقل من مالك لآخر، وقد زادت وتيرة انتقال الملكية بشكل لافت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولكن المزارعين الذين كانوا يعتقدون بتلك الأراضي «ظلوا مغروسين فيها». انقلب الوضع بشكل جذري مع وصول طلائع المستوطنين الصهاينة. فالعائلات، التي كانت تفلح الأراضي بموجب نظام التأجير وتبادل العوائد الساري منذ قرون، قد تم طردها من أراضيهم بعد أن تم شراؤها بالأموال التي دفعها الملياردير (بارون روتشلد)، أو الصندوق القومي اليهودي. هذه الظاهرة تفاقمت، وازدادت خطورتها مع بداية القرن العشرين، بعدما أصبحت سياسة تهويد العمل جزءاً أساسياً من أهداف الحركة الصهيونية.

فيما يلي نجد نموذجاً للعقود التي فرضتها الحركة الصهيونية: يتعهد المستأجر أن يقوم بكافة الأعمال الزراعية مستخدماً أيادي عاملة يهودية فقط (..) كما تشترط العقود بأن لا تعطى الأرض بغرض فلاحتها لغير اليهود بتاتا، وفي حالة وفاة القائم على هذه الأرض لا يجوز نقل المسؤولية عنها لأي شخص غير يهودي، وإذا تم ذلك فإن الصندوق له الحق في استعادة الملكية (..). لكن الحركة الصهيونية لم تكتف بشراء الأرض، بل اشترطت دائماً أن تكون الأرض خالية من السكان.

الحرب الكبرى

كانت الأجواء في فلسطين كما في المشرق العربي، خلال السنوات القليلة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى، مشحونة بالتوترات السياسية، وتنامي مشاعر القومية العربية ضد السيطرة التركية، وفي فلسطين بالذات، وبالإضافة لهذه المشاعر، كانت الأجواء أكثر توتراً بسبب الإستياء المتزايد للفلاحين المحرومين من حقوقهم، و بسبب الغضب المتصاعد حيال الأتراك، الذين لم يتخذوا أي إجراء جدياً ضد تحركات ونشاطات الحركة الصهيونية. وقد شنت صحيفتان فلسطينيتان، هما صحيفة فلسطين الكرمل، وصحيفة الإقدام، خلال الشهور التي سبقت الحرب حملة ضد

النشاطات الصهيونية . حيث نشرت جريدة الاقدام مقابلة مع المثقف الفلسطيني خليل السكاكيني في مارس سنة ١٩١٤ قال فيها :

يسعى الصهاينة للسيطرة على فلسطين، قلب العرب النابض...إن القضاء على أمة يتم من خلال إخماد صوتها واحتلال أراضيها، هذا هو بالضبط ما يسعى له الصهاينة حيال الأمة العربية٦.

في هذه الأجواء المشحونة اندلعت الحرب العالمية الأولى، والتي أنهت الإمبراطورية العثمانية، وأتت بفرنسا وبريطانيا إلى مسرح الأحداث . هاتان الدولتان الاستعماريتان كانتا قد أظهرتا استعدادهما للتحالف مع التيار القومي العربي الناشئ . وفي هذا الصدد تبادل المندوب السامي البريطاني في مصر (هنري ماكماهون) خلال سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ المراسلات مع الشريف حسين، تعهدت فيها الحكومة البريطانية بالاعتراف ومساندة استقلال المحافظات السورية من سيطرة العثمانيين، وفي المقابل تعهد الشريف مكة بإعلان الحرب على الأتراك .

وهذا ما حصل بالفعل، فقد حارب العرب في صف الدول الحليفة وهم على ثقة من أنهم سيحصلون على استقلالهم بعد أن تضع الحرب أوزارها. ولكن تلك الأمان لم تتحقق، ففي الوقت الذي تعهد ماكماهون للعرب بمساندة استقلالهم، كانت الحكومة البريطانية تتفاوض سرّاً مع نظيرتها الفرنسية لتقسيم الأراضي العربية بعد التخلص من السيطرة العثمانية . وبالفعل تم التوصل إلى اتفاق سمي باسم الدبلوماسية اللذين وقعاه (سايكس و بيكو) يتم بموجبه منح فرنسا السيطرة على سوريا ولبنان، أما العراق وشرق الأردن وفلسطين فكانت من نصيب البريطانيين . ومن الواضح بأن المصير الدراماتيكي لفلسطين كان قد رسم في دهاليز الحكومة البريطانية في لندن.

في نوفمبر سنة ١٩١٧ أرسل آرثر جيمس بلفور وزير الخارجية البريطانية رسالة إلى البارون ليونيل والتر روتشلد، وعده فيها بدعم بريطاني لمشروع إقامة «وطن قومي لليهود في فلسطين»، وعرف بوعده بلفور الشهير، والذي لم يكن سوى رسالة سرية بدون أي مغزى قانوني. لكن الشرعية لم تكن أبداً عملاً يؤخذ في الحسبان في حالة عرقلة المصالح الاستعمارية . ونجد مثلاً على النفاق الاستعماري في الفقرة التالية من المذكرة التي أرسلها لورد بلفور إلى حكومة بلاده سنة ١٩١٩.

في فلسطين لن نتخذ الإجراءات الروتينية المعتادة والمتمثلة في التعرف على رغبات سكان هذا البلد . فالدول الأربع الكبرى ملتزمة بالاستجابة لرغبات الصهيونية، فالصهيونية سواء كانت على صواب

أم على خطأ، طيبة، أم خبيثة، تمتد جذورها في أعماق التقاليد القديمة، والحاجة الراهنة والأمل بالمستقبل، وهذا الأمر أهم بكثير من رغبات وتحفظات ٧٠٠,٠٠٠ عربي يعيشون في هذه الأرض القديمة ٧

دخل الجيش البريطاني بقيادة الفريق اللنبي القدس في التاسع من نوفمبر سنة ١٩١٧، بعد استسلام الجيش العثماني. وبقيت فلسطين تحت سيطرة القوات البريطانية حتى شهر يوليو ١٩٢٢. حيث أقرت عصبة الأمم الانتداب البريطاني على فلسطين، والذي شمل التزام سلطة الانتداب بوعد بلفور، أي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

لقد بلغ تعداد سكان فلسطين طبقاً لإحصاء أجراه الانتداب البريطاني سنة ١٩٢١ حوالي (٧٦٢,٠٠٠) نسمة . منهم ٧٦,٩% مسلمون، و١١,٦% مسيحيون، و ٠,٩% اتباع معتقدات أخرى. وفيما يتعلق بملكية الأرض لم تكن الحركة الصهيونية تسيطر سوى على ٢,٤% من الأراضي الفلسطينية.

وعلى الرغم من التجانس الواضح بين الإدارة البريطانية والأهداف الصهيونية إلا أن النخبة السياسية الفلسطينية والمجتمع الفلسطيني ككل، كانوا حينئذٍ يثقون بقدرتهم على إقناع الحكومة البريطانية لكي تستجيب لمطالبهم، وأن تتخلى عن سياسة التعاون مع الصهاينة. وقد شكلت لجان ووفود للسفر الى بريطانيا مرة تلو الأخرى من أجل شرح مواقفهم ومبرراتها، وتبليغ حكومة بريطانيا بإستياء السكان، والتحذير من خطر اندلاع العنف .

في رسالة أرسلت سنة ١٩٢١ إلى سكرتير الشؤون الاستعمارية، السيد ونستون تشرشل، من قبل الوفد العربي، رسمت الوضع على النحو التالي :-

الاستياء المتزايد في صفوف السكان الفلسطينيين، ناجم عن قناعتهم بأن السياسة التي تنتهجها الحكومة البريطانية تخطط لطردهم من بلادهم من أجل تحويلها إلى وطن قومي للمهاجرين اليهود .. لقد صدر وعد بلفور بدون التشاور معنا، وليس بوسعنا قبول أن يرسموا لنا مستقبلنا ٨ .

تفجر الغضب الفلسطيني في أغسطس ١٩٢٩، على إثر مظاهرة قام بها اليهود انتهت برفع العلم الصهيوني على حائط المبكى، عندها هب فلسطينيو القدس إلى الشوارع، وسرعان ما انتشرت الاحتجاجات وعمت معظم المناطق، وتحولت إلى اقتحامات لإحياء يهودية في الخليل وصفد وتل أبيب. نجم عن أعمال الشغب تلك مصرع ١٣٣ يهوديا و١١٦ عربيا، وألقت الشرطة القبض على

حوالي ألف شخص (وصدرت أحكام بإعدام ٢٦ شخص منهم ٢٥ عربيا ويهودي واحد).

أعمال الشعب تلك، كانت موجهة ضد البريطانيين والصهاينة في آن واحد، وامتدت لتشمل كافة قطاعات وشرائح المجتمع الفلسطيني بما في ذلك النساء. اللواتي عقدن أول مؤتمر نسائي فلسطيني سنة ١٩٣٢. وخلال السنوات اللاحقة عقدت وفود نسائية من المسلمات والمسيحيات اجتماعات متكررة مع سلطات الانتداب، وسافرت تلك الوفود النسائية إلى لندن من أجل عرض مطالبهن والمطالب الوطنية بشكل عام .

في منتصف عقد الثلاثينات سادت فلسطين أجواء عصيان عام. وفي مايو ١٩٣٦ وجهت اللجنة العليا العربية، والتي كان يرأسها الحاج أمين الحسيني، نداءً للعصيان المدني، ودعت المواطنين إلى إضراب عام في جميع أنحاء الأراضي الفلسطينية . وبذلك بدأت حملة التمرد الفلسطينية، وكانت أول انتفاضة .

نجح الإضراب في شل معظم النشاطات الاقتصادية والتجارية في عموم البلاد، واستمر الإضراب طوال ستة شهور، وقد تواصلت اعمال الشعب سنة كاملة، وكانت محصلة القمع البريطاني أكثر من ١٠٠٠ قتيل فلسطيني و٢٥٠٠ معتقل و٥٤ حكماً بالإعدام شنقاً. ولقد بدا الأمر وكأن تلك الحملة حققت بعض النتائج السياسية. ففي مايو سنة ١٩٣٩ أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض تضمن إعلاناً بالحد من الهجرة الصهيونية وتعهد بمنح فلسطين الاستقلال خلال مدة عشرة سنوات، واعتبرت الحركة الصهيونية هذا الاعلان تحولاً في سياسة بريطانيا وتهديداً لمشروعها في إقامة وطن لليهود .

على الرغم من تسارع وتيرة شراء الاراضي الفلسطينية من قبل الحركة الصهيونية خلال السنوات العشر السابقة، إلا أن الحركة الصهيونية توصلت إلى قناعة بأنه من المستحيل تحقيق الهدف المنشود والمتمثل في تحويل اليهود إلى أغلبية في فلسطين، وعليه ارتأت بأن الحل هو اللجوء إلى العنف.

وقد عبر عن ذلك بوضوح مدير الصندوق القومي اليهودي جوزيف ويز سنة ١٩٤٠ حيث قال:قامت الصهيونية بنشاطات مثمرة في مجال اقتناء الأرض، ولكننا بهذه الطريقة لن نتمكن أبداً من اقامة الدولة . فالدولة يجب ان تمنح لنا دفعة واحدة كعملية الانقاذ. ألم يكن هذا هو جوهر الإرساليات

التبشيرية؟. ليس هناك وسيلة أخرى لطرد العرب، كل العرب . سيتحتم علينا أن لا ندع قرية أو تجمعاً سكانياً أو قبيلة عربية في فلسطين باستثناء بيت لحم والقدس والناصرة . ٩

في هذه الأثناء كانت أوروبا تخوض حرباً شرسة، خصصت لها بريطانيا وحلفاؤها كل ما لديهم من طاقات من أجل القضاء على المانيا النازية . ومن البديهي القول أن مصير الفلسطينيين لم يكن من بين أوليات أو حتى أحد مصادر قلق الحكومة البريطانية، وعليه فإن التعهدات التي وردت في الكتاب الأبيض لم يكتب لها التنفيذ أبداً.

وبعد تقديم الكتاب الأبيض، الذي يمكن القول بأنه جاء استجابة لبعض المطالب الفلسطينية، بدأت المنظمات الصهيونية، الأكثر تطرفاً، حرباً ضد سلطات الانتداب البريطاني، وشتت سلسة من الأعمال الإرهابية.

في يوليو من سنة ١٩٤٦، نفذت جماعة مسلحة صهيونية، تدعى إرغون زابي لومي، عملية نسف فندق الملك داود (كينغ دافيد)، مقر الإدارة البريطانية، مما أدى إلى مقتل ٩١ موظفاً بريطانياً. وبعد ستة شهور فقط تخلت بريطانيا عن الانتداب في فلسطين، وأحالت ملف المسؤولية إلى الأمم المتحدة . وفي نوفمبر من سنة ١٩٤٧ أصدرت الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين: دولة عربية والأخرى يهودية، بريطانيا امتنعت عن التصويت على ذلك القرار. الذي منح نسبة ٥٧٪ من فلسطين التاريخية لإقامة الدولة اليهودية و ٤٣٪ للدولة العربية .

كان عدد سكان فلسطين في ذلك الحين ١,٩٧٢,٠٠٠ نسمة منهم ٦٠٣,٠٠٠ الف يهودي (ثلث عدد السكان) و ٤٧,٧٪ من الأراضي كانت مملوكة من قبل العرب، ونسبة ٦,٦٪ مملوكة من اليهود، والنسبة الباقية ٤٦٪ كانت أراضي عامة ومشاع . ١٠

استحالة قيام الدولة اليهودية إلا من خلال تفرغ الأرض من سكانها العرب.

الهوامش:

- (١) أصل كلمة وباء في اللغة الإسبانية.
- (٢) (من يافا إلى بيروت).. يوميات حاج إلى هذا المكان وأماكن أخرى خلال السنة المقدسة الكونية ١٨٧٥، الجزء الثاني . للمؤلفين (خوسه ماريا فرناندث سانشث، و فرانثيسكو فرييري فيريرو). وقد ترأس كلاهما قسم التاريخ في جامعة (سنتايغو دي كومبوستيل)
- (٣) حقيقة أرض إسرائيل لمؤلفه Verdad de la Tierra de Israel, Ehad Ha'am Cit por Ilan Halevi en Sous L'Israel, La Palestine, Ed. Le Sycomore. Paris 1979
- (٤) السيد جون هوب سيمسون تقرير عن الهجرة Land Sir John Hope Simpson: Report on Immigration, Settlement and Development in Palestine. 193٥
- (٥) السيد جون هوب سيمسون تقرير عن الهجرة Land Sir John Hope Simpson: Report on Immigration, Settlement and Development in Palestine. 193٥
- (٦) خليل السكاكيني (ولد في ٢٣ يناير ١٨٧٨ - وتوفي في ١٣ أغسطس ١٩٥٣، أديب ومربٍ فلسطيني مقدسي مسيحي. اهتم باللغة والثقافة العربية. ويعتبر من رواد التربية الحديثة في الوطن العربي [١] الأمر الذي كان له أثر كبير في تعليم عدة أجيال. وكان عضواً في المجمع اللغوي بالقاهرة. نشر له إثنا عشر مؤلفاً في حياته. عاش في فترات متلاحقة في كل من فلسطين والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأميركية وسوريا ومصر. اعتقل في القدس أثناء الحرب العالمية الثانية وسجن في دمشق، ولكنه تمكن من الخلاص من سجنه والتحق بقوات الثورة العربية. وفي طريقه للانضمام إليهم كتب نشيد الثورة العربية
- (٧) سير ارثور جيمس بلفور ١٩٣٩-١٩١٩. Documents on British Policy 1919.1939.cit Palestine, los arabes. ١٩71 e Israel, Henry Cattan. SigloXXI editores Mexico
- (٨) رسالة إلى تشرشل بعث بها الوفد العربي الذي زار لندن من أجل التعبير عن المعارضة لإدراج وعد بلفور ضمن شروط الانتداب البريطاني على فلسطين بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٢١.
- (9) Diario de Jossef Weitz. Citado por Ilan Halevi en Sous L'Israel, la Palestine. Ed Le Sycomore. Paris 1979
- (١٠) محضر اللجنة الخاصة بفلسطين بمنظمة الأمم المتحدة.



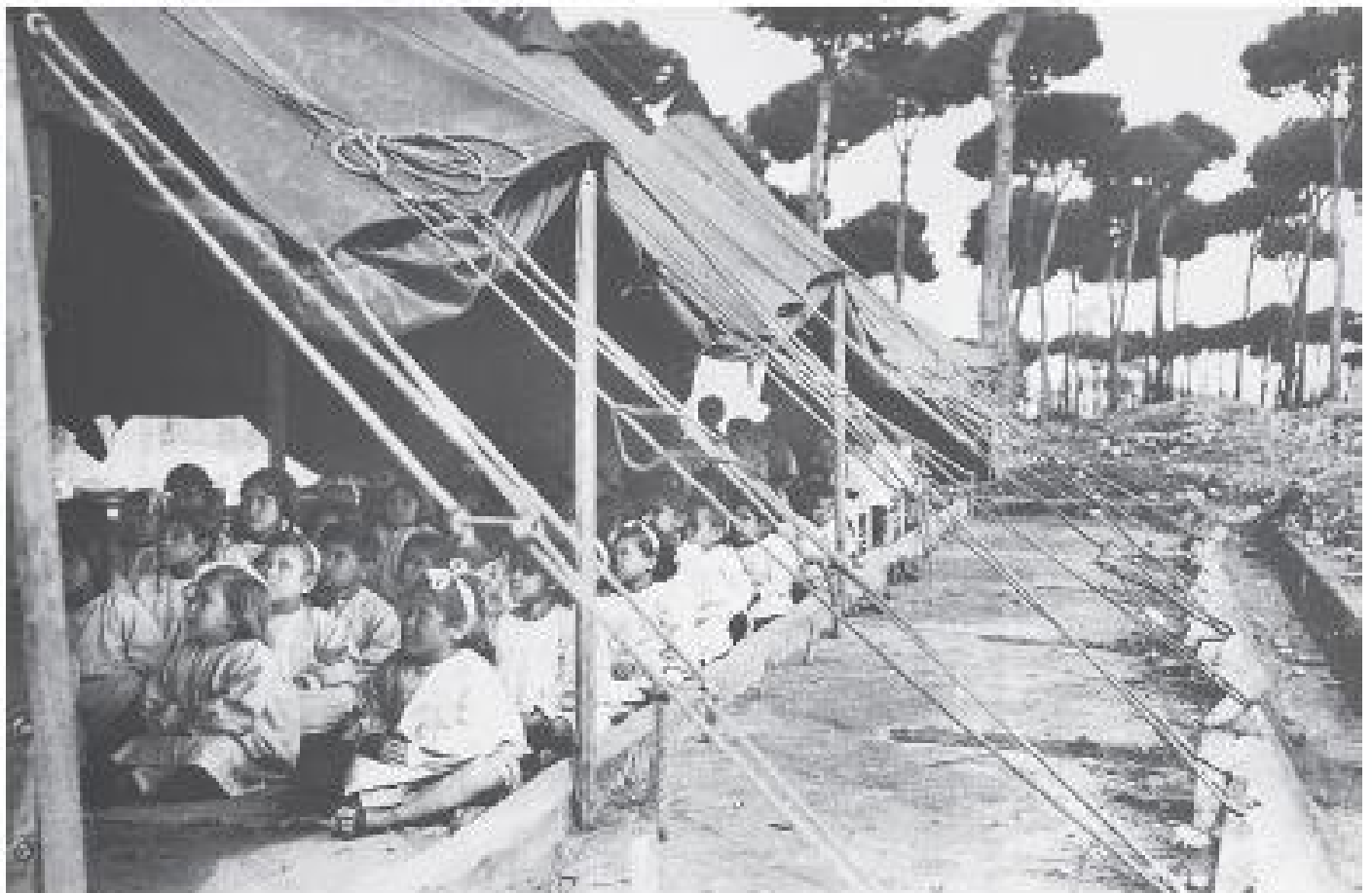
١٩٥٣- مخيم الشاطئ: نساء ينقلن المياه لعدم توفر المياه الجارية في تلك الفترة.



مجموعة من الفتيات يمارسن لعبة كرة السلة في مركز النشاطات النسائية في مخيم قلنديا خلال عقد الخمسينيات.



١٩٣٦ - ١٩٣٩: حرس بيت جالا.



صورة من الحصص الأولى في الروضة في مخيم ديكوانة بلبنان (التاريخ غير محدد)



بنك الخليل وقد شبت فيه النيران التي أشعلها الثوار العرب عام ١٩٤٨.



مكتب البريد بعد تعرضه للهجوم في ١٩ اغسطس من نفس العام.



١٩٥٠: مفاتيح الملاحة الاسمنتية المسلحة في مخيم عيدا بالقرب من بيت لحم.



١٩٣٤: ميشيل سعد يعزف على العود، ورفقة اصدقائه، في الحي القديم من حيفا.



١٩٤٢: طالبات من مدرسة Schmidt's في القدس.

SCHMIDT'S GIRLS COLLEGE
JERUSALEM

SECONDARY CERTIFICATE

THIS IS TO CERTIFY that *Olga Kattan*
has completed the courses for the Secondary Certificate
successfully and passed the Examination
in the month of *June* in the year *1944*.

A. Levin

PRINCIPAL





ديسمبر ١٩٤٨: شاحنات تنقل اللاجئين وأمتعتهم من غزة للخليل.



١٩٤٨: الخروج من حيفا.



١٩٤٨: من آثار الدمار الذي خلفه الاحتلال في حيفا.



مجموعة من الفلسطينيين خلال رحلة لبحيرة طبريا في الفترة ما بين 1940 - 1942



مخيم اللاجئين في نهر البارد، الذي يعتبر من أوائل مخيمات اللجوء في مطلع الخمسينيات.



لاجئون يستلمون حصصهم في محيط العقبة حيث لم تتواجد مخيمات في تلك المنطقة. التاريخ غير محدد.

تقارير ومراجعات

على هامش كتاب برنار ستيجلر:

الغباء والمعرفة في القرن الحادي والعشرين عالم طريف يحكمه الغباء

فيصل دراج

يستدعي البعض، الألمان ربما، تعبير ”روح الزمن“، قاصداً حقبة زمنية محددة المعالم، لها ما يميّزها من غيرها، ويفصلها عن حقبة سابقة. وهو ما فعله الفرنسي برنار ستيجلر في كتابه الجديد: ”أحوال الصدمة: الغباء والمعرفة في القرن الحادي والعشرين“، كما لو كان الغباء هو الفاصل بين القرن الراهن والقرن الذي سبقه، وهو ما لا تقول به الوقائع.

كان مفكرو”النظام الدولي الجديد“، الذي ”صعد“ في نهاية ثمانينات القرن العشرين ومطلع تسعيناته، قد رموا القرن الآخذ بالأفول بصفتين: الأيديولوجيات المغلقة، التي تأمر الفكر بالتزمت والتعصب، النازية على سبيل المثال، و”الأنظمة الشمولية“، التي تمنع عن الإنسان حريته وتحرم فكره من الإبداع والازدهار. كان بديهياً أن يبشر ”المفكرون الجدد“ بديمقراطية ”مستعادة“، وسعادة ”مستدامة“، وأن يتحدثوا بثقة عن ”القرية العالمية“ القادمة، التي يتمتع سكانها بالدفع والذكاء وحياء واسعة من الأعلام.

أعلن منظرو ”النظام الجديد“ عن نهاية الأيديولوجيا، المحتشدة بالتقاتل والغباء، وعثروا على البديل في ”مجتمع ديمقراطي“ يحرسه العلم والتقنية والثورة المعلوماتية و”مجتمع المعرفة“، كما لو كان العلم متاحاً للجميع.

غير أن ما وعد به ”المفكرون“، ومنهم أنصار ”ما بعد الحداثة“، جاء ببدائل قاتلة في القرن الجديد، سمتها: الغباء الذي له شكل القاعدة، كما يقول ستيجلر. فعوضاً عن الأيديولوجيات المغلقة جاءت إيديولوجيات عنوانها الأكبر: الإرهاب، بصيغة الجمع، فالحديث عنه بصيغة المفرد شكل من الغباء، الذي يحمل عليه مؤلف الكتاب ويندّد به. بل أن هذا ”الإرهاب المتعولم“، بدأ أيديولوجيا عملية،

تقتل وتدمر وتحطم العقول، وتعطل "المسؤولية الإنسانية"، التي تحدث عنها الأنبياء والفلاسفة. انتقل الزمن الإنساني من بطولة الإيديولوجيات المتقاتلة الواعدة بمجتمعات اشتراكية، أو قومية، أو كليهما معاً، إلى بطولة الغباء، التي تعطل ذكاء الإنسان وتختصره في أرقام ومصالح، وتضيف إليه نزوعات "شعبوية" دامية.

أعطى ستيجلر كتابه عنواناً لا ارتباك فيه: "أحوال الصدمة: الغباء والمعرفة في القرن الواحد والعشرين" مؤمناً، وليس بلا براءة، أن المعرفة تصلح "كساد الروح الإنسانية"، التي فارقها الذكاء. كان في كتابه السابق: "ما يجعل الحياة جديرة أن تعاش"، الذي ظهر في عام ٢٠١٠، قد عثر على إجابة سعيدة، أو ما يشبهها فقال: ما يجعل الحياة جديرة بالعيش هو "الصراع ضد الغباء". كما لو كان الغباء مرضاً لا غموض فيه، له أسبابه وله ما يعالج الأسباب الخبيثة ويستأصلها.

ينطوي الكتاب على أبعاد واضحة من الثقة والأمل، توحد بين الإنسان العاقل والمعرفة العقلانية التي ترى العلاقة بين الأسباب والنتائج وتأخذ بيد الإنسان، تالياً، إلى العالم المنشود، الذي "لا غباء" فيه. فالإنسان، كما غباؤه "الوافد" في القرن الحادي والعشرين، منتج بشري، قابل للإصلاح، فالأول كائن أزلي متعدد الاحتمالات، و"القرن الجديد" عارض وقابل للزوال. وما تأتي به رياح الغباء "المصنوع" يصده تاريخ إنتاج المعرفة، إن عومل باجتهاد وبصيرة؟ فلكل ظاهرة إنسانية، والظواهر متحوّلة، أسبابها القابلة للشرح والتعديل، لا فرق إن كانت عبودية راضية، أو غباء مستطيراً يستثمره "مسؤولون"، يسخرون من المسؤولية الأخلاقية ولا يتطرون من الغباء الخبيث.

ساوى ستيجلر، وليس بلا خفة أو براءة، بين الغباء وتهافت العقل، وعاد إلى "تاريخ العقل" وتقصى أسباب تهافته الراهن. قرأ الغباء الراهن في سطوة المعلومات وتراجع المعرفة، إذ للأولى بعدها الكمي، تصف ولا تحلل، تتراكم ولا تحاور، وإذا العقل لا معنى له إلا في المحاكمة والمقارنة وإيقاظ الحوار والاتفات إلى قضايا الحياة، وعدم الاكتفاء بالمعادلات المجردة وعالم الأرقام. تتكشف سطوة المعلومات، التي توهن العقل، في تقنياتها المتعددة المتصاعدة، وفي سعيها إلى تقنيات إعلامية لا تكف عن التجدد، مواجهة "الإنسان المثقف"، الذي يركب ويحلل، "بالإنسان المعلوماتي"، الذي يفصل بين الكم والكيف، ويفكك ما استطاع ولا يميل إلى التركيب. ومع أن للثورة المعلوماتية، التي ترفد الآلة الإعلامية وتجدها، وجوهاً إيجابية، فهي، في التحديد الأخير، تنشر الغباء أكثر مما تعارضه. وما على الإنسان إلا أن ينظر إلى "الإنترنت" الذي يرمي، يومياً، في وجه الإنسان كميات هائلة من "المعلومات"، تستولد الغباء ولا تسهم في تثقيف البشر.

يرجع ستيجلر، وهو يدافع عن العقل الفاعل، إلى الفلسفة اليونانية، حيث سقراط يحاور ويساجل

ويستولد الأفكار محتفياً "بالتفكير في ذاته"، مبتعداً عن السفسطائيين وأغراضهم، ذلك أن الفلسفة لا تسأل عن الأشياء والتي وصل إليها الإنسان، بل عن الطرائق والأساليب التي أسعفته في الوصول. ولهذا احتفت الفلسفة اليونانية الكلاسيكية، بالعقل، من حيث هو "ملكة ذهنية" ونظام نفسي أيضاً، وهو ما استولد "الساحة العامة"، كإطار رمزي - مديني يتبادل الناس فيه الأفكار ويسألون عن الحقيقة، وما جاء "بمناخ المدينة"، الذي يواجه الحرب بالسلام، ويواجه المفرد المنغلق بالجماعي المفتوح.

يتكشّف الحوار الجماعي، في الإشارات الممتدة من سقراط إلى "الأجورا"، أي الساحة العامة، أسلوباً في ارتقاء محاكمة الإنسان وهو طاقته المفكرة (ص: ١٦٨). إنها قوة الكلام الحوارية، للصيقة بالسياسة، من حيث هي فعل جماعي، بعيداً عن التلقين والاستظهار اللذين يختصران الإنسان في ثنائية: الأمر والانصياع.

يشكو المؤلف من تآكل العقل النقدي وتمدد العقل المستقيل، الذي يكتفي بالمعلومات ولا يذهب إلى ما وراء الأشياء. ولعل شكواه من عقل "معلوماتي" يصف الظواهر ولا يبحث عن الأسباب، هو ما دفعه إلى نقد شديد لفلسفة "ما بعد البنيوية"، ممثلين، كما يقول، بليونار وديلويز ودريدا، الذين صرفوا جهداً واسعاً في الحديث عن النسبي والجزئي واللايقيني، حتى غدت "الحقيقة" مطلباً مستحيلًا، وبدا "عصر التنوير" مرجعاً سلبياً، بدلاً من أن يكون "مشروعاً غير مكتمل"، يجب استكمالها.

رأى ستيجلر مصدر الغباء، أولاً، في تراكم المعلومات، المنفصلة عن الحياة، ولمس المصدر الآخر في "اقتصاد السوق"، الذي تجاوز دوره كاققتصاد وتوسّع ليصبح مرجعاً للقرارات الإنسانية كلها، يرسم ويبرّر ويعيّن طرائق الحياة ويقترح السياسات المختلفة. وعينه ثالثاً في السياسات المدرسية والأكاديمية، وكل ما له علاقة بمعاهد المعارف والعلوم. فالمدرسة، في الزمن الراهن، تحتفي بالاقتصاد وإدارة الأعمال، ما يجعل من أوروبا "مجتمعاً مدرسياً" فقيراً، يلبي حاجات "السوق الأوروبية"، ولا يحفل بالثقافة والعلوم الاجتماعية والآداب والفنون... "تصبح المدرسة، بهذا المعنى، كما الأكاديميات و"المدارس العليا"، مصدرًا للغباء يطرد المعرفة ويكتفي بالمعلومات (ص: ٢١٨)، بعد أن حوّلت الحكومات المعاهد التعليمية إلى مجرد حاضنة للأعمال ورجل الأعمال، ما نتج عنه "ليس تعطيل العقل فقط، بل تدميره".

عثر الكتاب على الحل المنشود في وسائل ثلاث، مشتقة من نقده، تتمثل في: عودة الفلاسفة إلى "الساحة العامة"، ليلتقوا بالبشر قبل صوغ مفاهيمهم المجردة، وإصلاح مدرسي واسع، يكسر

احتكار "رجال الأعمال" للمدارس، ويعيدها مرجعاً للمعرفة والثقافة، وأخيراً في يقظة "العقل النقدي"، الذي يعترف بالعقل قبل رجوعه إلى "المصالح"، الضيقة منها والواسعة. والمؤلف في نقده بحاجة إلى النقد أيضاً. فزمن اليوم لا يتسع لسقراط وتوليدته الكلامي الشهير، وزمن الأنوار الكلاسيكي رحل منذ أن ابتلعت المصالح البرجوازية أحلام "الإنسان الشامل"، التي تساوي بين البشر جميعاً.

رومانسية جامحة تلك التي تريد إصلاح المجتمع الراهن بالمعرفة، وتودّ مواجهة الغباء بالذكاء، وتؤكد الذكاء المعرفي "وسيلة سحرية" تطرد "رجال الأعمال" واقتصاد السوق الليبرالي. فالمسؤولون الكبار الذين يحكمون العالم تنقصهم المسؤولية لا الذكاء، فهم يفرضون "السياسات الإعلامية"، ويشرفون على إنتاج الغباء الواسع، ويختصرون البشر في أدوات للاستعمال. فات الاستاذ الفرنسي سيتجلر أن يرى العنصرية وراء الغباء المفترض، وصناعة الحرب وتسويق الدمار، وغيرها من الظواهر التي تشرف عليها "عقول لامعة" تلتبس بالكراهية وتكدّس الأرباح.

Bernard Striegler: states of shock: stupidity and knowledge in the 21st century. Polity press, London, 2015

نبيل شعث في كتابه "حياتي: من النكبة إلى الثورة": والده أُمُودج يُحتذى.. وياسر عرفات قائده الذي لا يُرد له طلب

عزيز العصا

أصدر «نبيل علي شعث» سيرته الذاتية تحت عنوان: حياتي.. من النكبة إلى الثورة»، وقد قُدر لي الاطلاع على كتابه هذا في طبعته الثانية الصادرة عن «دار الشروق» في القاهرة في العام (٢٠١٧). يقع الكتاب في (٥٥٠) صفحة من القطع المتوسط، يتوزع عليها (١٤) فصلاً؛ لكل فصل عنوانه المستقل، الذي يشير إلى محتوى مشبع بالمعلومات والبيانات والبيّنات. إلا أن تلك الفصول تشكل، في مجموعها، سيرة قائد فلسطيني وأسرته التي عاشت النكبة واللجوء، بعد أن خسرت الأرض وفقدت الهوية وتشرد أفرادها في أصقاع المعمورة، كما تشكل سيرة ثورة وشعب واجها، معاً، مؤامرات القريب والبعيد والعدو والشقيق.

لم يرهقنا «نبيل علي شعث» بالرمزيات أو الخطابات ذات صبغة المزايدة، أو تلك التي تدعي البطولات الخارقة، وإنما جاءت السيرة بمنهجية سرد مباشرة وسهلة، وأكد أعتبرها من نوع السهل الممتنع، ومتسلسلة وفق التواريخ والأحداث الكبرى الملتنقة بها.

ولا يمكنني الفصل بين «نبيل علي شعث» -كاتب السيرة- وبينه كأكاديمي جعل لكل فصل جوهرًا تدور حوله الأحداث، ويصف حقبة زمنية محددة، دون أن يبتعد بالقارئ في متاهات وبطولات خارقة كثيرًا ما يرهقنا بها كُتّاب السير الذاتية. وجاءت تلك الفصول متميزة بعناوين واضحة، وكل عنوان ينبئ عن محتوى الفصل بالضبط دون أي شطحات أو خروج عن النص، وينتهي الفصل بـ «إفقال» جميل وبعبارات ملؤها الأمل والتفاؤل؛ تشكل صلة الوصل بين الفصل السابق والذي يليه. لقد جاء الفصل الأول من هذا الكتاب-المجلد يحمل عنوان: «الجدور»؛ الذي يشير فيه إلى ولادته ونشأته المبكرة، والفصل الأخير، يحمل عنوان: «ملحمة بيروت: حزيران ١٩٨٢»؛ التي بها يسدل

الستار على حقبة تمتد بين ولادته (العسيرة) في العام ١٩٣٨ حيث ضربته القابله عدة مرات حتى صرخ، ومغادرة بيروت في العام ١٩٨٢ بعد حصار شرس وضمود أسطوري للشعب الفلسطيني وثورته. وبين هاتين المحطتين تتوالى الأحداث والعذابات والغربة ومواجهة العنصرية بأشكالها المختلفة، وأما المحطة الأطول فهي تلك الأكثر وجعًا وإيلامًا والتي تركت في الخاصرة الفلسطينية ندبًا لن تحوها الأيام والسنين مهما طالت؛ وهي «سنوات الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥-١٩٨٢)» والتي أتبعته بـ «ملحمة بيروت-١٩٨٢».

بقراءة، متأنية، وجدت أن هذا الكتاب يتكئ على مجموعة مرتكزات، منها:

أولاً: الوالد ودوره وأثره وتأثيره

هناك من كتاب السيرة الذاتية من يبدأ بذاته، ويبقى متمحورًا حولها على طول النص الواقع بين دفتي سيرته، للحد الذي يجعلك تعتقد بأن الدنيا بدأت معه وستنتهي معه. أما «نبيل علي شعث» في كتابه هذا فقد خصص مساحة واسعة لصاحب الفضل الأول في نشأته وتنشئته؛ وهو والده، الذي قدمه لنا تربويًا ومؤسس بنوك ومفكرًا وهو من كان يزود الثوار بالأسلحة، كما أن والده تحمل مسؤولية رعاية الفلسطينيين في الإسكندرية، منذ بداية تدفق اللاجئين من البحر على ميناء الإسكندرية عام ١٩٤٨، وساعد الطلبة المحتاجين، عندما زاره وفد منهم برئاسة شاب إسمه ياسر عرفات، وكان معه طالبان هما: فاروق القدومي وصلاح خلف دعاهم لبيته فتعرف «نبيل علي شعث»، أثناء تلك العزومة، على ياسر عرفات الذي أطلق عليه والده لقب «رئيس فلسطين القادم».

بقي «نبيل علي شعث» في سيرته هذه يذكر والده في الكثير من التفاصيل التي تتعلق به حتى وفاته، رحمه الله، في نهاية الفصل السابع، رغم أنه اختلف معه وهو بعمر (٢١) عامًا. ويذكر الكثير من قادة الصف الأول في القيادة الفلسطينية الذين كانوا على صلة مباشرة به، منهم: الحاج أمين الحسيني، وأحمد الشقيري، وياسر عرفات، وفاروق القدومي وصلاح خلف وأكرم زعيتر وغيرهم، بالإضافة إلى علاقته الشخصية بالرئيس المصري جمال عبد الناصر. كما أن والده هو من أنشأ «نادي فلسطين» في القاهرة في العام ١٩٥٣ بعد ثورة الضباط الأحرار.

ولعلمي أرى في ذلك نمطاً جديداً من كتابة السيرة، عندما يحمل الكاتب معه سيرة أخرى موازية أو مكملية. كما أنني قرأت في ذلك شكلاً من أشكال الوفاء لمن ربّي وأحسن التربية، وحرص وأحسن الحرص، فحرب أُمُودجًا للأب الصلب المثابر الذي كرّس حياته لأبنائه، وبذل الجهد الكبير لضمان مستقبلهم حتى أبعد مدى.

ثانياً: من الصبا إلى الشيخوخة: حياة حافلة بالأحداث والشخصيات

لا شك في أنه من حق كاتب السيرة الذاتية تسليط الضوء على تفاصيل حياته الخاصة، وهذا ما فعله «نبيل علي شعث» عندما غاص في مسلسل حياته الشخصية، متضمناً علاقاته وانفعالاته، في المراحل العمرية المختلفة، ووصفاً تطوره الأكاديمي من البكالوريوس حتى الدكتوراه، مروراً بانتماؤه لحركة فتح في العام ١٩٦٠، وقبل انطلاقتها والإعلان عنها للملأ، والتزامه بالعمل مندوباً لمجلة «فلسطيننا- نداء الحياة» التي كان «أبو جهاد يشرف عليها، ويكتب مع ياسر عرفات معظم مقالاتها.

لقد بدت حياته الشخصية أرسقراطية وميسورة الحال إلى حد كبير، علماً بأن والده ألحقه بمدرسة الرمل المصرية الحكومية؛ لكي يكون مع الناس وهو يعده ليصبح «قائداً سياسياً يسهم في تحرير وطنه»، وأن والده علمه الرياضة والرحلات الكشفية ولعب التنس والموسيقى، وبقيت الفنون له هواية وثقافة، أغنتا حياته حتى تاريخه.

ظهر في السرد السيري معاناة الكاتب في حياته، أيام الطفولة والصبا والشباب، كما وجدها في سويسرا وبريطانيا وأميركا، والتي كانت ذروتها أنه عانى من النظرة العنصرية تجاه العرب، وفي أحد أشكال المعاناة تعود لكونه يحمل جواز سفر مصري، في الوقت الذي كان اللوي الصهيوني قد اشتد ضد الزعيم المصري الثائر «جمال عبد الناصر». وعليه، فلم تكن ملامح النكبة وإفرازاتها هي المسيطرة على ذكريات الحقبة الممتدة بين ١٩٤٧-١٩٦٥ من سرد السيرة الذاتية للكاتب «نبيل علي شعث».

وعندما خاض غمار الحياة السياسية، كانت علاقاته مع الصف الأول، سواء بين الفلسطينيين أو بين المصريين؛ فقد التقى بالرئيس المصري «جمال عبد الناصر» مباشرة ووجهاً لوجه ثلاث مرّات، وفيها جميعاً كان له فرصة الحديث معه، وكان على صلة مباشرة مع أنور السادات منذ كان نائباً للرئيس جمال عبد الناصر. كما كان من أصدقائه الطلبة: أسامة الباز/ النجم المصري للدبلوماسية والسياسة الخارجية، ومنصور حسن/ الذي أصبح وزيراً في حكومة السادات، وكمال الجنزوري/ أصبح رئيساً لوزراء مصر، وحفيظ الله أمين الذي أصبح رئيس أفغانستان فيما بعد.

ثالثاً: ييدي الكاتب إعجابه بالإخوان.. ويضيق ذرعاً بالبعثيين..

يدلي «نبيل علي شعث» في سيرته هذه بشهادة إيجابية لصالح الإخوان المسلمين بدءاً بالتحاقه بالجمعية الدينية في مدرسة الرمل الثانوية في مطلع العام الدراسي ٥٣/٥٢، ثم إعجابه بذكاء وأخلاق الإخوانيين من زملائه، فأصبح هو إخوانياً لفترة قصيرة ثم غادر الحركة. ولم يغادر «نبيل علي شعث» هذه الحقبة قبل أن يشير إلى أن عددًا كبيراً من مؤسسي حركة فتح كانوا من الإخوان المسلمين منهم: ياسر عرفات، وخليل الوزير، وصلاح خلف، وكمال عدوان، وأبو يوسف النجار،

ومن البعثيين: فاروق القدومي وصخر حبش. ومن القوميين العرب منير شفيق وغيره. من جانب آخر، نجد أن «نبيل علي شعث» يبدي ضيقه الواضح من البعثيين، فأخذ يسلط الضوء عليهم منذ العام ١٩٦٠، ويبرز منافسته لهم، وهو راغب في هزيمتهم نقابياً، ويتابع إخفاقاتهم في قيادة منظمة الطلاب العرب، حتى خروجهم من حلبة هذه المنظمة في العام ١٩٦٣. ولم يشر إلى دور العراق في الوقوف إلى جانب سوريا في حرب تشرين، وإسهام العراق في حماية دمشق، وحتى عندما ذكر طارق عزيز وزير خارجية العراق أطلق عليه «وزير خارجية صدام حسين».

رابعاً: قادة الصف الأول لحركة فتح قادمون من عالم الحراك السياسي والفكري

يشير «نبيل علي شعث» إلى أنه بعد النكبة بدأ توجه الشباب الفلسطيني الغاضب نحو الأحزاب العربية التي ترفع شعارات مختلفة، يحصرها في كل من: تنظيم الإخوان المسلمين، واليسار الماركسي الفلسطيني وحزب البعث العربي الاشتراكي.

وبعد انتصار مصر-عبد الناصر في مواجهة العدوان الثلاثي عليها في العام ١٩٥٦، باتت فكرة الكفاح المسلح لتحرير فلسطين مسيطرة على أفكار الشباب الفلسطينيين في مختلف مواقع الشتات، وكان هذا المناخ السياسي حافزاً لانطلاق تنظيمات فلسطينية مستقلة، وقد انبثقت فتح في هذه الفترة.

وبعد حرب تشرين في العام ١٩٧٣ ونتائجها السياسية، وتحول الرئيس السادات من تحالفه مع الاتحاد السوفيتي إلى التحالف مع أميركا، ونمو جبهة رفض عربية، وتبني القرار ٢٤٢ وما ينبثق عنه من اعتراف بإسرائيل والتخلي عن الكفاح المسلح، نشأ انشقاق عربي انعكس على الساحة الفلسطينية وأدى إلى ظهور تيار داخل حركة فتح، باعتباره تياراً يسارياً، مناوئاً للقيادة التي كانوا يرون فيها «اليمن» بسبب الأصول الإسلامية لبعض أعضائها.

خامساً: المثقفون يأخذون دورهم.. والثورة تطرح مناهج تعليمية مستقرة

يشير «نبيل علي شعث» إلى الحراك الثقافي والفكري والتربوي للشعب الفلسطيني على الساحة اللبنانية الذي بدأ يظهر فور امتلاك القيادة السلطة على المخيمات، بخاصة بعد اتفاق القاهرة. فقد كان هناك تعطش عند المثقفين الفلسطينيين والعرب للإسهام بعلمهم وبخبرتهم في تحقيق النجاح للثورة الفلسطينية «طليعة الثورة العربية». فكان هناك العديد من المؤسسات والمجلات والصحف والفعاليات والاتحادات النقابية، كما توفر المتنفس للكتاب والمفكرين والشعراء والفنانين وغير ذلك من مقومات وركائز المجتمع المدني.

وعندما نزل ياسر عرفات من جبل الشيخ إلى بيروت، وسيطرت الثورة على المخيمات، نظمت أمورها

المدنية والأمنية والتربوية والتعليمية... الخ. وإنه من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الفلسطينيين في تلك الحقبة تمكنوا من بناء "فلسفة التربية للشعب العربي الفلسطيني"، وطرحوا مشروعات "تربوية-تعليمية" لأطفال المخيمات الفلسطينية ومعهم فقراء السوريين واللبنانيين، وتم إعداد كتب الأطفال وملصقاتهم التي استمرت خلال الفترة (١٩٧٢-١٩٩٤).

وقد جاء ذلك كله بعد أن تقلص نفوذ "المكتب الثاني" اللبناني على الفلسطينيين في الساحة اللبنانية، وفي ذلك إشارة إلى قدرة الشعب الفلسطيني على تفعيل وتوظيف الإمكانيات الحضارية والمعرفية والثقافية الكامنة فيه، والتي توارثها جيلاً بعد جيل وهو على أرضه التاريخية.

سادساً: سبع سنوات من الحروب والمذابح

بعد أن وضعت حرب تشرين (التحريرية) أوزارها، وبعد أن حصلت منظمة التحرير الفلسطينية على إقرار عربي (بالإجماع) على تمثيلها للشعب الفلسطيني، وما تلاه من انتصار (دبلوماسي) في الأمم المتحدة حققه ياسر عرفات بخطابه الشهير في أواخر العام ١٩٧٤، والذي أشرف على صياغته وتحريره نخبة من مفكري ومثقفي الشعب الفلسطيني... بعد ذلك كله، بدأ أعداء الشعب الفلسطيني وأعداء ثورته وتحرره، يخططون للانقضاض عليه، بل للقضاء عليه قضاءً مبرماً. فكانت حقبة (١٩٧٥-١٩٨٢) التي خصص لها "نبيل علي شعث" مساحة على مدى (١١٠) صفحات الأكثر حلقة وسواداً في تاريخ الثورة الفلسطينية، منذ شباط من العام ١٩٧٥ حتى مغادرة ياسر عرفات وقوات الثورة بيروت في العام ١٩٨٢، ومما جرى فيها:

تعتمد الميليشيات اللبنانية المدعومة من "إسرائيل" افتعال المناوشات والمعارك مع الفلسطينيين بدءاً بقيام مسلحي حزب الكتائب، بتاريخ ١٣/٠٤/١٩٧٥، اعتراض حافلة للفلسطينيين العائدين من مخيم تل الزعتر إلى بيتهم في مخيمي صبرا وشاتيلا وقتل جميع ركابها البالغ عددهم ٣٠ شخصاً.

في ٠٦/١٢/١٩٧٥، وهو ما يُعرف بالسبت الأسود، نفذت ميليشيا حزب الكتاب مذبحه بحق المئات من المسلمين على الهوية: اللبنانيين والفلسطينيين؛ فانقسمت بيروت، ولبنان معها، إلى منطقتين: الشرقية وأغلبها مسيحيون، وغربية مختلطة مع أكثرية إسلامية.

في ١٨/٠١/١٩٧٦، قامت الميليشيات المسيحية باقتحام الكرتينا وقتلت ١٥٠٠ من سكانها (أكراد، وفلسطينيون ولبنانيون من الشيعة). فردت الميليشيات الفلسطينية باقتحام بلدة الدامور المسيحية وقتلت ما لا يقل عن (٢٠٠) ممن بقي من أهلها.

اشتعلت الحرب الأهلية اللبنانية، وبدأ الناس بالهروب، كل باتجاه منطقة سيطرة طائفته، وانقسم لبنان إلى قوتين: جبهة تزعمها حزب الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار، وغيرهما من المنظمات

والأحزاب والتيارات المسيحية. وفي الجانب الآخر الحركة الوطنية اللبنانية التي تشكلت من الأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية بقيادة كمال جنبلاط، والتي تحالفت مع منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات، وفي نيسان ١٩٧٦ سيطر التحالف اللبناني-الفلسطيني على حوالي ٧٠٪ من لبنان.

دخل النظام السوري على الخط، فوجه حافظ الأسد تهديدات جادة بالقتل إلى كمال جنبلاط لتحالفه مع الفلسطينيين، وتم تنفيذ عملية القتل فعلا بعد مغادرة جنبلاط دمشق في ١٦/٠٣/١٩٧٦. وبعد أن وجد الأميركيون أن الحل الوحيد للحفاظ على التوازن لصالحهم في لبنان هو التدخل السوري^٢، دخلت القوات السورية إلى لبنان في حزيران ١٩٧٦، بمئات المدرعات والدبابات و(٤,٠٠٠) جندي. فبطش النظام السوري بلبنان ومدنه وقراه، كما بطش مؤسساته وشخصياته الوطنية والدينية. استغلت الكتائب الاجتياح السوري للهجوم على تل الزعتر، ونفذت مذبحة هناك في ١٢/٠٨/١٩٧٦، كان نتيجتها استشهاد (٢,٠٠٠) فلسطيني (وهناك من يقول (٣,٠٠٠)).

مع بدء العام ١٩٧٨، حيث أصبح بيغن رئيس الحكومة الإسرائيلية، احتدم الصراع السياسي مع إسرائيل التي سعت إلى توسيع الشريط الحدودي مع لبنان الذي يحكمه سعد حداد، وعزل المقاومة. في ١١/٠٣/١٩٧٨ تمت عملية كمال عدوان بقيادة دلال المغربي، على الشواطئ الفلسطينية، أوقعت مئات الإصابات في صفوف جنود الاحتلال (الإسرائيلي)، واستشهد أفراد العملية بالاعتقال المباشر من الجنود. فردت "إسرائيل" على ذلك باجتياح لبنان تحت إسم "عملية الليطاني"، كان نتيجتها تحول (٢٨٥,٠٠٠) لبناني إلى لاجئين، واستشهاد (١١٠٠-٢٠٠٠) لبناني من المدنيين.

في العام ١٩٨١ وعندما أعيد انتخابه رئيساً للحكومة مرة أخرى، أخذ بيغن يخطط مع شارون وزير دفاعه، لغزو لبنان مرة أخرى؛ لطرد منظمة التحرير الفلسطينية منها، وشرعوا بإشغال المناطق الحدودية اللبنانية بقصف متكرر، أدى في تموز/ ١٩٨١ إلى إيقاع (٢٠٠) شهيد و(٨٠٠) جريح.

في كانون الثاني من العام ١٩٨٢، التقى شارون مع "بشير الجميل" على متن سفينة قبالة السواحل اللبنانية وناقشا خطة تقتضي وصول القوات الإسرائيلية إلى مشارف بيروت، ومحاصرة بيروت الغربية فيما تقوم ميليشيات القوات اللبنانية باقتحامها والقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية. في ٦ حزيران من العام ١٩٨٢، انطلق الغزو الإسرائيلي للبنان، ووصل إلى بيروت التي صمد فيها (١٠,٠٠٠) مقاتل فلسطيني ولبناني لمدة (٨٠) يوماً في مواجهة الجيش الإسرائيلي بكل إمكانياته العسكرية براً وجواً وبحراً.

بعد أن قطعت "إسرائيل" الماء والكهرباء عن بيروت، ولأن أبو عمار كان يدرك أنه لن يستطيع مواجهة الحصار إلى الأبد، وبعد أن صمد (٨٨) يومًا، وقاد صمود الشعب الفلسطيني واللبناني، ولأن صبر مضيفه بدأ ينفد، كان عليه أن يحاول الخروج بسلامة وكرامة، ويضمن استمرار الثورة، وأن يفتح بابًا للتفاوض يمكن أن يؤدي إلى العودة إلى فلسطين الحرة المستقلة. ورغم تلك الأجواء من الهدوء، قامت "إسرائيل"، في ١٢/٠٨/١٩٨٢، بعملية مباغته قامت خلالها بقصف بيروت على مدى عشر ساعات متواصلة.

في ١٩/٠٨/١٩٨٢ بدأت "إسرائيل" في تخفيف الحصار عن بيروت، ووافقت على خروج المقاتلين (الفلسطينيين) بأسلحتهم الفردية تحت حماية دولية. في ٢١/٠٨/١٩٨٢ بدأ المقاتلون بالمغادرة وتوزعوا على عدد من الدول العربية، وفي ٣٠/٠٨/١٩٨٢ توجه ياسر عرفات إلى ميناء بيروت وأخذ وقته مع مودعيه حتى قيل "إنه أتى إلى الميناء لوداع القيادات اللبنانية المسافرة بينما هو باقٍ في بيروت! فغادرها إلى أثينا ثم إلى تونس.

سابعاً: ياسر عرفات القائد المطاع

كانت المرة الأولى التي قابل فيها "نبيل علي شعث" ياسر عرفات الذي يكبره بتسع سنوات، في العام ١٩٤٨ وهو بعمر عشر سنوات، وبتوضيح من والده أصبح مشبعاً بفكرة "الرئيس ياسر عرفات"، وظل يناديه بالختيار، والوالد، و"أبو عمار"، ولم يعامله أبداً مثل الأخ أو الزميل؛ معاملة الند للند، ظل له أباً وقائداً منذ أول لقاء به (عام ١٩٤٨) حتى استشهاده (عام ٢٠٠٤).

لقد قاد ياسر عرفات الثورة الفلسطينية، منذ اللحظة الأولى التي قلب فيها اختصار حركة التحرير الوطني الفلسطيني من "حتف" إلى "فتح"؛ بمعنى إطلاق حركة وطنية تهدف إلى النضال حتى الانتصار وليس حتى الموت. ثم ينقل "نبيل علي شعث" عن ياسر عرفات أنه صاحب فكرة إطلاق الرصاصة الأولى، قبل أن يتوفر المال والسلاح المطلوبان، وقال لأبي يوسف النجار: نقوم بعملية عسكرية، فإذا نجحت تتبناها فتح، وإذا فشلت يكون الذين قاموا بها مجموعة من الشبان المتحمسين ليس أكثر.

كانت الرصاصة الأولى في الفتح من كانون الثاني من العام ١٩٦٥، وهو العام الذي كان الأخير لـ "نبيل علي شعث" في أميركا، وصلته في حركة فتح لا تزال بمستوى زهير العلمي الذي نظّمه في العام ١٩٦٠، ولم يستعد "نبيل علي شعث" دوره الفتحاوي إلا عند انطلاق العمل الفدائي الفلسطيني في الداخل ومعركة الكرامة في العام ١٩٦٨، وبالتحديد عندما توجه إلى هايل عبد الحميد معتمد حركة فتح في القاهرة وأبلغه برغبته الشروع في العمل، فشرع ينادي "نبيل علي شعث" بفكرة "العيش

المشترك على أرض فلسطين لمن يلتزم بدولة ديمقراطية تنبذ العنصرية والاحتلال والطرده القسري وتنتهي الاحتلال والهيمنة العسكرية".

تتسارع الأحداث، وفي ١٩٦٩/٠٤/٠١ انعقد المجلس الوطني الفلسطيني، الذي شارك فيه "نبيل علي شعث" كشخصية مستقلة، ويصبح ياسر عرفات رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بدلاً من "يحيى حمودة". وفي العام ١٩٦٩ أرسله ياسر عرفات إلى اليونان للدفاع عن أبناء الجبهة الشعبية الذين اختطفوا طائرة إسرائيلية في أثينا، ثم توالى التكيلفات إلى لندن وهولندا وغيرهما، وتكليفه بتمثيل منظمة التحرير الفلسطينية في لوزاكا في مؤتمر القمة الثالث في أيلول من العام ١٩٧٠، ثم تكليفه من قبل ياسر عرفات في رئاسة المؤتمر الحركي الثالث في دمشق ١٩٧١، وفي العام ١٩٧٣ يشارك ياسر عرفات إلى مؤتمر قمة عدم الانحياز في الجزائر.

ولعل ذروة علاقة "نبيل علي شعث" مع ياسر عرفات كانت في "النصف الثاني من آب من العام ١٩٧٤"؛ حيث قابلته في مكتبه في الفاكاهاني. وعندما طلب منه التوجه إلى الأمم المتحدة، وأبدى "نبيل علي شعث" التردد قال له ياسر عرفات: خايف زيهم؟ ما حد منهم مستعد يروح. والمقصود هنا أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وهنا، انضبط "نبيل علي شعث" أمام تعليمات وأوامر قائده الذي قال له: أرسل حكيمًا ولا توصه؛ وفي ذلك إشارة إلى نظرة الاحترام والثقة التي ينظرهما ياسر عرفات اتجاه "نبيل علي شعث"، الذي أتقن مهمته في الإعداد والاستعداد للخطاب الشهير الذي ألقاه ياسر عرفات في الأمم المتحدة، والذي شكل انعطافة مهمة في مسار الثورة ومسيرتها، على مستوى الحضور على الساحة الدولية، رغمًا عن أنف إسرائيل وقادتها والتهديدات بقتل كل قائد فلسطيني يصل إلى نيويورك.

ويرى "نبيل علي شعث" أن ما تم إنجازه لصالح القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة، لا يعود فقط لمهارة الفلسطينيين و"كاريزما" قائدهم، ولكن جزءًا كبيرًا من الفضل يعود لنصر حرب تشرين الذي غير موازين القوى بين العرب و"إسرائيل"، وأثبت أن العرب قادرون على التوحد واستخدام "سلاحهم البترولي" عندما يقررون. لقد ذهب الفلسطينيون إلى هيئة أمم متحدة مختلفة عن تلك الهيئة التي أصدرت قرار التقسيم وقبلت "إسرائيل" عضوًا في الفترة ١٩٤٧-١٩٤٩. تغير أعضاؤها وانقلبت موازينها، وأصبح إنهاء الاستعمار والعنصرية هدف الجزء الأكبر من أعضائها، ولم تعد أميركا وأوروبا قادرتين على تسييرها كما يشاؤون.

لعله من الطريف الإشارة إلى الحادثة التالية التي أوردتها "نبيل علي شعث" في سيرته هذه، والتي تتلخص بأن أبلغ كل من "نبيل علي شعث" نفسه وأبو اللطف وسعدات حسن، كل على انفراد

وبسرية تامة مهمة مقابلة السيدة ماركوس، ففوجئ كل منهم بالاثنين الآخرين عند باب المصعد المؤدي إلى سكن السيدة ماركوس الرئيسة الفلبينية التي أرادت من ياسر عرفات التوسط لدى "نوار المورو" المسلم، لإقناعهم بالتوقف عن ثورتهم على الحكومة الفلبينية. ويعلق "نبيل علي شعث" على ذلك بالقول: لقد أبلغ أبو عمار كلا منا بسرية المهمة، للتأكد من قيامنا بها، وليستخدمنا كعادته في الرقابة بعضنا على بعض.

وفي إشارة إلى إنسانية ياسر عرفات ودمائه يورد "نبيل علي شعث" كيف استقبله في بيروت بعد إنجازات الأمم المتحدة: "كما يستقبل الأب ابنه العائد ناجحًا من الجامعة"، وأخذه معه لحضور اجتماع اللجنة المركزية ثم اللجنة التنفيذية للمنظمة، وإلى القيادة العامة لقوات العاصفة، وإلى القواعد في الجنوب، وإلى السهرة السياسية في بيت سامي العلمي، وفي بيت عبد المحسن قطان، وإلى حفل تكريم مناسبة إنجاز ياسر عرفات في الأمم المتحدة أقامه على شرفه السفير الهندي في بيروت. وفي العام ١٩٧٦، وعندما عرف ياسر عرفات بقرار "نبيل علي شعث" مغادرة بيروت، حاول بكامل جهده إقناعه بالتراجع، وكان ياسر عرفات يعتمد على "نبيل علي شعث" لمرافقته في لقاءاته ومهرجانات الحركة وأسفاره، ويجلسه إلى يمينه، ويغرقه بحنانه وتقديره العلني في كل مكان.

ختامًا،

هذه هي سيرة حياة "نبيل علي شعث" التي يتوقف فيها عند العام ١٩٨٢. وكل من يقرأها ويمعن القراءة يخرج مجموعة من القضايا والمفاهيم والأحداث والبيانات والبيانات التي تميز بها "نبيل علي شعث" دون سواه، والتي تضاف إلى ما أدلى به قادة شعبنا وثورتنا من شهادات حول نفس الحقبة الزمنية وما دار فيها من أحداث، بخاصة على الساحة اللبنانية. وأما المشترك بين أولئك جميعًا فهو: إن ثورتنا حظيت بالقائد ياسر عرفات؛ صاحب "الكاريزما" التي وضعت فلسطين وقضية شعبها في المحافل الدولية كافة، كما مكنته من الصعود فوق الأمواج العاتية، وتجاوز أكبر المحن خطورة على الثورة الفلسطينية.

وسنبقى بانتظار استكمال "نبيل علي شعث" لسيرته في الحقبة الزمنية التالية؛ لأن الأجيال الفلسطينية بحاجة ماسة إلى استكشاف ماضي وسير الآباء والأجداد، بما يسعفهم في التخطيط لمستقبلهم، لأن الماضي هو مرآة المستقبل والمؤشر إليه.

الهوامش

١) انضم خليل الوزير إلى جماعة الاخوان المسلمين، وتدرّب في المجموعة العسكرية التي شكلها الإخوان المسلمون، وتدرّب في مجموعة عسكرية تحت إسم «كتيبة الحق»، ونجح مع مجموعة من: محمد الإفرنجي، وحمد العايدي وعبد الله صيام، في زرع عبوة ناسفة تحت خزان زوهر القريب من الحدود مع غزة في ١٩٥٥/٠٢/٢٥ (ص: ١٥٥). وفي تلك الأيام ولدت فكرة حركة فتح، وفي ١٩٥٧/١٠/١٠ في الكويت انعقد الاجتماع التأسيسي لحركة فتح شارك فيه ياسر عرفات وخليل الوزير وآخرون (ص: ١٥٥-١٥٦). ثم انطلقت فتح في فيينا عام ١٩٦٠، وفي الكويت انعقد مؤتمرها ١٩٦٢، وفي دمشق عام ١٩٦٣، ولكن المؤتمر الأول المعترف به كان في العام ١٩٦٤ (ص: ١٥٧-١٥٨).

٢) انطلقت منذ العام ١٩٥٤، وفي العام ١٩٦٠ كان تنظيم البعث راسخاً وقويّاً، وكان غير البعثيين الذين يرغبون في الترشح لمنظمة الطلبة العرب في الولايات المتحدة يلتحقون بقائمة البعث التي كانت تضم بعض المستقلين (ص: ١٤٤).

٣) يقول «نبيل علي شعث»: لا أنسى ما قاله هنري كيسنجر لي وللرئيس أبو عمار في أثناء زيارته الوحيدة لرام الله بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية: (عندما عجزنا عن هزيمتكم فاجانأكم بإرسال حافظ الاسد وقواته). واستمر قائلاً: (لا أعتقد أنكم توقعتم ذلك).

٤) يرى «نبيل علي شعث» أن فتح تأسست في العام ١٩٥٧، وانطلقت بعملياتها في العام ١٩٦٥، لكن الانطلاقة الحقيقية في ٢١ آذار ١٩٦٨؛ يوم الصمود الفلسطيني في معركة الكرامة، الذي أدى إلى التحاق الآلاف من الشباب الفلسطينيين والعرب بحركة فتح (ص: ٢٥٢).

٥) تم تشكيل لجنة لصياغة هذا الخطاب، برئاسة ياسر عرفات، وعضوية كل من: ابو اياد/ابو جهاد/ابو السعيد/ ابو اللطف/ ومحمود درويش/د.صلاح الدباغ، ودعا أعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة للمشاركة حينما يشاؤون (ص: ٤٠٤)، وتم ترجمة الخطاب للغتين الإنجليزية (تابعها د. إدوارد سعيد) والفرنسية (تابعها هالة سلام حرم د. كلوفيس مقصود (ص: ٤٠٣-٤٠٤).

١٩٤٨ .. حين سرق الاحتلال كتب الفلسطينيين ومكتباتهم أيضاً

بديعة زيدان

”وداعاً كتبي .. وداعاً يا دار الحكمة، يا معبد الفلاسفة، يا معهد العلم، وأكاديمية الأدب .. كم سهرت معكم، أقرأ وأكتب، في هدأة الليل، والناس نيام .. وداعاً يا كتبي .. لا أعلم ما جرى لكم بعد أن افترقنا: هل نهبتم؟ .. هل أحرقتم؟ .. هل نقلتم بكل احترام إلى مكتبة عامة أو خاصة؟ .. هل أخذتكم الأيام إلى البقالين، واصبحت صفحاتكم تلف البصل؟“ .. بهذه العبارات للمربي والكاتب والباحث الفلسطيني خليل السكاكيني، قررت الانطلاق إلى دراسة حول سرقة العصابات الصهيونية، ثم ما عرف بعدها بـ”دولة إسرائيل“ للمكتبات العامة والخاصة الفلسطينية بعد موجات التهجير القسرية في العام ١٩٤٨.

وأبدأ بشهادة الكاتبة غادة الكرمي حول سرقة الكتب من منزل السكاكيني في الجانب الغربي من القدس، أو ما اصطلح على تسميته بـ”القدس الغربية“، واحتل في العام ١٩٤٨ .. وقالت ابنة الحي ذاته: بيت خليل السكاكيني يتحول إلى مؤسسة إسرائيلية، هو الذي كتب يوميات رائعة تعود إلى فترة قصيرة بعد وعد بلفور العام ١٩١٧، وهو وغيره ساهموا في نهضة ثقافية في فلسطين طفت ملامحها على السطح منذ عشرينات القرن الماضي.

وتابعت بسرد حكايتها الشخصية ومكتبة والدها: بعد العام ١٩٤٦، وحين فجر الإرهابيون اليهود فندق الملك داود، استهدفت منطقتنا، نحن في القطمون، والطالبية، والبقعة، وغيرهما .. وعندما دخلنا العام ١٩٤٨، اشتد شعورنا بالخوف.

وتذكرت خلال مشاركتها في الفيلم الوثائقي ”السرقة الكبرى للكتب“ للمخرج بيني برونر، ومع دخولها لمنزلها الذي هجرت منه وأسرتها: عشت في هذا المنزل حتى سن الثامنة، حين أجبرنا على الرحيل في العام ١٩٤٨ .. كانت تفضل دخول المنزل، والقيام بجولة فيه من الداخل، لكن مالكة

الإسرائيلي الحالي، إن جاز تسميته مالكا، لم يعطها الإذن بذلك.

وقالت: كان والدي جامعاً للكتب من فرط حبه لها، وكان قد بدأ بتأليف معجم إنكليزي عربي .. قد يبدو الأمر عادياً اليوم، لكنه لم يكن عادياً في ذلك الوقت، فقلة قليلة هم من كانوا يكتبون على تأليف المعاجم، فكل من حاول أن يفعل شيئاً من هذا كان عليه أن يدرك حجم الجهد الكبير الذي سيبدله لتحقيق إنجازه .. كان قد قطع شوطاً في تأليف ذلك المعجم، ويعلم الله ماذا كان سيعنيه ذلك بالنسبة له، حين تركناه في العام ١٩٤٨ .. ترك كتبه، وترك المعجم الذي لم يكمله، كما تركنا كل شيء.

وبالعودة إلى السكاكيني، قال الروائي الفلسطيني علاء حليحل: السكاكيني رائد الحداثة دون منازع في التاريخ الفلسطيني، ففي القاهرة وبيروت ودمشق رأى كيف يعلمون الأطفال، وعندما عاد إلى فلسطين أنشأ المدرسة الدستورية، ليس فيها صفوف ولا امتحانات، بل تشجع التفاعل بين الطلاب والمعلمين، وكان يريد من تلاميذه أن يكونوا فضوليين، وكان هذا في العام ١٩٠٤ إنجازاً غير مسبوق. ويشار بالذكر أن من أبرز مالكي الكتب أفراداً ومؤسسات: محمد إسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني، وهزري قطان، وحنا عطا الله، وعارف حكمت النشاشيبي، والمحامي ساعة، وفرنسيس خياط، وهاكوب مليكيال، وإميل صلاح، ويعقوب فرج، وفواز أبو رحمة، ويوسف هيكل، ومحمد الطيب الدجاني، وغيرهم، علاوة على المدرسة العمرية، وحي محطة المطار، ومؤسسات وأحياء أخرى.

شهادات أخرى

وقال الصحافي والمؤلف الفلسطيني ناصر النشاشيبي: معظم الأثاث سرق، وبينها كتيبي الخاصة، ولكن هذا لا يعد شيئاً بالمقارنة مع كنز الأدب الذي سرق من منزل عمي محمد إسعاف النشاشيبي، حيث المخطوطات النادرة، ونسخ المصحف، ويتساءل: ماذا حدث لكتبه؟ .. ماذا حدث لمكتبته الخاصة؟ .. أين هي ومن أخذها؟

وأضاف: مما سرق قطع نادرة من الشعر، ونسخة من القرآن الكريم كتبت بخط اليد، ومزخرفة بالذهب .. أعتقد أن من ذكر ذلك لي أستاذ في الجامعة العربية .. قال لي إنه يعرفني وأسرقي، وإن لديه بعض كتيبي، وهو ما أثار استهجاناً، فأشار إلى أنها بعض كتيبي التي نهب من بيتي، وحيء بها إلى الجامعة العبرية .. رأيت بعضها، وكان أحدها عليه إهداء ”إلى الأديب العالم ناصر النشاشيبي“، كان كتاب ”المكرميّات“ وهو عبارة عن مجموعة من خطب وبيانات ومقالات لمكرم عبيد باشا، ومؤلفه أحمد كاظم جودة، وكان من بين الكتب التي أفتقدتها لأنني أحب الكتاب حقاً .. هناك ما يزيد عن المائة مثل هذه الكتب لي ولغيري .. كتب موجودة في مكتبة الجامعة العبرية، والمكتبة الوطنية.

وقال الكاتب محمد بطراوي في شهادة له: في التاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٤٨، جاء ضابط

في جيش الاحتلال، وقال إنه الحاكم العسكري لأسدود .. حينما أتوا طلبوا من الناس أن يخرجوا من منازلهم .. تجمعنا في السوق، ثم عزلوا النساء والأطفال، قبل طردهم إلى المجدل وعسقلان وغزة، ووضعوا الشباب في مكان آخر، قبل أن ينقلونا إلى صرفند .. كنت مع مجموعة من الأسرى تسمى "المجموعة ٣٧"، وكان رقمي "٦٧٠٤" .. كنا نذهب إلى البيوت العربية، ونأخذ بعض الأشياء منها. وأضاف: أخذونا إلى الرملة لعدة أيام، نعمل من بيت لبيت، ونأخذ ما سُئنا من البيوت، وعندما تأتي سيارة نضع ما جمعناه من الأثاث، ونحن أسرى، فيها .. لا يهتمون لكيفية وضعنا إياها، ولهذا كنت أعتقد أنهم كانوا يريدون التخلص منها، وليس لأخذها إلى مكان آخر .. بعض تلك الأشياء كانت الكتب. وتابع بطراوي: كانوا يجبروننا على حمل الكتب التي جمعناها من منازل الفلسطينيين المهجرين إلى شاحنة صغيرة، وينتقلون بنا من بيت لبيت، في هذا نجد العشرات، وفي ذلك مائة كتاب، وفي بعض المنازل كتابين أو ثلاثة .. كنا نجبر على وضعها في "كومات"، وتأتي شاحنة صغيرة وتأخذها إلى مكان نجهله بطبيعة الحال.

جريمة

المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه أشار بدوره إلى أن ما بين ٧٠ إلى ٧٥٪ من الفلسطينيين قبل النكبة، كانوا أغنياء بالمفهوم المادي، ولم يبق شيء لهم من ممتلكاتهم .. الحقيقة أن الإسرائيليين أخذوا كل شيء، لافتاً إلى أن "سرقه الممتلكات الروحية ومصادرتها في رأيي، لا تختلف عن سرقة الأرض والموارد الطبيعية وكل شيء، باستثناء شيء واحد ألا وهو الشعب نفسه. وأضاف: لا يهمني إن كانت الكتب محفوظة بشكل جيد أم لا، أم أنها مصنفة بشكل جميل، أو حتى إذا أسهمت في ثروة المعلومات .. ما حدث كان لدرح الرواية الفلسطينية، وكان ذلك جزءاً من النشاط المعرفي للمستشرقين الذي شيطن العرب، وشيطن الإسلام، وألقى بالفلسطينيين في عالم النسيان تماماً، وحاول محوهم من التاريخ .. ما حدث لا شك أنه جريمة.

عملية نهب متواصلة

وقال الباحث الإسرائيلي غيش عاميت، مؤلف كتاب "بطاقة ملكية"، وترجمه المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، العام ١٩١٥: عملية جمع الكتب وصلت إلى حي المصراة .. وجدت وثائق كثيرة بشأن هذه العملية، ولم أدرك أنني عثرت على شيء مهم إلا بعد قراءتي لمقال للمؤرخ توم سيغف (مؤرخ إسرائيلي)، يذكر فيها أحد أعضاء مجلس الوزراء عملية النهب المتواصلة التي يقوم بها المدنيون، وفي مقابل ذلك فريق من المكتبة الوطنية الإسرائيلية يفتني أثر الجنود، ويجمع الكتب من المنازل المهجورة.

وأضاف: بينما كانت أيام الحرب تسير، أدرك الجنود (يعني ميليشيات العصابات الصهيونية)، وموظفو المكتبات أن المنازل المهجورة كانت لا تحتوي على الأثاث، والأدوات الموسيقية، وأنايب المياه والسجاد فحسب، إنما على الكتب أيضاً، وهناك وثيقة تتحدث عن جمع الكتب من أحياء مهجورة في القدس قامت بها المكتبة الوطنية في الفترة ما بين أيار ١٩٤٨ إلى آذار ١٩٤٩.

وفصل: مسؤول عن جمع الكتب كتب تقريراً يقول فيه "كان الجنود هم أول من اكتشف الكتب، وسرعان ما ظهرت شبكة مخابرات في الوقت ذاته تربط الجنود بالمكتبة، وسرعان ما تكدست الطوابق .. نحن في المكتبة الوطنية لم نتمكن من إنقاذ جميع الكتب في الوقت المناسب، ومن يدري كم فقد من الكتب خلال عمليات انتقال ملكيتها غير الشرعية .. من الصعب تخمين كمية أو نوعية الكتب التي انتقلت من مالك لآخر بهذه الطريقة غير الشرعية".

وأشار عاميت إلى أنه "ما بين نيسان ١٩٤٨ وشباط ١٩٤٩، جمع موظفون في المكتبة الوطنية ثلاثين ألف كتاب من المنازل الفلسطينية المهجورة في القدس الشرقية .. كانت العملية مشتركة ما بين الجامعة العبرية والجيش (جيش الاحتلال)، كل أرقامها في الفهرس تبدأ بالحرفين (أ.م)، أي "أملاك مهجورة"، وتم تصويرها للمرة الأولى خلال بحث أولى في العام ٢٠٠٧، وكان عددها ٥٧٨٧ كتاباً. لافتاً إلى أنه "بعد ستين عاماً لا تزال الكتب تحمل الرمز ذاته، ولا تزال تحت الوصاية، ولا أحد يوحى بأنها ستعاد".

من داخل المكتبة الوطنية

وقال الموظف السابق في المكتبة الوطنية الإسرائيلية، أوري باليط: في العام ١٩٥٧، وعندما بدأت العمل كموظف في المكتبة الوطنية، بدأت في معالجة الكتب التي وصلت مع غنائم العام ١٩٤٨، والتي في أغلبها كتب جاءت من مكتبات شخصية .. للكتب العربية من العام ١٩٤٨ غرفة خزن خاصة نأخذ الكتب منها لنعالجها.

وأضاف: في اللحظة التي كان يتم فيها الاستيلاء على بيت في العام ١٩٤٨ (يعني المنازل المهجورة وتعود ملكيتها للفلسطينيين)، كان هناك نوعان من النهب، إن جاز التعبير، فهناك النهب الحزبي، وهناك النهب الفردي، حيث أخذ أناس من وحدات مختلفة ما كانوا يريدون إلى منازلهم، وربما إلى المكتبة إذا كان السائق أستاذاً جامعياً، وخلال ساعات قليلة يظهر "السارقون الرسميون" جميعاً.

وأشار باليط إلى أن الرمز "أ.م" كان يعني أن الكتب يجب أن تعاد، بمعنى أنها مودعة بشكل مؤقت في المكتبة الوطنية لأغراض البحث إلى حين إعادتها، مشدداً على أن هذه الكتب لم تسرق بل جمعت لكون أصحابها غائبين .. نعرف أن هذه الكتب ستعاد ذات يوم، وكان هذا واضحاً جداً لنا، فلم نخبئ شيئاً.

وتشير وثائق المكتبة إلى أنها قادرة على حفظ الكتب وإعادتها إلى مالكيها الحقيقيين، إن ظهر أولئك المالكون .. و"رغم أن هدفنا كان إنقاذ هذه الممتلكات الثقافية من الدمار فإننا لم نخف عن أي أحد أملاً في أن حصة من الكتب ربما حصة الأسد، قد تجد طريقها ذات يوم إلى المكتبة".

ويقول المحامي عزيز شحادة: أحببت عملي في فهرسة الكتب بالمكتبة الوطنية الإسرائيلية، وفقاً للموضوع، ووفقاً للمؤلف .. كانت هناك أعمال من الأدب القصصي العربي، وترجمات لكتب دينية، وكتب عن المتنبي وشعراء آخرين كبار من التاريخ العربي .. كتب مهمة حقاً.

وأصر شحادة على أن "المكتبة قامت بعمل جيد، فهي اعتنت بالكتب التي ما زالت موجودة إلى يومنا هذا، فلولاها لاختفت الكتب"، لكنه اعترف "رأيت المأساة الفلسطينية كلها تنحصر في هذه الكتب، فكان الناس يحبون مكتباتهم، وداخل الكتب تستطيع أن ترى ملحوظاتهم وبخط أيديهم.

حكايات أخرى حول نهب الكتب

ركزت الكتب المنهوبة من يافا في المكتبة التي أقيمت خصيصاً لهذا الغرض في حي جباليا (غفغات) عليه كما يطلق على المنطقة اليوم)، وفي ٩ كانون الأول ١٩٤٨ زار بن غوريون المدينة، بل واصطحبه مضيفوه إلى المكتبة العربية .. وكتب بن غوريون في مذكراته: زرت المكتبة العربية التابعة لدولة إسرائيل في يافا .. لقد جمعوا عشرات آلاف الكتب العربية .. لم يقوموا بعد بتصنيف الكتب، ولكنهم يواصلون التجميع.

بين أيار ١٩٤٨ وشباط ١٩٤٩ جمع في القدس نحو ثلاثين ألف كتاب مملكية فلسطينية خاصة، غالبيتها بالعربية، وبعضها بالانكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وجمعت أيضاً آلاف الكتب التي كانت تابعة لمؤسسات تربوية وكنائس، وكانت الكتب متنوعة ومختلفة ما بين القضاء الإسلامي، والشريعة الإسلامية، وتفسيرات القرآن، والأدب المترجم من لغات أجنبية، والقليل من الأدبيات العلمية، والتاريخ، والفلسفة.

في ٩ كانون الثاني ١٩٤٩، كتب "ضابط الحكم العسكري في المنطقة الجنوبية إلى زميله في المنطقة الشمالية"، أن "السيد شلومو شوهمي، ممثل المكتبة الوطنية الإسرائيلية، تلقى تصريحاً بجمع الكتب المتروكة (أي المنهوبة)، واتخاذ التدابير اللازمة كي توضع الكتب في عهدة الجامعة العبرية"، طالباً منه تسهيل مهمته.

وأشار رئيس المكتبة الوطنية وقتها كورت دافيد فورمن، إلى أنه تم إخراج نحو ألف كتاب من المدرسة السويدية في القدس تتناول اللاهوت المسيحي وقضايا أرض إسرائيل، وبعضها كتب تدريسية، ونحو ٥٠٠ كتاب من المخازن المجاورة لكنيسة القديس بول غالبيتها الساحقة بالانكليزية، وتتناول أبحاثاً

في التوراة ومسائل في المسيحية .. وفي حزيران ١٩٤٩ أرسلت المكتبة الوطنية الإسرائيلية رسالة شكر إلى جيش الاحتلال وعدد من وزارات حكومة إسرائيل.

وبعد منح بيت الكتب القومي اليهودي الحق بجمع المكتبات المتروكة في المناطق المحتلة، والبدء بعملية واسعة في الأحياء العربية في القدس، جمع خلال فترة وجيزة تسعة الاف كتاب.

وكان شلومو شومني نشر مقالاً العام ١٩٥٨، جاء فيه ”أثناء حرب التحرير نفذت عملية إنقاذ (تزوير للحقائق، فهي عملية نهب) لكتب في القدس، وبعدها في أماكن أخرى أيضاً، وفي الأحياء العربية المتروكة .. وقام عاملو المكتبة برفقة عمال الجامعة العبرية بمسح المناطق المتاخمة للحدود معرضين حياتهم للخطر، وهو جموا أكثر من مرة بصليات رصاص الفيلق العربي، ونجوا بأعجوبة“.

وأودعت غالبية كتب الفلسطينيين التي نُهبت من البيوت الخاصة والمؤسسات في قسم الشرق التابع للمكتبة الوطنية، وتأسس هذا القسم العام ١٩٣٠ ليكون مكتبة بحثية في معهد علوم الشرق في الجامعة العبرية، وضم العام ١٩٤٦ نحو ٣٠ الف كتاب بالعربية، وفي العام ١٩٥٠ كان القسم يحتوي على نحو ٣٦ الف كتاب، ما شكل ارتفاعاً كبيراً كان أحد مصادره كتب الفلسطينيين التي نُهبت إثر النكبة أو الاحتلال في العام ١٩٤٨.

ومن المرجح أن الكتب التي نُهبت من أحياء غرب القدس جلبت في البداية إلى مكتبة الوصي في القدس، التي كانت تقع في الطابق الاول من منزل سكني جنوب مبنى جمعية الشبان المسيحيين، حيث كانت المكتبة فرعاً لبيت الكتب القومي والجامعي اليهودي، مع الإشارة إلى أن المكتبة أقيمت فور انتهاء الحرب (أي العام ١٩٤٩) وأغلقت مع تدشين المكتبة الوطنية الإسرائيلية العام ١٩٦٠، ويقدر أنها كانت تحتوي قبل هذا التاريخ بأربعة أعوام على نحو ١٥ ألف كتاب.

ورغم أن تصنيف الكتب بدأ منذ العام ١٩٤٨، إلا أن غالبيتها بقيت في الأكياس لسنوات طويلة، ولم تدخل إلى فهرسة المكتبة إلا في ستينات القرن الماضي، فقد قال المحامي عزيز شحادة، وأشار إليه سابقاً على أنه كان المسؤول عن الفهرسة في المكتبة الوطنية الإسرائيلية: ”أذكر أكياس قمع كبيرة، وفيها كتب“، مضيفاً ”كانت الأكياس موضوعة وراء قاعة القراءة التابعة للقسم .. كنا نحصل على عشرات الأكياس، وأحياناً مئة منها، ونفهرسها.

حلول مقترحة

واقترح بابيه تأسيس متحف للنكبة في إسرائيل، وإيداع هذه الكتب فيها، بينما أشار شحادة إلى أن الحل قد يكون بتسليمها لجامعة النجاح أو جامعة بيرزيت، أو تقسيمها ما بين الجامعات الفلسطينية، لكن لا تزال هذه الكتب في المكتبات الإسرائيلية.

وسيبقى مهماً أن أشير إلى أن مجموعة كتب الفلسطينيين المنهوبة منذ العام ١٩٤٨ أو العام الذي يليه، ووفق الفهرسة الجديدة محيت العلاقة بينها وبين ملاكها الأصليين، رغم احتفاظها بالرمز "أم" أو (AP) بالانكليزية، هي مجموعة ليست مفتوحة أمام الجمهور، ولكي يتمكن المرء من الوصول إليها يجب الحصول على إذن من إدارة المكتبة.

وأختم بأنه من بين الخمسمائة كتاب الأولى المفهرسة من كتب الفلسطينيين المنهوبة، تظهر الآن كتب الأدب المترجم من الإنكليزية إلى العربية تحتل القسط الأكبر (١٥٢ كتاباً)، تليها كتب الحديث والشريعة وفلسفة العصور الوسطى بواقع (١٠٥ كتب)، وفق اللغة والخطابة (٨٨ كتاباً)، والعلوم الطبيعية والأحياء (٥٤ كتاباً)، والتاريخ العربي (١١ كتاباً)، والأناشيد (٥ كتب)، والشعر (٤ كتب)، والسير الذاتية (٣ كتب)، وكتب في مواضيع أخرى (٦٧ كتاباً)، وهذه التقسيمة لخمسمائة كتاب من أصل ٥٧٨٧ تحمل الرمز "أم" أي "أملاك مفقودة"، وهي بمعنى أدق "أملاك مسروقة"، ولا تزال في المكتبة الوطنية الإسرائيلية.

المصادر

١. الفيلم الوثائقي "السرقة الكبرى للكتب" للمخرج الهولندي الإسرائيلي بيني برون، إنتاج العام ٢٠١٢.
٢. كتاب "بطاقة ملكية: تاريخ من النهب والصون والاستيلاء في المكتبة الوطنية الإسرائيلية"، لغيش عميت، ترجمة: علاء حليحل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، رام الله ٢٠١٥.

وثائق

تقرير «الاسكوا» حول نظام الفصل العنصري الذي تؤسسه «إسرائيل» في الأراضي الفلسطينية المحتلة

في ١٥ آذار/ مارس ٢٠١٧، أصدرت اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا التابعة للأمم المتحدة (إسكوا)، تقريراً يتهم فيه إسرائيل بتأسيس نظام فصل عنصري يهدف إلى تسلط جماعة عرقية على أخرى. وقدم التقرير أدلة ومعطيات تؤكد فرض إسرائيل "نظام أبارتيد" على الفلسطينيين عبر تقسيمهم إلى أربع فئات تخضع كل فئة منها لمنظومة قوانين مختلفة.

إلا أن الأمانة العامة للأمم المتحدة، وبعد ضغوط شديدة مارستها الولايات المتحدة وإسرائيل، طلبت رسمياً من لجنة "الإسكوا" سحب التقرير.

وكان المتحدث باسم الأمم المتحدة ستيفان دوجاريك قال إن التقرير الذي قدمته لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (إسكوا)، نشر دون أي مشاور مسبق مع أمانة الأمم المتحدة، ولا يعكس وجهة نظر الأمين العام أنطونيو غوتيريش.

وعلى خلفية ذلك قدمت ربما خلف الأمانة التنفيذية للإسكوا استقالتها إلى الأمين العام للمنظمة الأممية، مؤكدة أنها لا تستطيع أن تخالف مبادئها الإنسانية وضميرها.

نورد فيما يلي ملخصاً شاملاً للتقرير ونص استقالة د. ربما خلف.

موجز تنفيذي

يخلص هذا التقرير إلى أن إسرائيل أسست نظام أبارتايد يهيمن على الشعب الفلسطيني بأجمعه. في الوقت الذي يدرك فيه مؤلفو هذا التقرير خطورة هذا الادعاء، يستنتجون أن الوقائع والأدلة تثبت، بما لا يدع للشك مجالاً، أن إسرائيل بسياساتها وممارساتها مذنبه بارتكاب جريمة الفصل العنصري (أبارتايد) كما تعرفها صكوك القانون الدولي.

ويستند التحليل في هذا التقرير إلى مضامين ومبادئ القانون الدولي لحقوق الإنسان ذاتها التي ترفض معاداة السامية وغيرها من إيديولوجيات التمييز العنصري، بما في ذلك: ميثاق الأمم المتحدة (١٩٤٥) والإعلان العالمي لحقوق الإنسان (١٩٤٨)، والاتفاقية الدولية للقضاء على التمييز العنصري بكافة أشكاله (١٩٦٥). ويعتمد التقرير في المقام الأول على تعريف الأبارتايد في المادة ٢ من الاتفاقية الدولية بشأن قمع جريمة الفصل العنصري ومعاقبة مرتكبيها (١٩٧٣):

عبارة «الفصل العنصري» [الأبارتايد]، التي تشمل سياسات وممارسات العزل والتمييز العنصريين المشابهة لتلك التي تمارس في الجنوب الأفريقي، تنطبق على الأفعال اللاإنسانية... المرتكبة لغرض إقامة وإدامة هيمنة فئة عرقية ما من البشر على أية فئة عرقية أخرى واضطهادها إياها بصورة منتظمة.

ومصطلح الأبارتايد ارتبط في الأصل بحالة محددة، هي حالة جنوب أفريقيا. إلا أنه أصبح يُطلق على نوع من أنواع الجرائم ضد الإنسانية بموجب القانون الدولي العرفي ونظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، الذي يُعرّف الأبارتايد بما يلي:

تعني «جريمة الفصل العنصري» [الأبارتايد] أية أفعال لا إنسانية... ترتكب في سياق نظام مؤسسي قوامه الاضطهاد المنهجي والسيطرة المنهجية من جانب جماعة عرقية واحدة إزاء أية جماعة أو جماعات عرقية أخرى، وتُرتكب بنيتة الإبقاء على ذلك النظام.

وينطلق هذا التقرير من الإجماع على أن لا استثناء في حظر الأبارتايد وأن انهيار نظام الأبارتايد في جنوب أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا (ناميبيا) لم يبطل ذلك.

ولا ينبغي الخلط بين المقاربة القانونية لقضية الأبارتايد التي اعتمدها هذا التقرير وبين الاستخدام السائد للمصطلح تعبيراً عن الإدانة والاستنكار. وقد تبرر ظروف وسياقات معينة التعامل مع مسألة الأبارتايد على أنها أعمال وممارسات منفصلة (مثل جدار الفصل العنصري)، أو ظاهرة تولدها ظروف بنوية مُغلقة كالرأسمالية (أبارتايد اقتصادي)، أو سلوك اجتماعي خاص من جانب بعض الجماعات العرقية تجاه جماعات عرقية أخرى (عنصرية اجتماعية). غير أن هذا التقرير يتمسك بتعريف للأبارتايد كما يرد في القانون الدولي، والذي يُحمل في طياته مسؤوليات على الدول، كما تنص عليها الصكوك الدولية.

ويسترشد اختيار الأدلة بالاتفاقية الدولية لمناهضة الأبارتايد، التي تنص على أن جريمة الأبارتايد تتكوّن من أفعال لاإنسانية منفصلة، لكنها تشير إلى أن هذه الأفعال لا تكتسب صفة جرائم ضد الإنسانية إلا إذا تعمدت خدمة غرض الهيمنة العرقية. ويحدد نظام روما الأساسي في تعريفه وجود «نظام مؤسسي» يخدم «مقصد» الهيمنة العرقية. وبما أن الـ «الغرض» والـ «المقصد» يقعان

في صميم كلا التعريفين، يبحث هذا التقرير في عوامل تبدو في ظاهر الأمر منفصلة عن البعد الفلسطيني، وخاصة مبدأ الدولة اليهودية كما يعبر عنه القانون الإسرائيلي وتصميم مؤسسات الدولة الإسرائيلية، ليثبت، بما لا يدع مجالاً للشك، وجود الغرض والمقصد.

ويجد التقرير النظام الإسرائيلي مصمماً لهذا الغرض بشكل جليّ في مجموعة القوانين الإسرائيلية. ويتناول التقرير بعضها فقط لضيق نطاق البحث. ومن أهم الأمثلة على ذلك سياسة الأراضي. فالقانون الأساسي (الدستور) الإسرائيلي ينص على أنه لا يجوز بأي شكل من الأشكال نقل الأراضي التي تحتفظ بها دولة إسرائيل أو هيئة التطوير الإسرائيلية أو الصندوق القومي اليهودي، ما يضع إدارة هذه الأراضي تحت سلطة هذه المؤسسات بصورة دائمة. وينص قانون ممتلكات الدولة لعام ١٩٥١ على أن الحق المستقبلي في الممتلكات (هما في ذلك الأراضي) يعود إلى الدولة في أي منطقة "ينطبق عليها قانون دولة إسرائيل". وتدير سلطة أراضي إسرائيل أراضي الدولة، التي تمثل ٩٣ في المائة من الأراضي ضمن حدود إسرائيل المعترف بها دولياً، وهي، قانوناً، مُحرّم استخدامها أو تطويرها أو امتلاكها على غير اليهود. وهذه القوانين تجسّد مفهوم "الغرض العام" كما يرد في القانون الأساسي الإسرائيلي. ويمكن تغيير هذه القوانين بالتصويت في الكنيست. لكن "القانون الأساسي: الكنيست" ينص على أنه يحظر على أي حزب سياسي الطعن في ذلك الغرض العام. هكذا يجعل القانون الإسرائيلي معارضة الهيمنة العرقية غير قانونية فعلاً.

وتمثل الهندسة الديمغرافية مجالاً آخر حيث تخدم السياسات غرض الحفاظ على إسرائيل دولة يهودية. وأشهر قانون في هذا الصدد هو قانون العودة الذي يمنح اليهود، أياً يكن بلدهم الأصلي في جميع أنحاء العالم، حق دخول إسرائيل والحصول على الجنسية الإسرائيلية وبصرف النظر عما إذا كان بوسعهم تبيان صلات بالأرض، في حين يُحجب عن الفلسطينيين أي حق مماثل، بما في ذلك من في حوزتهم وثائق تثبت وجود منازل عائلاتهم التي تعود لأجيال في البلاد. والمنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية مخولتان بسلطة قانونية، كوكاليتين لدولة إسرائيل، لتيسير الهجرة اليهودية وتخدمان مصالح المواطنين اليهود بشكل تفضيلي في مجالات شتى كاستخدام الأراضي والتخطيط العمراني العام وغيرها من المجالات التي تعد حيوية للدولة اليهودية. وتستخدم في بعض قوانين الهندسة الديمغرافية لغة مبطنة، بحيث تسمح للمجالس البلدية اليهودية برفض طلبات الإقامة لمواطنين فلسطينيين. ويسمح القانون الإسرائيلي عادة لأزواج المواطنين الإسرائيليين بالانتقال إلى إسرائيل، ولكنه يستثني الفلسطينيين من الأرض المحتلة أو خارجها من هذا الإجراء. وعلى نطاق أوسع، تعتمد إسرائيل سياسة رفض عودة أي فلسطيني من اللاجئين والمنفيين قسراً (ومجموعهم حوالي ستة ملايين) إلى أراضٍ تقع تحت السيطرة الإسرائيلية.

وليُعتبر أي نظامٍ للهيمنة العنصرية المنهجية نظام أبارتايد، لا بدّ من أن تتوفر فيه صفتان إضافيتان. الأولى تقضي بتحديد الأشخاص المضطهدين على أنهم ينتمون إلى "جماعة عرقية". يُحاجج هذا التقرير بأنه في السياق الجغرافي السياسي لفلسطين، يمكن اعتبار اليهود والفلسطينيين "جماعتين عرقيتين" انطلاقاً من تعريف الاتفاقية الدولية للقضاء على التمييز العنصري بكافة أشكاله لعبارة "التمييز العرقي" على أنها تعني "أي تمييز أو استثناء أو تقييد أو تفضيل يقوم على أساس العرق أو اللون أو النسب أو الأصل القومي أو الاثني ويستهدف أو يستتبع تعطيل أو عرقلة الاعتراف بحقوق الإنسان والحريات الأساسية أو التمتع بها أو ممارستها، على قدم المساواة، في الميدان السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو في أي ميدان آخر من ميادين الحياة العامة". وعلاوة على ذلك، فإن الاتفاقية الدولية للقضاء على التمييز العنصري بكافة أشكاله مشار إليها صراحة في الاتفاقية الدولية لمناهضة الأبارتايد.

أما الصفة الثانية فهي حدود وخصائص الجماعة أو الجماعات قيد البحث. وقد أرسى وضع الفلسطينيين كشعب له الحق في تقرير المصير على أعلى مستوى من الشرعية في الرأي الاستشاري الذي أصدرته محكمة العدل الدولية في عام ٢٠٠٤ عن الآثار القانونية الناشئة عن تشييد جدار في الأرض الفلسطينية المحتلة. وعلى ذلك الأساس، يبحث التقرير معاملة إسرائيل للشعب الفلسطيني بأسره، معتبراً أن ظروف التجزئة الجغرافية والقانونية للشعب الفلسطيني هي وضع فرضته إسرائيل. (يتناول المرفق الثاني مسألة التحديد الصحيح لـ "البلد" المسؤول عن إنكار الحقوق الفلسطينية بموجب القانون الدولي).

ويستنتج هذا التقرير أن استراتيجية تفتيت الشعب الفلسطيني هي الأسلوب الرئيسي الذي تفرض إسرائيل به نظام الأبارتايد. والتقرير يبحث أولاً كيف أدى تاريخ الحروب والتقسيم والضم الرسمي وبحكم الواقع والاحتلال المديد في فلسطين، ولا يزال يؤدي، إلى تقسيم الشعب الفلسطيني على مناطق جغرافية مختلفة تدار بمجموعات مختلفة من القوانين. وتعمل هذه التجزئة على تثبيت نظام الهيمنة العنصرية الإسرائيلي وإضعاف إرادة الشعب الفلسطيني وقدرته على مقاومة موحدة وفعّالة. وتستخدم إسرائيل أساليب مختلفة تبعاً لمكان عيش الفلسطينيين. وهذه هي الوسيلة الأساسية التي تفرض بها إسرائيل الأبارتايد وفي الوقت نفسه تحجب عن المجتمع الدولي الطريقة التي يعمل بها النظام ككل متكامل ليشكّل نظام أبارتايد.

ومنذ عام ١٩٦٧، يعيش الشعب الفلسطيني، وفقاً لما يرد في التقرير، في أربعة "فضاءات"، يُعامل فيها السكان الفلسطينيون معاملة مختلفة في الظاهر، لكنهم يتشاركون في الواقع اضطهاداً عنصرياً في ظل نظام الأبارتايد. وهذه الفضاءات هي:

- (١) القانون المدني، مقترناً بقبود خاصة، الذي يُطبَّق على الفلسطينيين الذين يعيشون كمواطنين في إسرائيل؛
- (٢) قانون الإقامة الدائمة الذي يطبَّق على الفلسطينيين الذين يعيشون في مدينة القدس؛
- (٣) القانون العسكري الذي يطبَّق على الفلسطينيين الذين يعيشون منذ عام ١٩٦٧ في ظل الاحتلال العسكري للضفة الغربية وقطاع غزة، ومنهم من يعيشون في مخيمات اللجوء؛
- (٤) السياسة التي تمنع عودة الفلسطينيين، سواء أكانوا لاجئين أم منفين يعيشون خارج المناطق الواقعة تحت سيطرة إسرائيل.

ويضم الفضاء الأول حوالي ١,٧ مليون من الفلسطينيين من مواطني إسرائيل. وقد عاش هؤلاء طوال الأعوام العشرين الأولى من وجود إسرائيل في ظل قانون عسكري، وهم حتى اليوم يتعرضون للاضطهاد لأنهم ليسوا يهوداً. وتتجلى سياسة الهيمنة تلك في تدني الخدمات وتقييد قوانين تنظيم الأراضي، ومحدودية مخصصات الميزانية للمجتمعات الفلسطينية؛ كما في فرض قيود على فرص العمل والتطور المهني؛ وكذلك في تجزئة الأماكن بين المواطنين من يهود وفلسطينيين. ويُسمح للأحزاب السياسية الفلسطينية القيام بحملات للمطالبة بإصلاحات طفيفة وميزانيات أفضل، ولكن يحظر عليها بموجب القانون الأساسي الطعن في التشريعات التي تديم النظام العنصري. وتتعرّز سياسة الحظر هذه بتبعات التمييز في إسرائيل بين "المواطنة" (ezrahut) و"القومية" (le'um)، إذ يتمتع كل إسرائيلي بالمواطنة، ولا يتمتع بالقومية أحد غير اليهود. فالحقوق "القومية" في القانون الإسرائيلي تعني الحقوق القومية اليهودية. وهكذا يعزل النظام كفاح مواطني إسرائيل الفلسطينيين لتحقيق المساواة والإصلاحات المدنية بموجب القانون الإسرائيلي عن كفاح الفلسطينيين في الأماكن الأخرى.

ويشمل الفضاء الثاني قرابة ٣٠٠,٠٠٠ فلسطيني يعيشون في القدس الشرقية، ويعانون التمييز في الحصول على التعليم والرعاية الصحية والعمل وفي حقوق الإقامة والبناء. كما يتعرضون لعمليات الطرد وهدم المنازل التي تخدم السياسة الإسرائيلية المُسمّاة بسياسة "التوازن الديمغرافي" لصالح السكان اليهود. ويصنف سكان القدس الشرقية الفلسطينيون على أنهم مقيمون دائمون، ما يجعلهم فئة منفصلة. وليس لديهم بوصفهم مقيمين دائمين أي صفة قانونية تمكنهم من تحدي القانون الإسرائيلي. وذلك متعمد حتى لا يضاف وزنهم الديموغرافي، والأهم من ذلك وزنهم الانتخابي، إلى وزن المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل. وعلاوة على ذلك، فإن تماهيهم السياسي الصريح مع الفلسطينيين في الأرض الفلسطينية المحتلة يحمل معه خطر الطرد إلى الضفة الغربية وفقدان الحق حتى في زيارة القدس. هكذا، المركز المدني للحياة السياسية الفلسطينية محاصر في فقاعة قانونية تحدّ من قدرة سكانه على معارضة نظام الأبارتايد قانونياً.

ويشمل الفضاء الثالث قرابة ٦,٦ مليون من الفلسطينيين الذين يعيشون في الأرض الفلسطينية المحتلة، ٤,٧ مليون منهم في الضفة الغربية و١,٩ مليون في قطاع غزة. وتدار هذه الأرض على نحو يتطابق تماماً مع تعريف الأبارتايد في اتفاقية مناهضة الأبارتايد. فباستثناء النص المتعلق بالإبادة الجماعية، تمارس إسرائيل بشكل روتيني ومنهجي في الضفة الغربية كل الأفعال اللاإنسانية التي ترد في الاتفاقية كمثال. ويخضع الفلسطينيون للقانون العسكري، في حين يخضع حوالي ٣٥٠,٠٠٠ مستوطن يهودي للقانون المدني الإسرائيلي. ومما يؤكد الطابع العنصري لهذا الوضع أن المستوطنين اليهود في الضفة الغربية يتمتعون جميعاً بحماية القانون المدني الإسرائيلي لأنهم يهود سواء أكانوا مواطنين إسرائيليين أم لا. وهذا النظام القانوني المزدوج، وهو إشكالي بحد ذاته، يصبح مؤشراً إلى نظام الأبارتايد عندما يقترن بإدارة وتطوير للأراضي على يد مؤسسات قومية يهودية مكلفة بإدارة «أراضي الدولة» لصالح السكان اليهود. ولدعم النتائج العامة التي يتوصل إليها هذا التقرير، يبين المرفق الأول مزيد من التفصيل السياسات والممارسات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة التي تشكل انتهاكات للمادة ٢ من اتفاقية مناهضة الأبارتايد.

ويشمل الفضاء الرابع ملايين الفلسطينيين اللاجئين والمنفيين قسراً الذين يعيش معظمهم في البلدان المجاورة ويحظر عليهم العودة إلى ديارهم في إسرائيل والأرض الفلسطينية المحتلة. وتبرر إسرائيل رفضها عودة الفلسطينيين بعبارات عنصرية صريحة. فهي تزعم أن الفلسطينيين يشكلون «تهديداً ديموغرافياً» وأن عودتهم ستغير الطابع الديمغرافي لإسرائيل إلى درجة تقضي عليها كدولة يهودية. ولرفض حق العودة للفلسطينيين دور أساسي في نظام الأبارتايد، إذ يضمن عدم ازدياد عدد السكان الفلسطينيين في فلسطين التاريخية إلى درجة تهدد السيطرة العسكرية الإسرائيلية على الأراضي و/أو توفر قوة دافعة للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل تمكّنهم من المطالبة بحقوق ديمقراطية كاملة (والحصول عليها)، ما قد يزيل الطابع اليهودي لدولة إسرائيل. ويقترن الفضاء الرابع على السياسات التي تحرم الفلسطينيين من حقهم في العودة بموجب القانون الدولي. إلا أن التقرير يتناول باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من نظام الاضطهاد والهيمنة الذي يعاني منه الشعب الفلسطيني برمته، نظراً لدوره الحاسم بالأوزان الديموغرافية في إدامة نظام الأبارتايد.

ويرى هذا التقرير أن الفضاءات الأربعة مجتمعة تكوّن نظاماً واحداً شاملاً، وضع لضمان استمرار السيطرة على غير اليهود في جميع الأراضي الخاضعة حصرياً للسيطرة الإسرائيلية مهما كانت الفئة التي تُصنّف فيها هذه الأراضي. وبدت الفوارق في معاملة الفلسطينيين في نظر الأمم المتحدة واقعاً سارياً، في غياب تقييم يبيّن ما إذا كانت شكلاً من أشكال الأبارتايد. وفي ضوء نتائج هذا التقرير، قد يتطلب النهج الدولي المجرأ، القائم منذ زمن، إعادة نظر ومراجعة.

وتوخياً للإنصاف والشمول، يتناول التقرير عدة حجج مضادة تقدمها إسرائيل ومن يدعمون سياساتها لإنكار انطباق اتفاقية مناهضة الأبارتايد على حالة إسرائيل-فلسطين. ومن هذه الحجج ما يدّعي بأن إصرار إسرائيل على أن تظل دولة يهودية يتفق مع ممارسات دول أخرى. وأن إسرائيل لا تدين للفلسطينيين غير المواطنين بمعاملة مساوية لليهود لمجرد أنهم غير مواطنين؛ وأن المعاملة الإسرائيلية للفلسطينيين لا تعكس أي "غرض" أو "مقصد" هيمنة، بل تعكس حالة مؤقتة يفرضها على إسرائيل واقع الصراع الجاري والمتطلبات الأمنية. ويبين التقرير أن أيّاً من هذه الحجج سرعان ما يسقط أمام التمهيص. ويرتكز ادعاء آخر هو أن إسرائيل لا يمكن أن تُعتبر مسؤولة عن جرائم أبارتايد لأن للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل حقوق تصويت على خطأين في التفسير القانوني: المقارنة الحرفية مع سياسة الأبارتايد في جنوب أفريقيا وفصل مسألة حقوق التصويت عن القوانين الأخرى، ولا سيما أحكام القانون الأساسي التي تحظر على الأحزاب السياسية الطعن في طابع الدولة اليهودي، وبالتالي، العنصري. ويخلص التقرير إلى أن حجم الأدلة يدعم بما لا يدع للشك مجالاً أن إسرائيل مذنبه بجريمة فرض نظام أبارتايد على الشعب الفلسطيني، ما يصل إلى حد ارتكاب جريمة ضد الإنسانية، وتلك جريمة يعتبر القانون العرفي الدولي حظرها قاعدة من القواعد الآمرة *jus cogens*. والمجتمع الدولي، ولا سيما الأمم المتحدة ووكالاتها، والدول الأعضاء ملزمة جميعها إلزاماً قانونياً بالتصرف ضمن حدود قدراتها للحيلولة دون نشوء حالات الأبارتايد ومعاينة المسؤولين عن هذه الحالات. وعلى الدول، تحديداً، واجب جماعي يتمثل في: (أ) ألا تعترف بشرعية نظام أبارتايد؛ (ب) ألا تقدم معونة أو مساعدة لدولة تقيم نظام أبارتايد؛ (ج) أن تتعاون مع الأمم المتحدة والدول الأخرى على القضاء على نظم الأبارتايد. وعلى مؤسسات المجتمع المدني والأفراد واجب أخلاقي وسياسي يلزمهم باستخدام الأدوات المتاحة لهم لرفع درجة الوعي بهذا المشروع الإجرامي المتواصل، وللضغط على إسرائيل لحملها على تفكيك هياكل الأبارتايد امتثالاً للقانون الدولي.

ويختتم التقرير بتوصيات عامة ومحددة إلى الأمم المتحدة وحكومات الدول والمجتمع المدني والجهات الفاعلة الخاصة، بشأن الإجراءات التي ينبغي اتخاذها في ضوء الاستنتاج بأن إسرائيل أنشأت نظام أبارتايد في ممارستها السيطرة على الشعب الفلسطيني.

نص استقالة ريماء خلف

حضرة الأمين العام،

لقد فكرت ملياً في الرسالة التي بعثتها لي من خلال مديرة ديوانك. وأؤكد أنني لم أشكك للحظة في حقك بإصدار تعليماتك بسحب التقرير من موقع الإسكوا الإلكتروني، كما لم أشكك في أن علينا جميعاً كموظفين لدى الأمانة العامة للأمم المتحدة أن ننفذ تعليمات أمينها العام. وأنا أعرف على وجه اليقين التزامك بمبادئ حقوق الإنسان عامة وموقفك إزاء حقوق الشعب الفلسطيني خاصة. وأنا أتفهم كذلك القلق الذي يتنابك بسبب هذه الأيام الصعبة والتي لا تترك لك خيارات كثيرة.

وليس خافياً علي ما تتعرض له الأمم المتحدة، وما تتعرض له أنت شخصياً، من ضغوط وتهديدات على يد دول من ذوات السطوة والنفوذ، بسبب إصدار تقرير الإسكوا (الممارسات الإسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني ومسألة الأبارتايد). وأنا لا أستغرب أن تلجأ هذه الدول، التي تديرها اليوم حكومات قليلة الاكتراث بالقيم الدولية وحقوق الإنسان، إلى أساليب التخويف والتهديد حين تعجز عن الدفاع عن سياساتها وممارساتها المنتهكة للقانون. وبديهي أن يهاجم المجرم من يدافعون عن قضايا ضحاياه. لكنني أجد نفسي غير قابلة للخضوع إلى هذه الضغوط.

لا بصفتي موظفةً دوليةً، بل بصفتي إنساناً سوياً فحسب، أو من -شأني في ذلك شأنك- بالقيم والمبادئ الإنسانية السامية التي طالما شكلت قوى الخير في التاريخ، والتي أسست عليها منظمنا هذه، الأمم المتحدة. وأؤمن مثلك أيضاً بأن التمييز ضد أي إنسان على أساس الدين أو لون البشرة أو الجنس أو العرق أمر غير مقبول، ولا يمكن أن يصبح مقبولاً بفعل الحسابات السياسية أو سلطان القوة. وأؤمن أن قول كلمة الحق في وجه جائر متسلط، ليس حقاً للناس فحسب، بل هو واجب عليهم.

في فترة لا تتجاوز الشهرين، وجهت لي تعليمات بسحب تقريرين أصدرتهما الإسكوا، لا لشوائب تعيب المضمون ولا بالضرورة لأنك تختلف مع هذا المضمون، بل بسبب الضغوطات السياسية لدول مسؤولة عن انتهاكات صارخة لحقوق شعوب المنطقة ولحقوق الإنسان عموماً.

لقد رأيت رأي العين كيف أن أهل هذه المنطقة يمرون بمرحلة من المعاناة والألم غير مسبوقة في تاريخهم الحديث؛ وإن طوفان الكوارث الذي يعمهم اليوم لم يكن إلا نتيجة لسيل من المظالم، تم التغاضي عنها، أو التغطية عليها، أو المساهمة المعلنه فيها من قبل حكومات ذات هيمنة وتجبر، من المنطقة ومن خارجها. إن هذه الحكومات ذاتها هي التي تضغط عليك اليوم لتكتم صوت الحق والدعوة للعدل الماثلة في هذا التقرير.

واضحة في الاعتبار كل ما سبق، لا يسعني إلا أن أؤكد على إصراري على استنتاجات تقرير الإسكوا القائلة بأن إسرائيل قد أسست نظام فصل عنصري، أبارتايد، يهدف إلى تسلط جماعة عرقية على أخرى.

إن الأدلة التي يقدمها التقرير قاطعة، وتكفيني هنا الإشارة إلى أن أيًا ممن هاجموا التقرير لم يمسوا محتواه بكلمة واحدة. وإني أرى واجبي أن أسلط الضوء على الحقيقة لا أن أتستر عليها وأكتم الشهادة والدليل. والحقيقة المؤلمة هي أن نظام فصل عنصري، أبارتايد، ما زال قائمًا في القرن الحادي والعشرين، وهذا أمر لا يمكن قبوله في أي قانون، ولا أن يرر أخلاقياً بأي شكل من الأشكال. وإنني في قولي هذا لا أدعي لنفسي أخلاقاً أسمى من أخلاقك أو نظراً أثقب من نظرك، غاية الأمر أن موقفني هذا قد يكون نتيجة لعمر كامل قضيته هنا، في هذه المنطقة، شاهدة على العواقب الوخيمة لكبت الناس ومنعهم من التعبير عن مظالمهم بالوسائل السلمية.

وعليه، وبعد إمعان النظر في الأمر، أدركت أنني أنا أيضاً لا خيار لي. أنا لا أستطيع أن أسحب، مرة أخرى، تقريراً للأمم المتحدة، ممتاز البحث والتوثيق، عن انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان. غير أنني أدرك أيضاً أن التعليمات الواضحة للأمين العام للأمم المتحدة لا بد من أن تنفذ. ولذلك، فإن هذه العقدة لا تحل إلا بأن أنتحى جانباً وأترك لغيري أن يقوم بما يمنعني ضميري من القيام به. وإنني أدرك أنه لم يبق لي في الخدمة غير أسبوعين، لذلك فاستقالتني هذه لا تهدف إلى الضغط السياسي عليك. إنما أستقيل، ببساطة، لأنني أرى أن واجبي تجاه الشعوب التي نعمل لها، وتجاه الأمم المتحدة، وتجاه نفسي، ألا أكتم شهادة حق عن جريمة ماثلة تسبب كل هذه المعاناة لكل هذه الأعداد من البشر.

وبناء عليه، أقدم إليك استقالتني من الأمم المتحدة.

خلاصة التقرير الاستراتيجي الإسرائيلي السنوي ٢٠١٦-٢٠١٧

عليان الهندي

صدر عن مركز أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي في جامعة تل أبيب التقييم الإستراتيجي السنوي الذي اعتاد المركز على نشره منذ عام ٢٠٠٩ حتى اليوم. وقد حل التقييم الاستراتيجي مكان التقرير الإستراتيجي السنوي الذي صدر عن نفس المركز، وسمي حينها مركز الأبحاث الاستراتيجية «جافة». ومصطلح التقييم هنا، هو المصطلح المستخدم في أجهزة الأمن الإسرائيلية، خاصة في جهاز الاستخبارات الذي يعد تقييما سنويا يقدم لأصحاب القرار في إسرائيل، يشرح فيه التهديدات والفرص المتاحة امام إسرائيل، ويقدم التوصيات المطلوب تبنيها من قبل المستوى السياسي في العام الجديد. والتقييم الحالي الصادر عن المركز يحاكي التقارير المذكورة بشكل كبير جدا، خاصة أن كاتبه التقرير (٢٨ شخصية) شغلوا في السابق مناصب عسكرية وأمنية وسياسية ودبلوماسية وأكاديمية رفيعة. وشارك لأول مرة في كتابة التقرير الدكتور محمد أبو نصر من فلسطيني عام ١٩٤٨. وتضمن التقرير أربعة محاور رئيسية وعشرين موضوعا فرعا.

ونظرا لتعدد مواضيع التقرير، سأوجز خلاصة التقرير وترجمة التوصيات التي كتبها رئيس المركز الجنرال المتقاعد عاموس يادلين. وخلال الإيجاز، لم أتدخل في المصطلحات الإسرائيلية المستخدمة في الصراع العربي-الإسرائيلي ولا في الشق الفلسطيني، بهدف طرح الصورة كما هي، للتسهيل على المختص والقارئ في الفهم الأعمق لطرق تفكير إسرائيلية كانت مشاركة ومطلعة على ما يجري في دوائر صنع القرار في إسرائيل.

صورة الوضع

ظل الميزان العسكري الاستراتيجي لعام ٢٠١٦ في صالح إسرائيل، ويتوقع أن يستمر كذلك في عام ٢٠١٧ للاعتبارات التالية:

١. التفوق العسكري الإسرائيلي.
٢. تراجع التهديدات العسكرية المباشرة الموجهة لها، نتيجة انشغال أعدائها في حروب وصراعات داخلية.
٣. امتناع إسرائيل عن خوض مواجهات وحروب واسعة النطاق في محيطها الملتهب داخليا.
٤. تراجع التهديد النووي العسكري الإيراني من ١٠-١٥ عاما.
٥. الصراع السني-الشيوعي الذي تغذيه وتقوده إيران والسعودية.
٦. الصراع السني-السني ضد تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» والقاعدة وغيرها من التنظيمات السلفية الجهادية.
٧. القوة العسكرية والصراعات المذكورة، أوجدت مصالح مشتركة بين إسرائيل وبين العالم العربي السني في مواجهة المحور المتطرف الذي تقوده إيران.
٨. تراجع أسعار النفط، ساهم في النمو الاقتصادي، وفي تحسين علاقات إسرائيل بدول أخرى.

تطورات سلبية

١. تراجع مكانة وصورة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط في عهد الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما، وربما في عهد الرئيس الجديد دونالد ترامب الذي عنون بداية حكمه بشعار «أميركا أولا».
٢. الوجود الروسي في سوريا واستخدامه القوة العسكرية فيها، قلل من قدرة إسرائيل على شن هجمات عسكرية وغيرها، وعزز من قوة إيران وحزب الله في المنطقة.
٣. استمرار الجمود السياسي في المسيرة السلمية مع الفلسطينيين، يرافقه مزيد من تدهور العلاقات مع الاتحاد الأوروبي، الذي يحاول تعبئة الفراغ الذي تركته الإدارة الأميركية السابقة، وربما اللاحقة.

٤. ضعف التضامن الداخلي وتوسيع الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع الإسرائيلي، وإدخال الجيش، محل الإجماع، في المواجهة السياسية الداخلية.

عناصر البيئة الإستراتيجية

الميزان العسكري - تتمتع إسرائيل بتفوق عسكري غير مشكوك فيه بجميع ساحات المواجهة. وبالرغم من الحروب الأهلية في الدول المحيطة بإسرائيل وعدم الاستقرار الإقليمي وانتشار المنظمات الإرهابية على حدودها، وثلاثة مواجهات مع قطاع غزة منذ عام ٢٠٠٩، لم تنجر إسرائيل لحروب واسعة، ولم تتدخل فيما يجري هناك. ولم يعد التهديد الذي تشكله جيوش الدول العربية، موجودا بفضل اتفاقيات السلام مع مصر والأردن، وانهيار الجيشين السوري والعراقي وانخراطهما في حروب داخلية، وانشغال التنظيمات الارهابية المعادية لإسرائيل في حروب أهلية.

تراجع مكانة الولايات المتحدة الأمريكية - شهد العام المنصرم ترجعا في مكانة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، نتيجة تحفظ إدارة الرئيس السابق باراك أوباما إزاء التدخل العسكري في مشاكل المنطقة، والضغط التي مارسها على الدول الديكتاتورية من أجل ديمقرتها. ورغم التراجع التدريجي عن سياسته، لصالح إحداث إصلاحات بطيئة وتدرجية، ظلت خيبة الأمل من إدارة الرئيس أوباما هي المسيطرة على المشهد في الشرق الأوسط من قبل المؤيدين والمعارضين للولايات المتحدة على حد سواء.

وعزز توجه الإدارة الأمريكية السابقة، على مواجهة الخطر الصيني في بحر الصين الجنوبي، اعتقاد حلفائها التقليديين ومن ضمنهم إسرائيل، انسحابها وتنازلها عن حل مشاكل المنطقة لصالح أطراف أخرى، ما دفعها إلى البحث عن حلفاء كبار في المجتمعين الدولي والإقليمي، وإلى قيام روسيا بمحاولة سد الفراغ، الذي تركته الولايات المتحدة خلفها.

التراجع الأمريكي وتصوير الولايات المتحدة وكأنها ضعيفة في الشرق الأوسط، انعكس على إسرائيل، التي تتمتع بعلاقات خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية وتشكل عنصرا أساسيا في قوة الردع الإسرائيلية في مواجهة أعدائها، سلبا.

كذلك شهدت العلاقة بين قيادة الدولتين خلافات كبيرة نتيجة طرق إدارة إسرائيل الفاشلة، لمفلي إيران والمستوطنات الذي اعتبرته الإدارة الأمريكية السابقة عائقا أساسيا أمام العودة لمسار

المفاوضات والحل. الأمر الذي يتطلب من القيادة الإسرائيلية بذل الجهود لإعادة الثقة مع القيادة الجديدة في البيت الأبيض (دونالد ترامب) والتنسيق معها في القضايا الاستراتيجية.

التوتر بين القوى العظمى - بدأ خلال عام ٢٠١٦، وكأن رياح الحرب الباردة عادت بين الولايات المتحدة وأوروبا من جهة وبين روسيا والصين من جهة أخرى. وكاد التوتر بين الولايات المتحدة وروسيا، أن يؤدي إلى مواجهة مسلحة بين الطرفين إثر الأزمتهن في أوكرانيا والشرق الأوسط، وفي بحر الصين الجنوبي بين الولايات المتحدة والصين.

تحارب كل من الولايات المتحدة وروسيا تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» والمنظمات السلفية الجهادية المختلفة. لكن لكل منهما مصالحه الخاصة والمتناقضة كلياً مع مصالح الطرف الآخر. حيث تتطلع روسيا إلى استمرار سيطرتها على سوريا وتعزز تحالفها مع إيران، وتعمل على إعادة تأثيرها في مصر والعراق وليبيا، وتبحث عن الوسائل لإقامة علاقات مع المملكة العربية السعودية. في حين، قللت إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما من تدخلها في منطقة الشرق الأوسط، الذي أودعته عند حلفاء غير موثوق بهم، ووجهت انتباهها ووضعت استراتيجيتها للتصدي للتمدد الصيني في بحر الصين الجنوبي. ومن غير الواضح ما هي السياسة التي سيتبعها الرئيس الجديد للولايات المتحدة دونالد ترامب.

فيما يتعلق بانعكاسات ذلك على إسرائيل، فقد حسنت الحروب الأهلية في منطقة الشرق الأوسط والتدخل الأميركي الحذر والتدخل الروسي النشط وعدم تدخل إسرائيل في كل ما يجري من مكائنها الاقليمية، لأن ما جرى حول الأنظار عن القضية الفلسطينية وضرورة حلها، لصالح النزاعات القائمة في المنطقة وخارجها.

الاتفاق النووي مع إيران - الاتفاق النووي الموقع بين الدول العظمى وألمانيا مع إيران، لم يمس إسرائيل. ورغم الشكاوى المتبادلة، التزم الطرفان بتنفيذ الاتفاق بشكل معقول، حيث أصر الاتفاق امتلاك إيران لقدرات عسكرية نووية من ١٠-١٥ عاماً. وفي نفس الوقت، لم تستفد إيران في المجال الاقتصادي، حيث يعاني اقتصادها أزماً خانقة، نتيجة استمرار انخفاض أسعار النفط، ومواصلة العقوبات الغربية عليها، الناتجة من تطويرها قدرات صاروخية. الأمر الذي لم يساعدها في تعزيز قوتها وتوسيع تمددها في المنطقة، وتقديم مساعدات سخية لحلفائها.

علاوة على ذلك، لم تتحسن العلاقات الإيرانية-الغربية، لأن المرشد الأعلى علي خامنئي هو المسؤول

عن رسم السياسات الداخلية والخارجية، حيث يخشى على سلامة النظام في الداخل، ويسعى إلى التمدد في الاقليم، وغير معني بعلاقات دافئة مع الغرب. إضافة إلى عدم تحسن تصرفات إيران في مجال حقوق الانسان وغيرها من الحريات.

ويواجه التمدد الإيراني-الشيوعي، تصديا سنيا بقيادة المملكة العربية السعودية في دول الخليج نفسها وفي العراق وسوريا واليمن.

وبالنسبة لإسرائيل، وإذا لم تقع أحداث دراماتيكية، ستمر بحالة من الهدوء النووي لعقد من الزمان على الأقل، قبل أن تتجدد. وعلاوة على ذلك، أصبحت قدرة إيران بشن هجمات على إسرائيل بواسطة حلفائها محدودة بدرجة معينة، لانشغالهم في الصراعات الدائرة بالمنطقة، خاصة في العراق وسوريا.

ضعف التنظيمات المسيطرة على المناطق - أصبحت التنظيمات المسلحة، التي تحولت إلى تنظيمات شبه سياسية بعد سيطرتها على مساحات من الأراضي والسكان وتأسيسها جيوشا، ضعيفة يمكن ضربها. ويأتي في مقدمة هذه التنظيمات تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» وحركة حماس وحزب الله. وضعف التنظيمات المذكورة ناتج عن: قلة الموارد، التزاماتها المادية نحو السكان المدنيين، التحالفات الدولية والاقليمية التي شكلت من أجل القضاء على تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» فقط.

تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» - مر عامان ونصف على تحويل تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» إلى عنصر مهدد على المستويين الدولي والاقليمي. الأمر الذي دفع بالطرفين إلى تشكيل تحالفات محلية وإقليمية ودولية لمواجهةها.

وخلال الحروب التي شنت على تنظيم الدولة خلال عام ٢٠١٦، بواسطة هجمات جوية روسية وأميركية وهجمات برية من قبل قوات عراقية وسورية وتركية وكردية وميليشيا شيعية من دول مختلفة، فقد التنظيم أجزاء واسعة من المناطق التي سيطر عليها، وتجري تحضيرات عسكرية واسعة لتحرير مدينتي الموصل العراقية والرقعة السورية عاصمة التنظيم.

وفي حال فقد تنظيم الدولة كل الأراضي التي حكمها، سيتحول التنظيم إلى حرب العصابات، وإلى التحريض في المناطق السنية وفي الشبكات الاجتماعية، لأنه حارب الظلم (على حد وصفه) الذي

يتعرض له السنة في مختلف بقاع العالم.

وفيما يتعلق بإسرائيل، لم تشكل التنظيمات المذكورة تهديدا لها، نظرا لانشغالها في صراعات وجودية، وحتى التنظيمات المقربة من تنظيم الدولة والمسيطرة على مناطق في الجولان، فقد حافظت على الهدوء في طول حدود المواجهة.

أما حزب الله، فهو غارق بحرب أهلية في سوريا، فيما تعيد حركة حماس بناء قوتها التي خسرتها خلال مواجهات ٢٠١٤. ورغم تعاضم قوة الطرفين، تتحسن مكانة إسرائيل الاستراتيجية، ومعها حرية تحرك عسكري لم يسبق له مثيل، بهدف المحافظة على مصالحها الأمنية الاستراتيجية.

الحرب الأهلية في سوريا بعيدة عن التوقف - مكن التدخل الروسي والإيراني وحزب الله من تغيير ميزان القوى، وتغيير اتجاه المعركة لصالح الرئيس السوري بشار الأسد الذي تمكن جيشه من استعادة الكثير من المناطق التي فقدت السيطرة عليها خلال الحرب. لكن النظام لم يحسم المعركة لصالحه، وهناك الكثير من المناطق غير الخاضعة لسيطرته، ولا يتوقع أن يعيد السيطرة عليها في المستقبل القريب. وعليه، لن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل عام ٢٠١١.

وتقتضي مصلحة إسرائيل طرد نظام الأسد وإيران وحزب الله وتنظيم الدولة الإسلامية من سوريا، وإقامة نظام سني معتدل، يشبه الوضع القائم في الجولان، وذلك احتمال غير معقول. والمطروح اليوم في سوريا ثلاثة سيناريوهات هي:

١. استمرار الفوضى والحرب الأهلية.

٢. استقرار نظام الأسد في المناطق القريبة من إسرائيل بدعم من إيران وحزب الله.

٣. استلام الحكم من قبل تيار سني إسلامي.

ويعتبر خيار استمرار الفوضى والحرب الأهلية، الأكثر روجا من بين الخيارات الثلاثة، رغم استعادة نظام الأسد الكثير من الأراضي التي فقدت السيطرة عليها.

ولا بد من التأكيد أن التدخل الروسي ليس لصالح إسرائيل على المدى البعيد، لتعزيره المحور المتطرف المعادي بقيادة إيران مع سوريا وحزب الله، ما يتطلب منها رسم استراتيجية مضادة.

تواصل ضعف العالم العربي - الوضع الذي يمر فيه العالم العربي منذ عام ٢٠١١ مرشح للاستمرار

سنوات طويلة، حيث أضعفت بعض الدول وعطلت قدرتها على العمل، وفكك بعضها مثل سوريا وليبيا واليمن وبدرجة معينة العراق ولبنان. وتعاني جميع الدول العربية من أزمات أمنية داخلية، ومن مواجهة مجموعات مسلحة، بالإضافة إلى مشاكل اقتصادية وديموغرافية واجتماعية، ما أدى إلى إضعافها خاصة تلك التي تبنت استراتيجيات متطرفة ضد إسرائيل.

وتشهد بعض الدول العربية صراعا سنيا-سنيا (بين المجموعات السلفية وتنظيم الدولة الإسلامية داعش ضد الإخوان المسلمين والعلمانيين)، ويتوقع لهذه الصراعات الاستمرار، نظرا لكثرة المشاركين المحليين والخارجيين في الحروب الأهلية المندلعة في بعضها، ما يضع صعوبات أمام العالم العربي لإعادة التنمية، ويهدد استقرار أوروبا نتيجة موجات الهجرة القادمة إليها.

وتلعب المملكة العربية السعودية، بعد تولي الملك سلمان بن عبد العزيز الحكم فيها، دورا مهما في التصدي للنفوذ الإيراني في المنطقة، وتحارب التيارات السلفية الجهادية داخل حدودها وخارجها. وتحاول، من غير نجاح، قيادة محور سني ضد إيران، نظرا لاختلاف وجهات نظرها مع دول مثل مصر التي ترى بالأخوان المسلمين المههدد الأول، فيما تشكل تنظيمات الجهادية السلفية التهديد الثاني، وتركيا التي ترى بالأكراد المههدد الأول وتنظيم الدولة الإسلامية «داعش» المههدد الثاني، وليس إيران.

ويعتبر استثمار المملكة العربية السعودية الكثير من مواردها الاقتصادية في الحروب الأهلية ببعض الدول العربية، والتبرع للبعض الآخر لمنع اندلاع اضطرابات داخلية فيها، وامتدادها للمملكة، وانخفاض أسعار النفط، والتوتر مع سكان المملكة الشيعة، واحتمال اندلاع صراع وراثي في العائلة المالكة نتيجة تعزيز مكانة الأمير محمد بن سلمان على حساب مكانة ولي العهد محمد بن نايف الذي تتحدث بعض التقارير أنه يعاني من مرض ما، مدخلا لوقوع أزمات اقتصادية-اجتماعية في المملكة.

ولم تنعكس التطورات الجارية في العالم العربي سلبا على إسرائيل، حيث تمت المحافظة على اتفاقيات السلام الموقعة مع مصر والأردن، ويعبر وجود سفراء الدولتين في إسرائيل عن الاستقرار الإقليمي، الذي يعتبر أهم عناصر استقرار إسرائيل من ناحية استراتيجية. وعززت، مواجهة إيران وتنظيم الدولة الإسلامية «داعش»، العلاقات الاستراتيجية بين إسرائيل وبين الدولتين، حيث يحارب النظام المصري الارهاب الداخلي، ولا يرى في الوقت الحاضر بإسرائيل عدوا، بل حليفا مهما. ومع ذلك يجب التنبه أن تدهور الوضع الاقتصادي في مصر وتراجع العلاقات مع المملكة العربية السعودية، سيعيد مصر سياسيا واجتماعيا واقتصاديا إلى الوضع الذي كان سائدا قبل عام ٢٠١١.

وفيما يتعلق بالعلاقة مع المملكة العربية السعودية، فإن تغيير طرق تعاملها مع أزمات المنطقة، وسع من قاعدة مصالحها المشتركة مع إسرائيل، وفتح معها علاقة غير معلنة. ويشكل عداة الشعب السعودي لإسرائيل والخوف من استغلال إيران وتنظيم الدولة الإسلامية «داعش»، حاجزاً أمام تحويلها لعلاقة علنية.

استمرار الجمود السياسي في المسار الإسرائيلي-الفلسطيني واستمرار العنف - شهد عام ٢٠١٦ استمرار الجمود السياسي المطلق في المسيرة السلمية بين إسرائيل والفلسطينيين، الذي تدفع إسرائيل ثمنه من أبنائها ومن تراجع في السياحة والاقتصاد ووقوع أزمة داخلية وتراجع في مكانتها الدولية. ومن أجل كسر الجمود المذكور، طرحت مبادرات سياسية من قبل الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي لعقد قمة بين الرئيس الفلسطيني محمود عباس ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، وعقد في فرنسا مؤتمر دولي لإعادة المفاوضات إلى مسارها، كما فشل الرئيس الروسي في كسر الجمود بين الطرفين بواسطة قمة تجمع قيادة الطرفين. وتخلصت إسرائيل، من مخاوف عميقة من إمكانية التصويت في مجلس الأمن على قرار تطرحه الإدارة الأمريكية السابقة تُلخص فيه أفكارها لحل النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني

ورافق ذلك، موجة ارهاب أخذت نتيجة حالة الارهاق التي يعاني منها الفلسطينيون وبسبب الإجراءات الفعالة التي اتخذتها إسرائيل في محاربة هذه الظاهرة. لكن أحداث العنف التي وقعت مع اقتراب عيد الاضحى [اقتحامات الحرم القدسي الشريف] وفي فترة الأعياد اليهودية، تشير إلى إمكانية التصعيد الدائم، النابعة من حالة الإحباط في صفوف الفلسطينيين، نتيجة فقدان الأفق السياسي والوضع الاقتصادي والاجتماعي المتدهور.

إضافة لذلك، يعاني حكم عباس في رام الله من انعدام شرعيته ومن تراجع الدعم له، وجميع محاولات الحصول على شرعية جديدة فشلت. كما تشهد الساحة الفلسطينية صراعا على من يرث محمود عباس، الأمر الذي يدفع جميع الطامحين للحلول مكانه إلى تصليب مواقفهم في مواجهة إسرائيل.

وفيما يتعلق بقطاع غزة، يواصل الوضع الاقتصادي-الاجتماعي تدهورا، ويشهد القطاع أزمات في مياه الشرب والصرف الصحي والطاقة، منذرا بذلك بحدوث أزمة إنسانية عميقة. الأمر الذي دفع بإسرائيل إلى تغيير سياستها اتجاه قطاع غزة في كل ما يتعلق بنقل البضائع والبشر. لكن الانفتاح الإسرائيلي تجاه القطاع لا يكفي لمنع أزمة، تعتبر مدخلا لاندلاع أعمال العنف مع إسرائيل في المستقبل.

استمرار تراجع مكانة إسرائيل السياسية - تواصلت حملة نزع شرعية إسرائيل من قبل حركة BDS، ما أدى إلى تراجع دعمها في الغرب، وتعزيز قوة الأطراف المعادية لها هناك، الذين يحرضون على مقاطعة إسرائيل في مجالات مختلفة. وساهم في تدهور مكانة إسرائيل: الطابع اليميني المتطرف للحكومة الإسرائيلية، ومبادرات تشريع غير ديمقراطية، والتوترات الداخلية حول الدين والدولة، والمبالغة في الرد على الإرهاب الفلسطيني الفردي، والجمود السياسي مع الفلسطينيين، وتعيين شخصية يمينية متطرفة في منصب وزير الدفاع، والمحاولات الإسرائيلية إقامة علاقات دبلوماسية مع دول غير ديمقراطية، مثل روسيا والصين.

توترات داخلية - يشهد المجتمع الإسرائيلي تراجعاً في التضامن والايمان بالهدف المشترك، وازداد الاستقطاب الاجتماعي والسياسي الذي عبر عنه بتصريحات متطرفة وتحريض متبادل، عبر وسائل الاعلام المختلفة بما فيها شبكات التواصل الاجتماعي.

وتساهم الانتقادات الدولية الموجهة ضد السياسات الإسرائيلية في المس بوحدها وبمصانها المجتمعية وبطرق إدارتها السياسية.

ويتعرض الجيش الإسرائيلي لعملية تحريض من قبل جهات يهودية غير مضبوطة في شبكات التواصل الاجتماعي، بهدف زعزعة الثقة وبالبنى التحتية الأخلاقية للجيش، التي من شأنها إضعاف الحصانة الإسرائيلية الوطنية.

وتتدهور العلاقات بين الأقلية العربية في إسرائيل وبين الأغلبية اليهودية، حيث يتهم العرب الحكومات الإسرائيلية المختلفة بعدم الوفاء بتعهداتها وخططها لإنعاش الوسط العربي في إسرائيل. ورغم ذلك، لم ينجر العرب في إسرائيل وراء التحريض الإسلامي المتطرف، والقليل منهم انضم لتنظيم الدولة الإسلامية «داعش».

التوصيات

تعزيز العلاقات الاستراتيجية مع ادارة دونالد ترامب - تظل الولايات المتحدة الشريك الأساسي لإسرائيل في مواجهة تحدياتها الأمنية والسياسية. وعليه، فإن تعزيز العلاقة مع الوافد الجديد للبيت الأبيض وإعادة الثقة التي فقدت مع الإدارة السابقة مهمة أساسية لقادة الدولة. ويتطلب بناء الثقة، التوصل لتفاهات استراتيجية في القضايا الأساسية مثل مواجهة إيران وحل النزاع

الإسرائيلي-الفلسطيني ومنع نقل هذا الملف لأوروبا والتفاهم حول الدور الروسي السلبي في سوريا وتعزيز دور مصر والأردن والاستعداد لمواجهة تطورات سلبية في الخليج، وإعادة مكانة دولة إسرائيل في أوساط الشبان اليهود الأميركيين.

بناء قدرات لمنع امتلاك إيران للأسلحة النووية - أمام إسرائيل من ١٠-١٥ عاما لبناء قدرات تمنع إيران من تحقيق هدفها القاضي بامتلاك أسلحة نووية خلال فترة بسيطة من انتهاء الاتفاق. وإذا فشلت، عليها مواجهة واقع إيران النووية، ما يدفع دولا أخرى في الشرق الأوسط إلى العمل على امتلاك أسلحة نووية. وعليه، يجب على إسرائيل بناء قدرات عسكرية لمواجهة امتلاك إيران لقدرات نووية عسكرية.

وعلى إسرائيل، استغلال الوقت المناسب لفتح الاتفاق النووي الموقع مع إيران وتعديله لمنعها من الزحف نحو القنبلة النووية، والتوصل لتفاهات استراتيجية واتفاقيات مضادة مع الحلفاء خاصة مع الولايات المتحدة في ظل الإدارة الجديدة.

مبادرة في الشق الفلسطيني - حتى في حال عدم وجود شريك فلسطيني للتوصل لاتفاق وتنفيذه معه، فإن مصلحة إسرائيل العليا هي عدم الانزلاق نحو الدولة الواحدة، والتركيز على حل دولتين لشعبين تنهي من خلاله سيطرتها على الفلسطينيين، وتحافظ على تحسين وضعها الأمني.

وفي السياق المذكور، على إسرائيل بذل جهود مقنعة بأن وجهتها نحو الحل، من خلال التوجه نحو مفاوضات ثنائية أو إقليمية أو التوصل إلى اتفاقيات مرحلية جديدة، أو تنفيذ خطوات إسرائيلية مستقلة، تدفع باتجاه رسم حدود إسرائيل مع الفلسطينيين بشكل مؤقت، وبناء مؤسسات لدولة مستقلة.

والخطوات المستقلة اتجاه الفلسطينيين مهمة، لتحسين علاقاتها بدول المنطقة ومع المجتمع الدولي، خاصة حلفائها الغربيين، وتساعد في مواجهة حملة عدم شرعية دولة إسرائيل.

وبخصوص قطاع غزة، على إسرائيل إجراء حوار مع مصر والسلطة الفلسطينية ودول الخليج وتركيا والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة، من أجل التوصل لاتفاقيات بخصوص عدم اندلاع أعمال عنف جديدة، وعدم حدوث كارثة إنسانية هناك، ودراسة إمكانية بناء ميناء ومحطة تحلية مياه البحر، ونقل الغاز للقطاع عبر أنابيب لتوليد الطاقة.

وانتخاب دونالد ترامب رئيسا للولايات المتحدة، يُمكن إسرائيل من العمل في بيئة غير مشكك فيها

بالشق الفلسطيني، بل على العكس مؤيدة لخطواتها. لكن كل ذلك، يتطلب من إسرائيل أن تقرر أية حدود تريد إن كان باتفاق أو دون اتفاق.

الاستعدادات العسكرية لمواجهة واسعة مع حزب الله وحماس - تفيد الحروب السابقة أن التصعيد مع حزب الله يأتي من إسرائيل، التي تقصف قوافل السلاح المتوجهة من سوريا إلى لبنان. ومن الضروري لإسرائيل، إعادة دراسة سياستها بهدف الاستمرار في وقف تدفق الأسلحة إلى حزب الله، مع تحمل مخاطر صغيرة.

وفي حال المواجهة مع حزب الله على إسرائيل الحرص على توجيه ضربة مسبقة ضد مصادر قوته بهدف تحييدها خلال وقت قصير، وتحديد كل البنى التحتية في لبنان كهدف للقصف، والاستعداد لحسم المعركة البرية بسرعة. وعلى إسرائيل، في حال توجيهها ضربة قاسية ضد حزب الله، الانتباه إلى الوجود الإيراني (الموافق عليه غريبا والمدعوم من روسيا) الذي سيطلب من التنظيمات التابعة له في سوريا شن حرب على إسرائيل من الجولان.

وتدرك إسرائيل حدود القوة مع حزب الله ومع إيران، بعد الوجود الروسي العسكري الداعم لهما في سوريا. ومن أجل ذلك، وقبل اندلاع أية حرب، على إسرائيل التوصل مع روسيا إلى قواعد صراع جديدة قبل الحرب، وليس بعدها. وفي حالة الحرب مع حماس، يجب العمل على تقصير وقت المعركة معها، ووضع تكتيكات ومفاجآت، وعدم احتلال قطاع غزة.

وفي الجبهتين على إسرائيل، التوصل لتفاهات مع إدارة الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترامب، حول الخطوط الإسرائيلية الحمراء، ومعايير استخدام القوة.

استراتيجية مواجهة تعزيز محور إيران وحزب الله في سوريا - مواجهة المحور المذكور تتطلب من إسرائيل: رفض عمليات القتل الجماعي في سوريا، والمساهمة المحسوبة في إفشال التيار المتطرف، ومنع نقل أسلحة نوعية لحزب الله، وجباية الثمن ممن يهاجمها، ومواجهة تموضع مجموعات إرهابية على الحدود الشمالية مع إسرائيل، وتعزيز العلاقات ومواصلة تقديم المساعدات ودعم السكان السنة المعتدلين في المناطق الواقعة خارج الحدود الإسرائيلية.

تحسين العلاقات مع الدول العربية السنية - يتبين من الحوار الذي جرى مع المملكة العربية

السعودية، أن حل القضية الفلسطينية ركيزة أساسية في تحويل العلاقات مع إسرائيل إلى علاقات علنية. ورغم فقدان القضية الفلسطينية أهميتها عند الأنظمة العربية، ما زالت قضية مهمة جدا عند الشعوب العربية، وعدم حلها سيظل عائقا حقيقيا أمام إقامة مصالح مشتركة مع إسرائيل. وإقامة علاقات بين إسرائيل والدول العربية، ليس فقط مصلحة استراتيجية لها، بل يحولها لدولة شرعية في الشرق الأوسط وشريك اقتصادي، وحليف في مواجهة الأعداء المشتركين.

الاستعدادات لحرب ناعمة - لفشل أعداء إسرائيل في مواجهتها عسكريا، يشنون عليها حربا دبلوماسية وإعلامية وعبر الشبكات الاجتماعية، بهدف إضعافها. ولمواجهة ذلك، على إسرائيل، وضع استراتيجية جديدة وبناء أطر عمل متناسقة بين مختلف الجهات، لمواجهة التحديات والتصدي لها.

استمرار تطور القوة التكنولوجية - تعتبر إسرائيل واحدة من أوائل الدول المتقدمة في التكنولوجيا العسكرية -المنتجة اقتصاديا. ولقلة مواردها الطبيعية، على إسرائيل الاستمرار في تطوير القدرات التكنولوجية العسكرية، معتمدة في ذلك على تطوير التعليم والثقافة وتشجيع ثقافة المبادرة والتجديد، وتجنيد المبادرين الشبان للجيش لمواجهة تحديات الحروب التكنولوجية.

إزالة الحواجز مع الوسط العربي في إسرائيل - يعتبر دمج العرب في إسرائيل مصلحة أمنية وقومية. ومن أجل تحقيق ذلك يجب العمل على: عدم تأجيل خطط التنمية وعدم سن قوانين تقلل من المساواة بين اليهود والعرب وأن تصرح القيادات اليهودية بمسؤولية، والتصدي للمواقف العنصرية السائدة في الوسط اليهودي ضد العرب.

حوار وطني سياسي- اجتماعي حول مستقبل دولة إسرائيل - من أجل الوصول للهدف المنشود، المتمثل بقيام دولة إسرائيل دولة يهودية ديمقراطية آمنة وأخلاقية. على القيادات السياسية في الدولة إجراء حوار مجتمعي بكل الوسائل المتاحة من أجل التوصل لميثاق يتضمن قواعد لعبة جديدة في الساحة السياسية والاجتماعية ومنع الاستقطاب الحاد ومنع سن قوانين غير ديمقراطية وتغيير طريقة نظام الحكم والبحث عن توازن بين السلطة التنفيذية وبين الديمقراطية، ووضع رقابة قضائية والتوصل لترتيبات تمنع الفساد ولا تمس بالحقوق الأساسية للمدنيين، بهدف تحسين

مواجهة التحديات وتفضيل الأهداف الاستراتيجية على الأهداف التكتيكية.

ويتطلب الأمن القومي الإسرائيلي خلق توازن بين الضغوط التالية:

١. بين الرغبة بمد فترة الهدوء الأمني، وبين ضرورة القيام بنشاطات أمنية هدفها خلق واقع جديد وآمن أكثر، ومنع تعاظم قوة العدو، كي لا ندفع الثمن باهظا مستقبلا.
٢. بين الضغوط النابعة من قوة إسرائيل العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية، وبين ضعفها السياسي النابع من استمرار سيطرتها على الفلسطينيين.
٣. بين القضايا الملتهبة على المدى القصير مثل المواجهة مع حزب الله وحركة حماس، وبين التطلع المستقبلي لإيران مع دول أخرى بالحصول على السلاح النووي.
٤. بين الاستثمار وبناء القوة الصلبة، وبين الحاجة إلى تطوير واستثمار قدرات هدفها تحويلها لقوة ناعمة.
٥. قيود استخدام القوة الإسرائيلية في مواجهة أعدائها.
٦. بين القدرات العسكرية والتفوق الإسرائيلي، وبين الصعوبات في تحقيق الأهداف السياسية بالقوة العسكرية.
٧. بين التوتر القائم في المجتمع والنخب السياسة الحاكمة في إسرائيل حول تحقق النصر، وبين عدمه بعد كل مواجهة.
٨. بين الموارد المخصصة للأمن القومي، وبين الموارد المخصصة للأمن الاقتصادي والتعليمي والاجتماعي.
٩. بين الوضع القائم الذي يليب الرغبة الأمنية على المدى القصير، وبين الحاجة إلى طرح مبادرات ورسم واقع مختلف، وبين مخاطر تواجه طابع دولة إسرائيل على المدى البعيد.
١٠. بين احتمال التوصل لتسوية سياسية، وبين المخاطر الأمنية المرتبطة بمثل هذا الحل.
١١. توازن منظومة الأمن بعناصرها الأربعة (الردع وجمع المعلومات والحسم والدفاع)، وملاءمتها مع البيئة التي تشهد تهديدات، والانجازات المطلوب تحقيقها.
١٢. الحاجة إلى الاجابة على سؤالين هما: أي دولة ستكون دولة إسرائيل مستقبلا؟. وأين نقطة الدمج بين الدولة اليهودية وبين الدولة الديمقراطية الامنة والعادلة؟.

خلاصة

تحاول إسرائيل، ومراكز أبحاثها المختلفة ومفكرها السياسيين وخبرائها الأمنيين تصويرها، وكأنها دولة إقليمية عظمى من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، وأن الدول العربية ساحة خلفية لها، متناسية أن الدول ذات الثقل الإقليمي تتمتع بميزات كثيرة ومتنوعة مثل موقع الدولة ومساحتها وعدد سكانها وامتدادها الجغرافي والتاريخي والديني وقوتها الاقتصادية مثل مصر وتركيا وإيران وحتى السعودية، وغيرها من الدول، وهي ميزات غير متوفرة في دولة إسرائيل، التي نجحت بتحويل نفسها، بمساعدة من الغرب خاصة من الولايات المتحدة الأمريكية، إلى قلعة عسكرية محصنة، وليست قوة إقليمية.

هي كما يصفها منظرو اليمين الحاكم في إسرائيل، أكبر حامله طائرات للولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وكان وزير الخارجية الأمريكي السابق جون كيري أكثر إنصافاً في وصفه لإسرائيل عندما انتقد ما يسمى بالأمن القومي الإسرائيلي بقوله: عن أي أمن قومي يتحدثون. وعليه ليس غريباً، لا على التقرير ولا على قيادات دولة إسرائيل، التركيز على ضرورة المحافظة على التحالف مع الولايات المتحدة، وإقناعها بإعادة ملف إيران النووي في مقدمة أولويات السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وتجاهل حل نهائي للقضية الفلسطينية لصالح مشاريع محلية جديدة.

وحول التهديدات العسكرية التي تواجه إسرائيل، ورغم التفوق الإسرائيلي وعدم القدرة على خوض حرب ضدها إن كان من قبل جيوش أو تنظيمات، لا بد من التأكيد على أن الحروب التي خاضتها إسرائيل منذ الغزو الأول للبنان عام ١٩٨٢، أثبتت أنها دولة صغيرة، غير قادرة على التمدد، بل على العكس، تنقلص داخلياً بفعل أمرين هما: زيادة عدد الفلسطينيين في فلسطين التاريخية، الذين لم تنجح بطردهم منها حتى بعد ١٠٠ عام من الصراع معهم، وسياسة الفصل أحادي الجانب من قطاع غزة، الذي تخشى من إعادة احتلاله لأسباب مختلفة من ضمنها دفع تكاليف يومية تقدر بخمسة ملايين دولار يومياً.

ولم تكن البيئة الاستراتيجية المريحة لإسرائيل، التي تحدث عنها التقرير الحالي والتقارير السابقة، نتاج فعل إسرائيلي. بل هي نتاج، عوامل وسياسات عربية، لم تأخذ بعين الاعتبار التهديد الذي تشكله إسرائيل، بل فضلت التركيز على المهددات التي تواجه أنظمة حكمها وليست دولها.

خلاصة القول، تبحث دولة إسرائيل عن المهددات الصغيرة والكبيرة والسلبيات والإيجابيات التي مرت عليها سابقاً، وتحاول استقراء المستقبل، لوضع استراتيجيات مناسبة لمواجهة سلبياته. في حين، نستغل نحن الفلسطينيون والعرب وحتى المسلمون، إمكانياتنا البشرية والإقتصادية والجغرافية الهائلة في حروب وصراعات داخلية وعرقية ومذهبية، توفر لإسرائيل هدوءاً وبيئة استراتيجية، لم تتوفر لها منذ إقامتها حتى هذا اليوم.

أوراق المؤسسة

في متحف الشهيد ياسر عرفات، وأنت تصعد الممرات في الطريق الى غرفة نومه الصغيرة وسريره العسكري البسيط حيث اتكأ وحلم في ليلته الأخيرة، ترافقك «الرواية»، تأخذك من يدك وتدفعك من كتفك. اللغة المتقشفة المحمولة على الوثيقة والبحث، المتخففة من بلاغة الوصف وانشاءات البطولة ومناهات السرد، المكتفية بقسوة الحقيقة وبساطة الايمان وامتداد الرحلة.

مثل دورية عنيدة تواصل سيرها وتجدها تصل سرير الرحلات الضيق ذاك وأحلام صاحبه العظيمة وتضيفها الى أحمالها الكثيرة دون أن تتوقف.

”الرواية“ كما هي

دخلت فلسطين القرن العشرين وهي جزء من الإمبراطورية العثمانية، وشكّل انتماؤها العربي وتاريخها الغني وتعدّد الطبقات الحضارية فيها وكونها مركزاً للديانات السماوية الثلاث هويتها الثقافية الخاصة، كما شكّلت مدنها الكبيرة الناشطة مثل القدس وحيفا ويافا مراكز ثقافية على المتوسط.

تميّزت فلسطين بنمط حوض البحر المتوسط الزراعي، فتركز الإنتاج على الزراعة المكثفة بسبب افتقار البلاد للموارد الطبيعية، كما مارس أهلها الصناعات اليدوية ذات التقاليد التراثية العريقة المرتبطة بتاريخ موقعها الخاص وجغرافيته.

بلغ عدد سكان فلسطين مطلع القرن العشرين نحو ستمائة ألف نسمة، من بينهم نحو (ستة وثلاثين) ألف يهودي، أي قرابة (ستة بالمائة) من السكان، والذين هاجر غالبيتهم إلى فلسطين لأسباب دينية صرفة، فيما كانت بقيتهم من أهل البلاد.

الهجرة اليهودية إلى فلسطين

شكّلت مستوطنه «بيت حنن» التي أقامتها مجموعة من المتزمتين اليهود على أراضي قرية ملبس العربية قرب نهر العوجا، في العام (ألف وثمانمائة وثمانية وسبعين)، بداية الاستيطان اليهودي في فلسطين.

وقد شهدت فلسطين في الفترة الواقعة بين (ألفٍ وثمانمائةٍ وواحدٍ وثمانين) و(ألفٍ وتسعمائةٍ وأربعةٍ عشر) موجتين من الهجرة، كانت الأولى من أوروبا الشرقية واليمن، وبدأت في العام (ألفٍ وثمانمائةٍ وواحدٍ وثمانين) واستمرت حتى العام (ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثة)، ويقدر عدد اليهود الذين وصلوا فلسطين خلالها بـ ٢٥,٠٠٠-٣٠,٠٠٠ ألفاً، وتلتها موجة ثانية في الفترة الواقعة بين العام (ألفٍ وتسعمائةٍ وأربعة) والعام (ألفٍ وتسعمائةٍ وأربعة عشر)، واعتبرت الأكثر أهمية وتأثيراً، حيث وصل خلالها ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ مهاجر إلى فلسطين العثمانية غالبيتهم من روسيا القيصرية، كما وصل خلالها بعض المهاجرين من اليمن، وعلى الرغم من أن هذه الهجرة ساهمت في بناء مستوطنات يهودية في فلسطين في عدة أماكن، فإن الكثيرين يعتبرونها فاشلة؛ لأن ما يقرب من نصف هؤلاء المهاجرين غادر فلسطين قبل بدء الحرب العالمية الأولى.

في العام (ألفٍ وثمانمائةٍ وسبعةٍ وتسعين)، تأسست المنظمة الصهيونية بزعامة ثيودور هيرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عُقد في مدينة بازل السويسرية، وفي العام (ألفٍ وتسعمائةٍ وواحد) أنشأت المنظمة الصندوق القومي اليهودي؛ بهدف شراء الأراضي في فلسطين.

في العام (ألفٍ وتسعمائةٍ وستة عشر) جرى توقيع اتفاقية (سايكس بيكو) السرية التي قسّمت الهلال الخصيب بين فرنسا وبريطانيا، وفي الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر من العام (ألفٍ وتسعمائةٍ وسبعة عشر) أصدر وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور في رسالة موجهة إلى البارون اليهودي ليونيل وولتر دي روتشيلد، ما سيعرف بوعيد بلفور، نصّت الرسالة على أن «حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي».

وفي التاسع من كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه دخلت القوات المتحالفة بقيادة الجنرال ألنبي القدس لتصبح بريطانيا قوة الاحتلال في فلسطين.

في هذه الأجواء انعقد المؤتمر الفلسطيني العام الأول في القدس في السابع والعشرين من كانون الثاني/يناير عام (ألفٍ وتسعمائةٍ وتسعة عشر)، وبعث المؤتمرين مذكرتين إلى مؤتمر صلح باريس يرفضون فيهما إعلان بلفور، ويطالبون باستقلال فلسطين.

في الثامن والعشرين من حزيران/يونيو من العام نفسه، تم إبرام معاهدة فرساي، وتوقيع عهد عصبة الأمم كجزء من المعاهدة، وأنشأ البند الثاني والعشرون من العهد نظام الانتداب من ثلاث درجات، واعتبرت الأراضي العربية (التي كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية) مصنفة ضمن الدرجة الأولى.

تأسست الإدارة البريطانية المدنية في فلسطين في الأول من تموز - يوليو عام (ألفٍ وتسعمائةٍ

وعشرين)، وتم اختيار هريرت صموئيل اليهودي الصهيوني كأول مندوبٍ سامٍ.

في العام نفسه، أصدرتْ عُصبةُ الأممِ تقريراً حولَ التعدادِ السكانيِّ في فلسطينَ، والذي أشارَ إلى وجودِ سبعمائة ألفِ نسمةٍ يعيشونَ في فلسطينَ بينهم ستةٌ وسبعونَ ألفاً من اليهودِ، معظمُهُم دخلَ فلسطينَ في العقودِ الأربعةِ الأخيرةِ. وقد شهدتْ فلسطينُ في هذه الفترةِ ما يمكنُ تسميتهُ موجةَ الهجرةِ اليهوديةِ الثالثةِ، والتي جرت في الأعوامِ الواقعةِ بينَ (ألفٍ وتسعمائةٍ وتسعةَ عشر) و(ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثةٍ وعشرين).

في الرابع والعشرينَ من تموز/ يوليو (ألفٍ وتسعمائةٍ واثنين وعشرين) اعتمدَ مجلسُ عصبةِ الأممِ الانتدابَ البريطانيَّ على فلسطينَ، وتضمَّنَ الانتدابُ نصَّ إعلانِ بلفورَ وأصبحت بريطانيا فعلياً قوةَ الانتدابِ في العامِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثةٍ وعشرين)، وهو ما فتحَ آفاقاً واسعةً أمام تدفُّقِ الهجرةِ اليهوديةِ إلى فلسطينَ منَ العامِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثةٍ وعشرين) وحتى النكبةِ الفلسطينيةِ في العامِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وثمانيةٍ وأربعين).

نشأة ياسر عرفات

كان ياسر عرفاتُ في الرابعةِ من عُمره عندما تُوفيت والدتهُ «زهوةُ»، ليعودَ إثرَ ذلكَ مع شقيقه الأصغر «فتحِي» من القاهرةِ إلى القدسِ في العامِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثةٍ وثلاثين)، ليعيشا في بيتِ جدِهما في كنفِ خالِهما «سليم أبو السعود» في الزاويةِ الفخريةِ في الجهةِ الجنوبيةِ الغربيةِ من الحرمِ القدسيِّ الشريفِ.

في ذلكَ الوقتِ كانتْ فلسطينُ تعيشُ أحداثاً مصيريةً تُوجتُ باستشهادِ الشيخِ عز الدين القسامِ في أحراشِ يعبدَ مع ثلاثةٍ من رفاقه في العامِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وخمسةٍ وثلاثين)، الأمر الذي كانَ مقدمةً لاندلاعِ ثورةِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وستةٍ وثلاثين).

وفي نيسانَ منَ العامِ نفسه تشكَّلتِ الهيئةُ العربيةُ العليا بمبادرةٍ من الحاجِّ أمين الحسيني، واعتُبرتِ الهيئةُ الكيانَ السياسيَّ الممثلَ للفلسطينيينَ. كما شهدتْ تلكَ الفترةُ موجةً من الهجماتِ والأعمالِ الإرهابيةِ اليهوديةِ التي نفذتها الهاغانا إلى جانبِ منظماتٍ إرهابيةٍ يهوديةٍ أخرى مثل الأرجونِ ولؤمي.

في ظل تدفقِ الهجرةِ اليهوديةِ وتصاعدِ الهجماتِ الارهابيةِ للمنظماتِ العسكريةِ اليهوديةِ في فلسطين دعتِ الهيئةُ العربيةُ العليا إلى إعلانِ الإضرابِ الشاملِ لدعمِ المطالبِ الفلسطينيةِ لتشكيلِ

حكومة وطنية في البلاد، ولقيت دعوة الهيئة استجابة شعبية واسعة، حيث استمر الإضراب ستة أشهر وشمل مختلف مناحي الحياة في فلسطين، وترافق مع تحركات شعبية واسعة نُفذت خلالها هجمات على جنود الانتداب البريطاني والمواقع البريطانية والمستعمرات اليهودية. في المقابل صعدت الإدارة البريطانية إجراءاتها القمعية بما فيها تدمير أجزاء واسعة من مدينة يافا، وحظر الهيئة العربية العليا، وإنشاء محاكم عسكرية أصدرت (ثمانية وخمسين) حكماً بالإعدام حتى نهاية العام (ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين)، حين أصدر مالكوم ماكdonald وزير المستعمرات البريطانية في حينه، في السابع عشر من أيار/مايو من العام (ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين) كتاباً أبيض يشرح فيه تصوّر بريطانيا لحل المشكلة الفلسطينية، والقائم على: استقلال مشروط لدولة فلسطينية واحدة بعد مضي عشر سنوات، والسماح لـ ١٥,٠٠٠ مهاجر يهودي فقط بدخول فلسطين كل سنة لمدة خمس سنوات، وحماية حقوق الفلسطينيين في أرضهم من استحواد الصهاينة عليها.

مع نهاية العام (ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين) عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء ودول المحور، هدأت ثورة ستة وثلاثين، ولكن ثلاث سنوات من المواجهة مع الجيش البريطاني والمنظمات المسلحة اليهودية ستترك آثارها المدمرة على القدرات الفلسطينية وتُسبب في استنزاف قدرات الشعب الفلسطيني الذي كان يستعد للمواجهة الكبرى مع القوة المتنامية للاستعمار اليهودي ومؤسساته ومنظماته العسكرية في فلسطين.

إرهاصات النكبة

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر عام (ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين) أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار (مائة وواحداً وثمانين) والذي ينص على تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وقد خصّص القرار نحو ٥٦,٥% من أراضي فلسطين للدولة اليهودية ونحو ٤٣% للدولة العربية، ونظاماً دولياً خاصاً لمدينة القدس، كما دعا القرار إلى اتحاد اقتصادي بين الدولتين.

رفض الفلسطينيون قرار التقسيم وارتفعت الدعوات لمقاومته، رغم أن قوانين الانتداب البريطاني وملاحقته للشوار ومصادرة السلاح وضرب القوى الفلسطينية الوطنية وتفكيك قدراتها قد أنهكت المجتمع الفلسطيني واستنزفت قواه.

في كانون الثاني/يناير من العام (ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين) شكّلت اللجنة الفنية العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية قوة غير نظامية من المتطوعين العرب بقيادة السوري «فوزي

القوافجي» تحت اسم «جيش الإنقاذ» لمساعدة الفلسطينيين على مقاومة قرار التقسيم ومواجهة المنظمات اليهودية المسلحة. وهو الجيش الذي كان يفتقر للتدريب والتنظيم.

تصاعدت مقاومة الشعب الفلسطيني لمخطط التقسيم، فتشكّل «جيش الجهاد المقدس» تحت قيادة عبد القادر الحسيني والذي حاضّ مواجهاتٍ في أنحاء فلسطين، وفي الثامن من نيسان/إبريل، استشهد عبد القادر وهو يقودُ هجوماً مضاداً ناجحاً على قرية القسطل، فترك استشهاده صدمةً في كل البيوت الفلسطينية.

تصاعد الإرهاب الصهيوني في عموم فلسطين وتسبّب في موجات هجرة جماعية للفلسطينيين وبلغ ذروته في التاسع من نيسان/إبريل، في اليوم التالي لاستشهاد عبد القادر الحسيني، عندما نفّذت عصابات الأرجون وشتيرن بدعيّ من قوات البالمخ مذبحه بشعةً في قرية دير ياسين غرب القدس، بعد احتلال القرية ومهاجمة سكانها بشكلٍ وحشيّ. نتج عن ذلك مقتل نحو ١٠٧ من سكان القرية، بما في ذلك النساء والأطفال حيث تم إحراق بعضهم أو دفنهم أحياءً أو رميهم في الآبار.

النكبة

عشية تنفيذ القرار البريطانيّ بإنهاء الانتداب على فلسطين في الرابع عشر من أيار/مايو عام (ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين) ١٩٤٨ أعلن دافيد بنغوريون قيام دولة إسرائيل بقوة قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة (مائة وواحد وثمانين).

وفي الخامس عشر من أيار/مايو اجتازت الجيوش العربية حدود فلسطين من الأردن وسورية ومصر، وخلال أسابيع تمكّنت المنظمات اليهودية العسكرية من احكام سيطرتها على الأراضي التي خصصها قرار التقسيم للدولة اليهودية واحتلال نصف الأراضي التي خصصها القرار للدولة العربية وسيطرت بالتالي على نحو ٧٨٪ من أراضي فلسطين الانتدابية.

تكشفت النكبة التي حلّت بالشعب الفلسطيني عن فقدان فلسطين ككيان، وتدمير مجتمعيها، واقتلاع أكثر من ٧٥٠ ألف مواطن، يشكلون نصف الفلسطينيين، وتحولهم خلال أسابيع قليلة إلى مجاميع من اللاجئين المنتشرين في مخيمات اللجوء في دول الجوار، الأردن ولبنان وسورية وباقي فلسطين.

وفي أيلول/سبتمبر عام (ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين) أعلنت الهيئة العربية العليا تشكيل حكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي متخذةً من مدينة غزة مقراً لها.

في الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر عام (ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين) أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار (مائة وأربعة وتسعين) الذي أكد على وضع القدس تحت إشراف الأمم المتحدة وعلى حقّ اللاجئين بالعودة الى ديارهم والتعويض، كما دعا القرار الى تشكيل لجنة توفيق تتكون من ثلاث دول.

خلال النصف الأول من العام ١٩٤٩ وقّعت كل من مصر ولبنان والأردن وسورية اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل التي حدّدت خطوط الهدنة، وخضع قطاع غزة للإدارة المصرية، وفي نيسان/إبريل من العام (ألف وتسعمائة وخمسين) أصبحت الضفة الغربية رسمياً جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية. في الثامن من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٩، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار (ثلاثمائة واثنين) والذي تأسست بموجبه وكالة غوث وتشغيل لاجئي فلسطين في الشرق الأدنى، حيث لعبت برامج «الأونروا» الصحية والتعليمية دوراً حاسماً في منع تفاقم الكارثة الانسانية الفلسطينية.

النكبة

العدوان الثلاثي واحتلال إسرائيل قطاع غزة وسيناء

في تموز/ يوليو من العام ١٩٥٦ أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس، كان ذلك الإعلان إشارة البدء لما عُرف ب«العدوان الثلاثي» على مصر، الذي شنته كل من فرنسا وبريطانيا وإسرائيل، حيث قامت القوات الإسرائيلية باحتلال قطاع غزة مرتكبة أكثر من مذبحه في طريقها عبر سيناء نحو قناة السويس لتلتقي بالقوات الإنجليزية والفرنسية التي أنزلت بالمظلات على مدن القناة. وفي ٨ اذار/ مارس ١٩٥٧ انسحبت القوات الاسرائيلية من شرم الشيخ وقطاع غزة بعد ضغوط دولية ودخلت قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة.

شهد عام (ألف وتسعمائة وأربعة وستين) مؤتمر القمة العربية الأولى الذي دعا إليه الرئيس جمال عبد الناصر في القاهرة، وتم خلاله الإعلان عن إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، وكلف المؤتمر ممثل فلسطين لدى الجامعة العربية أحمد الشقيري إجراء الاتصالات ووضع تقرير للمؤتمر في دورته التالية، وفي العام نفسه عقد المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس تحت اسم المجلس الوطني الفلسطيني، الذي أعلن قيام منظمة التحرير الفلسطينية وصادق على الميثاق القومي والنظام الأساسي وانتخب الشقيري رئيساً للجنة التنفيذية للمنظمة.

احتلال باقي فلسطين وشبه جزيرة سيناء والجولان

اندلعت الحرب في الشرق الأوسط في الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، حيث شنت إسرائيل هجوماً استباقياً مباعثاً واسع النطاق على الجيش المصري. شاركت سورية وكذلك الأردن في الحرب، وخلال أيام قليلة احتلت إسرائيل باقي فلسطين الانتدابية (الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية وقطاع غزة)، إضافة إلى الجولان السوري وشبه جزيرة سيناء المصرية.

تسببت هزيمة عام (ألف وتسعمائة وسبعة وستين) التي عُرفت بـ«النكسة» بموجة نزوح كبيرة من الضفة الغربية وغزة وصلت إلى نحو (مائتي ألف) نازح اتجه غالبيتهم نحو الأردن، حيث أُقيمت سلسلة جديدة من المخيمات، سُميت في حينها «مخيمات الطوارئ» لتمييزها عن مخيمات لاجئي النكبة.

وقبل انقضاء الأسبوع الأول على الاحتلال باشرت السلطات الإسرائيلية تنفيذ سياسات الهدم والتهجير، فقامت بتدمير حي المغاربة العريق في القدس الشرقية وتهجير ٦٥٠ من سكانه.

وفي حزيران/يونيو ١٩٦٩ قامت إسرائيل بهدم الزاوية الفخرية زاوية أبو السعود، حيث ولد ياسر عرفات وعاش طفولته المبكرة بعد وفاة والدته.

الفدائيون

في ٢١ آذار عام (ألف وتسعمائة وثمانية وستين)، اجتاحت قوات مدرعة إسرائيلية تحت غطاء جوي كثيف نهر الأردن عبر عدة محاور نحو مخيم الكرامة للاجئين الفلسطينيين الذي تحول بعد هزيمة ٦٧ إلى حاضنة للفدائيين، كانت المهمة المعلنه للحملة تدمير المخيم والقضاء على حركة المقاومة الفلسطينية وتشكيلاتها العسكرية التي شكّلت «العاصفة»، الجناح العسكري لحركة فتح، عمودها الفقري.

انتهت المعركة التي شارك فيها إلى جانب الفدائيين أهالي المنطقة ووحدات مرابطة في المنطقة من الجيش الأردني بفشل ذريع للقوات المهاجمة التي انسحبت إلى ما وراء النهر بعد أن تكبدت خسائر كبيرة مخلفة وراءها أسلحتها في أرض المعركة.

كان الانتصار في معركة الكرامة نقطة تحول رئيسة في انطلاقة العمل الفدائي الفلسطيني، حيث اندفع آلاف المتطوعين الفلسطينيين والعرب نحو قواعد الفدائيين ومعسكرات العاصفة؛ ما زاد على قدرة استيعاب هذه القواعد وإمكاناتها على التسليح والتدريب، وشكل إصرار أبو عمار وقيادة

فتح على المواجهة والصمود تكريساً له كقائدٍ قادرٍ على اتخاذ القرارات المصرية وإدارة المواجهة. في العاشر من تموز من العام نفسه وفي الدورة الرابعة للمجلس الوطني في القاهرة دخلت حركة فتح منظمة التحرير، وفي الدورة الخامسة للمجلس المنعقدة في العاصمة المصرية في الرابع من شباط/ فبراير (ألف وتسعمائة وتسعة وستين) تم انتخاب ياسر عرفات رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير.

تعزيرُ الوضع الفلسطيني عربياً ودولياً (الشرعية) والانفتاح السياسي

الاجتياح الإسرائيلي للبنان وحصارُ بيروت

في الرابع من حزيران/يونيو عام (ألف وتسعمائة واثنين وثمانين) بدأ الجيش الإسرائيلي، بقيادة «أريئيل شارون»، عملية غزو واسعة للبنان تحت شعار «تدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية»، وخلال أيام احتل جنوب لبنان قاطعاً نهر الأبي شمال صيدا وصولاً للعاصمة بيروت التي حاصرها في ١٣ حزيران/يونيو. تواصل حصارُ المدينة تحت القصف من البر والبحر والجو على مدار (ثمانية وسبعين) يوماً، دون أن تتمكن القوات الغازية من اقتحامها في ظل المقاومة التي أبادها المدافعون عن المدينة.

أسفرت المفاوضات التي أدارها المبعوث الأميري فيليب حبيب بين منظمة التحرير وإسرائيل عن اتفاقٍ تنهي هوجبه القوات الإسرائيلية حصارها، ويغادر المقاتلون الفلسطينيون المدينة بسلاحهم. في الثالث والعشرين من آب/ أغسطس عام (ألف وتسعمائة واثنين وثمانين) وبينما كان المقاتلون الفلسطينيون يغادرون بيروت، انتخب مجلس النواب اللبناني بشر الجميل - القائد العسكري لقوات الكتائب - رئيساً للبنان، وبعد ثلاثة أسابيع على انتخابه في الرابع عشر من أيلول/سبتمبر اغتيل مع عددٍ من مساعديه. وفي الخامس عشر من أيلول/سبتمبر دخلت القوات الإسرائيلية للمرة الأولى عاصمته عريضة، حيث سمحت لمجموعاتٍ من قوات حزب الكتائب اللبناني بدخول مخيمي صبرا وشاتيلا واقتراف مذبحه بشعة راح ضحيتها أكثر من ٨٠٠ من سكان المخيمين معظمهم من الأطفال والنساء، نفذت المجزرة تحت مراقبة الجيش الإسرائيلي وبصره على الرغم من الوعود التي قدمتها إسرائيل للوسيط الأميري قبل مغادرة مقاتلي منظمة التحرير بضمان سلامة اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

عادَ ياسرُ عرفاتُ سراً وعن طريق البحرِ إلى طرابلسَ في شمالِ لبنانَ في ٢٠ أيلول/سبتمبر من العامِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثة وثمانين) لينضمَّ إلى قواته المحاصرة في المدينة ومخيّماتها من قبل مجموعات فلسطينية منها «فتح الانتفاضة» المنشقة عن حركة فتح، والجهةُ الشعبيةُ القيادةُ العامةُ (جماعة أحمد جبريل) المدعومة من النظامين في سورية وليبيا. بعد تدخلٍ دوليٍّ غادرَ عرفاتُ طرابلسَ ومعهُ المقاتلونَ الفلسطينيونُ، حيث قام في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر بمفاجأةٍ كبيرةٍ، حين زار القاهرةَ في طريقه من طرابلس إلى اليمن، والتقى الرئيسَ المصريَّ حسني مبارك، ما أثار ردودَ فعلٍ فلسطينيةً ناقدةً.

الاستعمارُ الاستيطانيُّ للأرضِ الفلسطينيةِ المحتلةِ وتهويدُ القدس

مارستُ سلطاتُ الاحتلالِ الإسرائيليَّةُ طوال أربعة عقودٍ سياسةً استعماريَّةً لمنظمةٍ للأرضِ الفلسطينيةِ المحتلةِ بما في ذلك القدسُ الشرقيَّةُ، وذلك عبرَ الاكتسابِ غيرِ القانونيِّ للأرضِ والنقلِ غيرِ القانونيِّ لأجزاءٍ من مواطنيها المدنيين وبناءِ مستعمراتٍ على الأرضِ الفلسطينيةِ المحتلةِ، وتأسيسِ هيكلِ حياةٍ منفصلٍ للمستعمرين وتطبيقِ نظامٍ قانونيٍّ مختلفٍ عليهم. بالإضافة إلى العديدِ من الإجراءاتِ الأخرى الهادفة إلى تغييرِ التركيبةِ السكانيةِ في الأرضِ الفلسطينيةِ المحتلةِ، بما فيها وبشكلٍ خاصٍ القدسُ الشرقيَّةُ، التي عُرِّلتُ عن محيطها وامتدادها في الضفة الغربية.

في انتخابات عام (ألفٍ وتسعمائةٍ وسبعةٍ وسبعين) وصلَ حزبُ الليكودِ اليمينيُّ بقيادة مناحيم بيغن إلى السلطة للمرة الأولى منذ تأسيسِ إسرائيل، وأطلقَ الحزبُ موجةً واسعةً من الاستعمارِ الاستيطانيِّ في أراضي فلسطين المحتلةِ بعدَ العامِ سبعةٍ وستين، مستكملاً بذلك - وبوتائرٍ أسرع - ما قامت به حكوماتُ حزبِ العملِ المتعاقبة، والتي شرعتْ منذَ العامِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وثمانية وستين) في بناءِ المستعمراتِ وفقِ خطةٍ إيغال ألون، وادّعتْ خلال ذلك أن المستعمراتِ جزءٌ من الخطةِ أو الترتيباتِ الأمنيةِ الإسرائيلية. في وقتٍ لاحقٍ جاء ما يمكن تسميته المرحلة الثالثة من الاستعمارِ الاستيطانيِّ، والتي ركّزت على العاملِ الديموغرافيِّ إلى جانبِ العاملِ الأمنيِّ والأيدولوجيِّ من خلالِ توفيرِ ظروفِ حياةٍ مريحةٍ للمستعمرين، وقد تبلورَ ذلك بشكلٍ أوضح فيما يُسمى الكتل الاستعماريَّة.

وفي العامِ (ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثة وتسعين) عندَ توقيعِ إعلانِ المبادئِ بين حكومةِ إسرائيلِ ومنظمةِ التحريرِ الفلسطينيةِ، بلغَ عددُ المستعمرينَ الاسرائيليين (مائتين وثمانين ألف) مستعمر، من بينهم (مائة وعشرون ألفاً) يقيمون في خمسين مستعمرةً في الضفة الغربية، والباقي يقيمُ في تسع مستعمراتٍ في القدس الشرقية ومحيطها، ولم يسلمَ قطاعُ غزة من الاستعمارِ الاستيطانيِّ الإسرائيليِّ، على الرغم من الفقرِ الشديدِ للقطاعِ وكثافته السكانية العالية، فقد أقامتْ إسرائيلُ إحدى عشرة

مستعمرةً ضُمَّتْ نحوَ ثمانيةِ آلافِ مستعمِرٍ وسيطرتُ على ثلثِ أراضيِ القطاعِ البالغِ مساحتهُ (ثلاثمائةٍ وستينَ كيلو متراً مربعاً)، وهو الوضعُ الذي استمرَّ حتى خُطِّبَ الفصلُ الأحاديُّ في العامِ (ألفين وخمسةً).

ومع العامِ (ألفين وأربعةً) وبالرغمِ من عمليةِ السلامِ بلَغَ عددُ المستعمريِّنَ نحوَ (أربعمائةِ ألفِ) مستعمِر، جميعُهُمُ يخضعونَ للقانونِ الإسرائيليِّ، من بينهمُ (مائةٌ وثمانونَ ألفَ مستعمِر) في القدسِ الشرقية.

طبقتِ إسرائيلُ العديدَ من السياساتِ والإجراءاتِ القمعيةِ ضد الفلسطينيين المدنيين عبر أربعةِ عقودٍ من احتلالها الأراضي الفلسطينية، إلى جانبِ الاستعمارِ الاستيطانيِّ ضدَّ السكانِ، بما في ذلكِ القتلُ وإيقاعِ الإصاباتِ، والحدُّ من حريةِ حركةِ الأفرادِ والبضائعِ، والاعتقالُ الجماعيِّ والفردِيِّ، والتعذيبُ، والإبعادُ، وهدمُ البيوتِ، وتجريفُ الأراضيِ واقتلاعُ الأشجارِ، بما فيها أشجارُ الزيتونِ المُعمَّرةُ، واستغلالُ المصادرِ الطبيعيةِ، خاصةً المياهَ، علاوةً على التضييقِ الاقتصاديِّ الخانقِ، كذلكِ شنتُ اجتياحاتٍ عسكريةً وحروباً صغيرةً ضد مناطقٍ مختلفةٍ.

الانتفاضةُ (انتفاضةُ الحجارةِ)

في الثامنِ من كانونِ الأولِ/ديسمبرِ عامَ (ألفٍ وتسعمائةٍ وسبعةٍ وثمانين) أقدمَ سائقُ شاحنةٍ إسرائيليُّ على دهبسِ مجموعةٍ من العمالِ الفلسطينيينِ من مخيمِ جباليا في قطاعِ غزة، فاندلعتِ الاحتجاجاتُ على أثرِ الحادثةِ في المخيمِ، وانتقلتُ إلى مخيماتِ فلسطينَ وقراها ومدنها، وتحوّلتِ إلى «انتفاضةٍ» شعبيةٍ شاركتُ فيها مختلفُ شرائحِ الشعبِ الفلسطينيِّ.

خلالِ فترةٍ وجيزةٍ تشكّلتِ «القيادةُ الموحدةُ» للانتفاضةِ التي ضُمَّتْ فصائلَ منظمةِ التحريرِ.

تميّزتُ الاحتجاجاتُ بطابعها الشعبيِّ وقدرتها على ابتكارِ أساليبِ الاحتجاجِ والمقاومةِ وتطويرها ضمنَ مهماتٍ واضحةٍ وجدولِ عملٍ تشملُ الشرائحَ الاجتماعيةَ وتغطي التجمعاتِ كافةً.

تركتِ «انتفاضةُ الحجارةِ» - كما أُطلقَ عليها - أثرها على المشهدِ السياسيِّ العربيِّ والدوليِّ وشكّلتِ خلالَ أسابيعٍ من انطلاقها أحدَ الأحداثِ المركزيةِ عالمياً، مستقطبةً ومستعيدةً على نطاقٍ واسعٍ الاهتمامَ والتضامنَ الدوليينِ.

فاجأتُ الانتفاضةُ سلطاتِ الاحتلالِ الإسرائيليةِ وأربكتُ مخططاتها، عبر شمولها وقدرتها على الاستمرارِ وأساليبها وأدواتها؛ ما دفعَ هذهَ السلطاتِ إلى محاولةِ كسرِ اندفاعِ الاحتجاجاتِ

مستخدمةً الأساليب الوحشية كافةً بما فيها سياسة «تكسير العظام» والإبعاد وحملات الاعتقال والاحتلالات وإطلاق الرصاص المطاطي والحي على المحتجين.

اغتيال أبو جهاد

في (السادس عشر) من نيسان/ ابريل عام (ألف وتسعمائة وثمانية وثمانين)، اغتالت مجموعة من «الموساد» خليل الوزير في بيته وأمام أسرته في العاصمة التونسية، كان نائب القائد العام ومسؤول الأرض المحتلة هدفاً استراتيجياً للموساد، وكان اغتياله في تونس محاولة لضرب الانتفاضة الفلسطينية في الضفة وغزة وإحباطها، إضافةً إلى إرباك منظمة التحرير عبر تصفية الرجل الثاني فيها.

لم تكن عملية اغتيال خليل الوزير المرة الأولى التي تُحاول فيها إسرائيل اغتيال قادة منظمة التحرير وكوادرها في تونس، فقد سبقتها في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥ غارة للطيران الإسرائيلي على مقر قيادة المنظمة في حمام الشط والتي كانت حصيلتها نحو (ثمانية وستين) شهيداً.

يحفل تاريخ إسرائيل منذ نشأتها بجرائم اغتيال العديد من القيادات الفلسطينية، والتي شملت قادةً سياسيين ودبلوماسيين ومثقفين. مثل اغتيال القادة الثلاثة في بيروت في (العاشر من) نيسان/ ابريل عام (ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين) كمال ناصر ومحمد يوسف النجار وكمال عدوان، وفي بيروت أيضاً اغتال «الموساد» الكاتب غسان كنفاني في تفجير أودى أيضاً بحياة ابنة شقيقته، كما قام بتنفيذ عدة اغتالات لدبلوماسيين فلسطينيين في عواصم أوروبية، وشخصيات منتخبة في الأراضي الفلسطينية إضافةً إلى قائمة طويلة تبقى حيةً في الوجدان الفلسطيني.

إعلان الاستقلال

دور الثقافة في بناء الشخصية الوطنية الفلسطينية

عملية السلام

في (العشرين من) آب/أغسطس عام (ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين) أسفرت المحادثات السرية بين ممثلي منظمة التحرير والحكومة الإسرائيلية عن التوصل إلى اتفاقية سلام في العاصمة النرويجية

أوسلو. وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه أصدر الطرفان إعلاناً عن ذلك.

في التاسع والعاشر من أيلول/سبتمبر تبادل رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين خطابات الاعتراف المتبادل، حيث اعترفت منظمة التحرير بحق دولة إسرائيل في العيش بسلام وأمن، بينما تضمن خطاب رابين اعتراف الحكومة الإسرائيلية بمنظمة التحرير باعتبارها الممثل للشعب الفلسطيني.

تم اختيار الثالث عشر من أيلول/سبتمبر من العام نفسه ١٩٩٣ لتوقيع إعلان المبادئ بين منظمة التحرير وحكومة إسرائيل في حديقة البيت الأبيض تحت رعاية الرئيس الأميركي بيل كلينتون، حيث جرت المصافحة الشهيرة بين عرفات ورايين.

وفي الحادي عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٣ وجّه شمعون بيرس، وزير خارجية إسرائيل رسالةً إلى «يوهان هولست» وزير خارجية النرويج راعية المفاوضات أكد فيها أنه ستتم المحافظة على المؤسسات الفلسطينية في القدس الشرقية ومصالح الفلسطينيين وأوضاعهم هناك وأن إسرائيل لن تُعرق نشاطاتهم.

العودة للوطن

وصل ياسر عرفات إلى ميدان الجندي المجهول في غزة في الأول من تموز/يوليو عام (ألف وتسعمائة وأربعة وتسعين)، كانت مدن قطاع غزة ومخيماته وبلداته قد نهضت مبكرة لاستقباله، حيث تدفّق إلى شوارع غزة وميادينها والطرق التي سيسلكها الرئيس العائد مئات الآلاف من أبناء القطاع، وهناك اتخذ مقره المؤقت في مكتب يطل على ميناء الصيادين والذي عُرف فيما بعد ب«المنتدى».

كان ياسر عرفات قد شكّل أول حكومة للسلطة الوطنية الفلسطينية في العاشر من أيار/مايو عندما كان في تونس، وقام أعضاء الحكومة بحلف اليمين الدستوري أمام الرئيس في مدينة أريحا في الثاني من تموز/يوليو عام (ألف وتسعمائة وأربعة وتسعين).

وقد تضمن تكليف الوزراء مهمات بناء مؤسسات السلطة بما في ذلك الوزارات والهيئات والأجهزة الأمنية وكذلك تطوير البنية التحتية وتحسين الخدمات والأحوال المعيشية للفلسطينيين.

خلال الشهور التي تلت وصول ياسر عرفات إلى غزة، وصل إلى الضفة الغربية وغزة عشرات الآلاف من كوادر منظمة التحرير قادمين من مختلف أماكن انتشارهم وتواجدهم.

بناء السلطة والانتخابات

جرت أول انتخابات عامة في فلسطين، رئاسية وبرلمانية، بعد أقل من (ثمانية عشر) شهراً على وصول عرفات إلى غزة وبعد اكتمال انسحاب الاحتلال من المدن الفلسطينية وبمشاركة سكان القدس الشرقية الذين تمثلوا في المجلس التشريعي بستة نواب من بين (ثمانية وثمانين) نائباً مثلوا الضفة وغزة، وقد تنافس ياسر عرفات، الذي فاز بأغلبية ساحقة، مع أكثر من مرشح كان من بينهم الناشطة السياسية السيدة سميحة خليل.

بعد تسعين يوماً على انتخاب المجلس التشريعي في ٢١ نيسان / أبريل ٩٦، انعقد المجلس الوطني الفلسطيني في غزة للمرة الأولى بعد مؤتمره التأسيسي عام (ألف وتسعمائة وأربعة وستين)، حيث أقر بأغلبية الأصوات إلغاء أحكام الميثاق الوطني التي تتعارض مع مضمون الرسائل المتبادلة بين منظمة التحرير وحكومة إسرائيل.

أنشأت السلطة الفلسطينية مطار غزة الدولي الذي انتهى العمل في إنشائه في النصف الثاني من تشرين الثاني عام (ألف وتسعمائة وثمانية وتسعين)، كما تأسست بالتوازي مع ذلك الخطوط الجوية الفلسطينية، ووضعت الدراسات الأولية لإنشاء ميناء غزة، وفي الرابع عشر من كانون الأول/ديسمبر افتتح المطار رسمياً بحضور الرئيس ياسر عرفات والرئيس الأميركي بيل كلينتون.

دخلت مدينته بيت لحم القرن الثالث على ميلاد السيد المسيح تحت ولاية السلطة الفلسطينية ضمن احتفالات «بيت لحم ٢٠٠٠» وبمشاركة دولية واسعة بلغت ذروتها في زيارة البابا يوحنا بولس الثاني للمدينة، حيث كان في استقباله الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، وتميزت مراسيم استقبال الحبر الأعظم بحفاوة كبيرة.

العمليات الانتحارية وعمليات العنف الإسرائيلي

خلال صلاة الفجر في رمضان ٢٥ شباط / فبراير عام (ألف وتسعمائة وأربعة وتسعين) تسلل المستعمر الإسرائيلي «باروخ غولدشتاين» إلى الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل وأطلق النار من سلاحه الشخصي على المصلين في واحدة من أبشع المذابح التي شهدتها فلسطين وراح ضحيتها نحو ثلاثين مصلياً فلسطينياً، ما دفع مجلس الأمن لاعتماد القرار (تسعمائة وأربعة) والذي أدان المجزرة وطالب إسرائيل بكبح جماح عنف المستوطنين غير الشرعيين.

في السادس من نيسان/إبريل من العام نفسه نفذت حركة حماس عملية تفجيرية في حافلة للنقل

العام في مدينة العفولة نتج عنها مقتل ثمانية اسرائيليين.

وفي الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر عام (ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين) قام المتطرف اليهودي إيغال عمير باغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين في تل أبيب احتجاجاً على توقيع اتفاق أوسلو.

تواصلت العمليات التفجيرية بالتوازي مع تنفيذ بنود اتفاقية أوسلو، تاركة انعكاساتها على مراحل تنفيذ الاتفاق، والتي ستبلغ ذروتها في العام (ألفين واثنين)، الى أن اوقفت حماس عملياتها في العام (ألفين وأربعة).

تبنت بعض الفصائل الفلسطينية - مثل الجهاد الإسلامي وكتائب الأقصى ولاحقاً كتائب أبو علي مصطفى - أسلوب العمليات التفجيرية التي تواصلت حتى العام (ألفين وستة)، في الوقت الذي نفذت فيه إسرائيل عمليات اغتيال طالت قادة مثل الشيخ أحمد ياسين، مؤسس حماس، وأبو علي مصطفى، أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى)

أطلق دخول أرئيل شارون إلى الحرم الشريف في ٢٨ أيلول/سبتمبر في العام ألفين تحت حراسة إسرائيلية مشددة احتجاجات شعبية فلسطينية واسعة قام الجيش الإسرائيلي بقمعها بوحشية، ما أدى إلى استشهاد سبعة من المتظاهرين الفلسطينيين.

كانت تلك هي الشرارة التي أدت إلى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي عرفت بانتفاضة الأقصى.

استمر جيش الاحتلال الإسرائيلي في قمع التحركات الفلسطينية التي اتخذت طابعاً سلمياً في الفترة الأولى، ووصل عدد الشهداء إلى أكثر من ثمانين فلسطينياً خلال عشرة أيام.

سجل مراسلو الاعلام في الثلاثين من ايلول/ سبتمبر مقتل الطفل محمد الدرة على يد قوات الاحتلال وهو ما اصبح رمزا للوحشية الاسرائيلية ضد المدنيين الفلسطينيين.

وفي الثاني عشر من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠، اعتقلت الشرطة الفلسطينية مجندين إسرائيليين في رام الله. انتشرت إشاعة حول كونهما من وحدة مستعربة، فقام الجمهور الغاضب بمهاجمة قسم الشرطة والتنكيل بالاثنتين حتى الموت.

فرضت قوات الاحتلال قيوداً شديدة على حركة الأفراد والبضائع في الأرض الفلسطينية المحتلة في

أيار/مايو ٢٠٠١، مقسمة الأراضي الفلسطينية إلى عدة أقسام تفصل بينها حواجز عسكرية. في المقابل، تواصلت فعاليات الانتفاضة متخذة أساليب متعددة في المواجهة مع قوات الاحتلال بما فيها الاشتباك المسلح.

اجتاحت الدبابات الإسرائيلية مدينتي بيت لحم وبيت جالا وأعدت احتلالهما وحاصرت المقاومين في كنيسة المهدي في ١٩ تشرين الأول/أكتوبر في العام ألفين وواحد.

وفي العاشر من كانون الثاني / يناير من العام (ألفين واثنين) قامت قوات الاحتلال بمهاجمة مطار غزة الدولي وتدميره، وفي العاشر من آذار/مارس دمرت طائرات مروحية إسرائيلية «المتدى» مقر ياسر عرفات في غزة.

وفي ٢٩ آذار/مارس من العام ٢٠٠٢ أطلقت إسرائيل حملة «السور الواقى» العسكرية، فاجتاحت مدينة رام الله بالكامل ودخلت الدبابات الإسرائيلية إلى المقاطعة حيث مقر ياسر عرفات الذي أطلق مقولته الشهيرة: «يريدونني أسيراً... ولكن أقول لهم شهيداً شهيداً شهيداً».

في الثلاثين من آذار/مارس من العام ٢٠٠٢ شنت قوات الاحتلال حملة اجتياحات واسعة عبر كل الأرض المحتلة واقتحمت العديد من المدن محدثة تدميراً واسعاً في البنية التحتية وإدارات السلطة ومؤسساتها ومقرات الأجهزة الأمنية وموقعة أعداداً متزايدة من الشهداء والجرحى ومعيدة سيطرتها المنفردة عسكرياً على الضفة الغربية بما في ذلك المناطق المصنفة «أ» و«ب»، حيث تواصلت الحملة حتى الثالث من أيار/مايو من العام (ألفين واثنين).

في شمال الضفة حاصرت قوات الاحتلال الإسرائيلي مخيم جنين في الثاني من نيسان/إبريل من العام ٢٠٠٢ وخاضت قتالاً ضارياً بمختلف أنواع الأسلحة ضد المخيم، واستمر القصف والعمليات العسكرية حتى ١١ نيسان/إبريل، ما أدى إلى استشهاد ٥٢ فلسطينياً من المقاتلين والمدنيين وتدمير أجزاء واسعة من المخيم، قاد هذا إلى ادانة دولية واسعة، فيما اكدت منظمات حقوق الإنسان ارتكاب إسرائيل جرائم حرب في المخيم.

الجدار ومحكمة العدل الدولية

طلبت الجمعية العامة من محكمة العدل الدولية في الثامن من كانون الأول/ديسمبر (من العام ألفين وثلاثة) أن تصدر فتوى قانونية حول الآثار القانونية المترتبة على بناء إسرائيل، قوة الاحتلال، جداراً في الأراضي الفلسطينية المحتلة بما في ذلك القدس الشرقية وحوالها.

وعقدت المحكمة في الثالث والعشرين من شباط/فبراير (ألفين وأربعة) جلسة استماع للبيانات الشفوية، حيثُ قدم الفريقُ الفلسطينيُّ بياناته. أصدرت محكمة العدل الدولية (في التاسع من تموز/ يوليو الفتوى التي تضمنت عدم شرعيته.

حصارُ ياسر عرفات

انطلقت المفاوضات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في الحادي عشر من تموز/ يوليو عام ٢٠٠٠ بواسطة أميركية في منتجع كامب ديفيد بهدف التوصل لاتفاقٍ حول قضايا الحل النهائي. تواصلت القمة أسبوعين دون التوصل إلى اتفاقٍ، حيثُ شكلت القدس نقطة الخلاف الرئيسية، وبدأت الإدارة الأميركية تضع اللوم على ياسر عرفات؛ لعدم التوصل لاتفاق. لاحقاً وفي مسعى لإنقاذ الحل السياسي تقدم الرئيس كلينتون بخطة للجانبين حول اتفاقٍ للحل النهائي، وهي ما أصبحت تُعرف بـ«محددات كلينتون».

في ٢١ كانون الثاني/ يناير (من العام ألفين وواحد) جرت جولة جديدة من المفاوضات بين الجانبين في طابا المصرية، وعلى الرغم من إحراز بعض التقدم، لم يتمكن المتفاوضون من التوصل لاتفاقٍ بسبب الانتخابات الإسرائيلية التي جرت في السادس والعشرين من شباط/ فبراير، وانتهت بفوز أريئيل شارون برئاسة الوزراء بأغلبية ساحقة من الأصوات ضد إيهود باراك.

بات واضحاً أن عملية جديدة لتدمير السلطة الفلسطينية وحصار ياسر عرفات قد بدأت، كانت الخطة تتدرج في أكثر من منطقة، في الداخل كانت العمليات التفجيرية تتساقط مع حملة إعلامية منظمة، حيثُ يتم عزل الرئيس سياسياً وشعبياً بانتظار الخطوة السياسية التي تروّج لتحميله مسؤولية فشل عملية السلام.

كانت الأمور واضحة بالنسبة للرئيس عرفات الذي أصرّ على البقاء في رام الله وهو مدرك حجم المواجهة وأهدافها.

في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ تحركت دبابات وآليات عسكرية إسرائيلية حول المقاطعة، مقر الرئيس عرفات في رام الله، ترافق ذلك مع إعلان حكومة إسرائيل قطع علاقاتها معه، ومنع الرئيس الفلسطيني من التحرك خارج المقاطعة، بما في ذلك منعه من المشاركة - كما جرت العادة - في أعياد الميلاد بكنيسة المهدي في بيت لحم. بينما تواصلت التهديدات المباشرة والإعلان عن اتخاذ ولاحقاً الاعلان عن قرار الحكومة الإسرائيلية بإزالة ياسر عرفات .

صعدت إسرائيل من حصارها للرئيس الفلسطيني وقصفت المروحيات أحد مباني المقاطعة في رام الله بصاروخين في (الحادي والعشرين) شباط/ فبراير عام ألفين واثنين.

وفي السابع والعشرين من آذار/ مارس اعلن أرئيل شارون أن عرفات يتأسس منظمة إرهابية وأن حكومة إسرائيل تعتبره عدواً لها.

في الرابع والعشرين من حزيران/ يونيو عام ألفين واثنين ألقى الرئيس الأميركي جورج بوش بياناً يقول فيه «السلام يتطلب قيادةً جديدةً ومختلفةً، حتى يمكن أن تولد دولة فلسطين. مطالباً الشعب الفلسطيني باختيار قادة جدد «غير ملوثين بالإرهاب»، على حد تعبيره.

ساهمت أخبار انتشار في الثاني والعشرين من أيلول / سبتمبر عام (ألفين واثنين) مفادها أن قوات الاحتلال الإسرائيلي على وشك اقتحام مكتب عرفات واعتقاله أو اعتقاله في خروج آلاف الفلسطينيين للتضامن مع الرئيس في تحرك جماهيري عفوي بما في ذلك مدينة رام الله على الرغم من حظر التجول المفروض عليها.

استمر حصار ياسر عرفات، الرئيس المنتخب للشعب الفلسطيني، أكثر من أربعة وثلاثين شهراً قبل أن يغادر في التاسع والعشرين من تشرين الأول / أكتوبر عام (ألفين وأربعة) المقاطعة على متن مروحية في طريقه إلى فرنسا لتلقي العلاج بعد تدهور وضعه الصحي.

انتقل ياسر عرفات إلى رحمته تعالى في الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر من العام ألفين وأربعة الساعة الرابعة فجراً في مستشفى بيرسي العسكري.